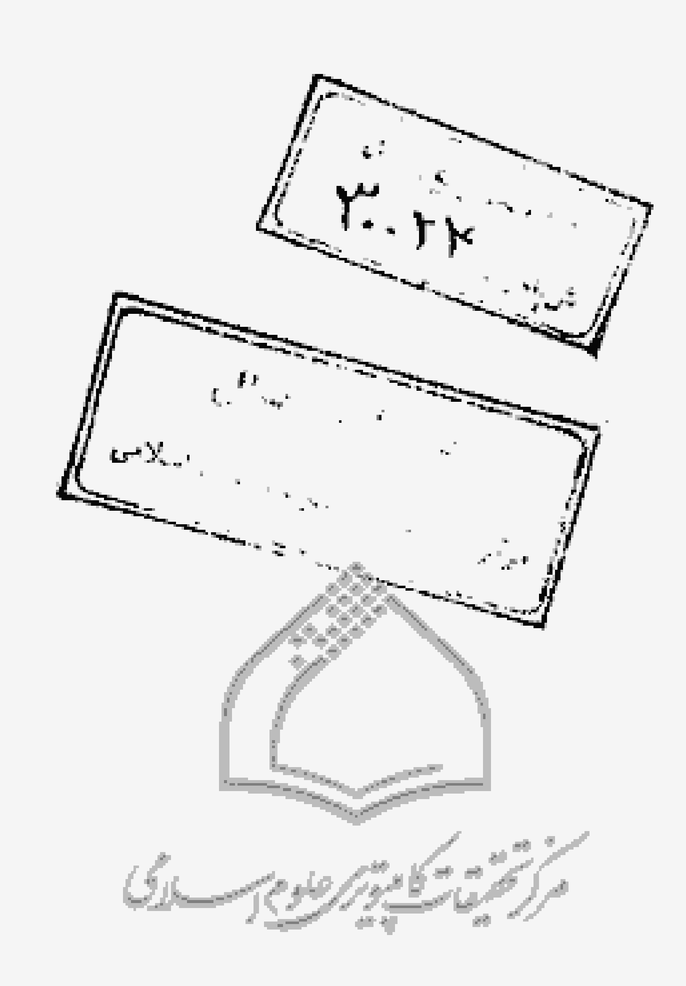
جامع السعادات

تأليف
العلامة النراقي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان



جامع السعادات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

منشورات
جامعة النجف الدينية

١

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

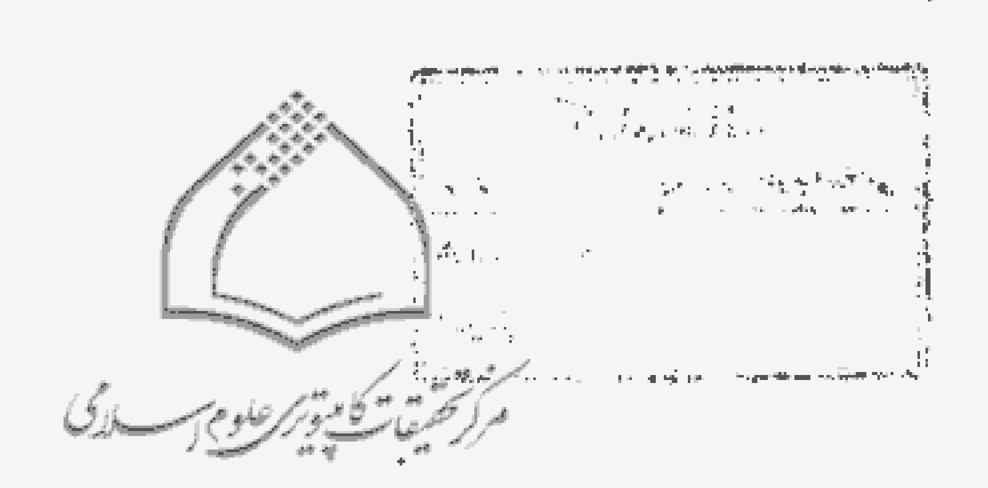
المتوفى ١٢٠٩ هـ

الجزء الأول

تصدى لنشره والتعليق عليه وتصحيحه
السيد محمد كلانتر

قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الرابعة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف

١١٢٨ — ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة ، ومن أصحاب التأليفات القيمة . ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين .

وهو عصامي لا يُعرف عن والده (أبي ذر) إلا أنه كان موظفاً في الدولة الايرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق) ، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيات التاريخ كملايين البشر من أمثاله ، ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي اخوة ، ولكن له ولد نابه الذكر ، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤ ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه ، وصاحب التأليفات الثمينة ، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر . وكفاه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١ .

ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته ، لما وطيء عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف . كما حذا حذوه في تأليفاته . فان الأب المكرم ألف في الفقه (معتمد الشيعة) .

والابن الجليل ألف مستندها . وذاك ألف في الأخلاق (جامع السعادات) - هذا الكتاب الذي نقدمه - وهذا ألف (معراج السعادة) في الفارسية . وذاك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخزائن) . . . وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج .

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له - رحمه الله تعالى - في (نراق) كعراق (١) ، وهي قرية من قرى كاشان بايران ، تبعد عنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر . ولم يذكر التأريخ سنة ولادته ، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التأريخية ، فانه تلمذ - في أول نشأته على ما يظهر - على الشيخ المحقق الحكيم المولى اسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة ، مع العلم أن استاذه هذا توفي عام ١١٧٣ ، فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير ، إذا فرضنا أنه لازمه الى حين وفاته : ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاماً ، وعليه فتكون ولادته عام ١١٢٨ ، أو قبل ذلك .

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف ، ودفن فيها ، فيكون قد بقي بعد وفاة استاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة ، ويكون عمره ٨١ عاماً على الأقل .

وفي (رياض الجنة) المخطوط ، تأليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له - حسب نقل الاستاذ حسن النراقي - : ان عمره كان ٦٣ سنة ، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ هـ . وهذا لا يتفق أبداً مع ما هو معروف في

(١) وفي أعيان الشيعة - ج ١٠ ص ٢٥٠ - : انها بفتح النون .

تأريخه : انه تلمذ على المولى اسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة ، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة استاذه ٢٧ سنة فقط .

نشأته العلمية وأساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم: خامل الذكر ، فقير الحال منزوياً في مدرسته ، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر ، ولا يتصل به إلا أقرانه في دروسه ، الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب ، يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه ، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاب العلم ، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس .

وبطبيعة الحال لا يسجل له التأريخ شيئاً في هذه النشأة ، وكذلك كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع اليه الطلاب في التدريس ، أو الناس في تقليد ، أو تكون له مؤلفات تشتهر . ومن هنا تبتدىء معرفة حياة الرجل العالم ، وتظهر آثاره ويلمع اسمه .

ومع ذلك ، فانا نعرف عن شيخنا : ان أسبق أساتذته وأكثرهم حضوراً عنده هو المولى اسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر . وهذا الاستاذ كان مقره في اصفهان ، وفيها توفي ودفن ، والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في الكارثة التأريخية المفجعة التي أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التأريخ عن مثلها ، وذلك سنة ١١٣٤ . فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلمية في مبدأ تحصيله في اصفهان على هذا الشيخ الجليل . والظاهر أنه عليه قرأ الفلسفة ، لأن هذا الشيخ من اساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر الى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار . وكفى ان من تلاميذه المولى محراب ، الإلهي المعروف ، الذي طورد لقوله

بوحدة الوجود ، ولما جاء الى إحدى العتبات المقدسة متخفياً . وجد في الحرم شيخاً ناسكاً يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب ، ولما سأله عن السبب في لعنها قال : لأنها يقولان (بوحدة واجب الوجود) ، فقال له ساخراً : إنهما حقاً يستحقان منك اللعن !

ودرس أيضاً شيخنا المترجم له — والظاهر أن ذلك في اصفهان أيضاً — على العالمين الكبيرين : الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدي الهرندي . وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر .

ولا شك أنه انتقل الى كربلاء والنجف ، فدرس على الأعلام الثلاثة: الوحيد البهبهاني الآتي ذكره — وهو آخر أساتذته وأعظمهم ، وتخريجه كان على يديه — والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦ ، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣ .

فجملة أساتذته سبعة ، سماهم ولده في بعض اجازاته على ما نقل عنه بـ (الكواكب السبعة) . وهم خيرة علماء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الآقا الوحيد استاذ الأساتذة .

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا ، رجع الى بلاده واستقام في كاشان . وهناك أسس له مركزاً علمياً تشد اليه الرحال ، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء ، واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز العلم في ايران ، وليس لدينا ما يشير الى تأريخ انتقاله الى كاشان .

ورجع الى العراق ، وتوفي في النجف الأشرف ودفن فيها . والظاهر ان مجيئه هذا كان — وكان معه ولده — بعد استاذه الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفي ، أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء .

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق ، بل على أكثر المدن الشيعية في ايران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية - كاصفهان وشيراز وخراسان - وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني : الاولى : النزعة الصوفية التي جرّت الى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية : النزعة الاخبارية .

وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي ، وتدعو الى نفسها بصراحة لا هوادة فيها ، حتى أن الطالب الديني في مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالي ، فلا يحمل مؤلفات العلماء الاصوليين إلا بمنديل ، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف ، وكربلا يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية .

وفي الحقيقة ان هذا القرن يمر والروح العامية فاترة الى حد بعيد ، حتى أنه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠ ، لم تجد واحداً من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الاولى ، أو تكون له الرئاسة العامة ، إلا من ظهر في أواخر القرن كالشيخ الفتوني الجليل في النجف المتوفي ١١٨٣ ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلا المتوفى ١٢٠٨ ، الذي تم على يديه تحول العلم الى ناحية جديدة من التحقيق .

وهذا الفتور العلمي ، وطغيان نزعة التصوف من جهة ، ونزعة الاخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص ، مما يدعو الى التفكير والعجب ، وليس بايدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك . وأغلب الظن أن أهم الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي

اللذان آلت اليها البلاد الإسلامية في ذلك القرن ، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد ، والحروب الطاحنة بين الامراء والدول ، لاسيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية ، وبين الايرانية والأفغانية ، تلك الحروب التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية . وهذا كله مما يسبب البلبلة في الأفكار والاتجاهات ، وضعف الروح العامة المعنوية .

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية ، والسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة الى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة ، واليأس من الاصلاح . فتنشأ هنا نزعة التصوف ، وتتخذ يومئذ صرحاً علمياً على انقاض الفلسفة الاشراقية الإسلاميـة المطاردة المكبوتة ، التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء ، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ ، واضرابه واتباعه ، مع المغالاة في أفكارها . وساند طريقة التصوف مبدئياً أن السلطة الزمنية في ايران — وهي (سلطة الصفويين) — قامت على أساس الدعوة الى التصوف . وظلت تؤيدها وتمدها سراً .

ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينكر على الناس أن يركنوا الى العقل وتفكيره ، ويلتجأ الى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو بهؤلاء الى ادعاء أن كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو . فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده ، من دون الرجوع الى الأخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك علم الاصول عرض الجدار ، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند الى الاخبار ، والعقل أبداً لا يجوز الركون اليه في كل شيء ، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد . وهكذا تنشأ فكرة الأخبارية الحديثة التي أول من دعا اليها أو غالى في الدعوة اليهـا المولى

أمين الدين الاسترابادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره . وهذا الثاني - وإن كان أكثر اعتدالا من الأول واضرابه - كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا الى اعتناق فكرة الاخبارية هذه .

وعندما وصلت هذه الفكرة الاخبارية الى أوجها ، ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني ، الذي قيل عنه بحق : مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة . فان هذا العالم الجليل كان لبقاً مفوهاً ومجاهداً خبيراً ، فقد شن على الاخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلفاته ، وبمحاججاته الشفوية الحادة مع علمائها . وقد نقل في بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها - وبدروسه القيمة التي يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله ، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الاصول الحديث ، وخروجه عن جموده الذي ألفه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمي الى ناحية جديدة غير مألوفة .

فانكمشت في عصره النزعة الاخبارية على نفسها ، ولم تستطع أن تثبت امام قوة حجته . وتخرج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الامة ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء ، والمحقق القمي ، والشيخ النراقي - المترجم له - وأشباههم .

فيبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الاخبارية والأصولية ، وساحتها كربلا ، وفي عنفوان معركة الدعوة الى التصوف ، وساحتها اصفهان على الأكثر ، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين ، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه ، وساعده على ذلك انه - رحمه الله - كان متفنناً في دراسة العلوم ، ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدماتهما ، فقد شارك العلوم الرياضية ، كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها

سيأتي ذكرها . كما درس الفلسفه ، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات) ، لا سيما في الباب الأول ، وفي تقسيمه لأبواب الكتاب وفصوله على أساس علمي متقن برّز فيه على كتب الأخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسيأتي بيان ذلك .

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين :

(الأول) طغيان التصوف من جهة ، وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة من جهة أخرى ، وأنهما هما اللذان ألجآه الى أن يرشد الناس الى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية ، فانه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادىء الفلسفة الاشراقية ، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف ، وجعل آراءه ودعوته الى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت - عليهم السلام - فهو في وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (احياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الاولى على الروح الصوفية ، وهي غايته المثلى .

و (الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة ، فانه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية - بعد خرّيت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ - الى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا .

شخصية المترجم له وأخلاقه

إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة ، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكه راسخة في نفوسهم ، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وماكلمة الحظ في هذا الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة . وقد تكون

تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الأكثر هي كذلك ، فيندفع العبقري الى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعاً لا شعورياً ، وان أعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره .

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم ، ثم عزة نفسه ، وإن كانت هذه الفاظاً عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع ، إلا أن للدرجة الخاصة من الصبر والارادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه الألفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الامور في ثلاث حوادث منقولة عنه :

(الاولى) - فيما ينقل انه كان في أيام التحصيل في غاية الفقر والفاقة - والفقر دائماً شيمة العلماء ، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم ، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي - فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن أن يكون من زيت أو شمع ، فيدعوه حرصه على العلم الى الدخول في بيوت في مراحيض المدرسة ، ليطالع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته أن يدع غيره يشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين - بالتنحنح - انه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الأفذاذ .

(الحادثة الثانية) - أن أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب الراقي ، ان هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب انه رث الثياب . وكان معجباً به ، إذ كان

يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب ، فرأى أن يكسيه تقرباً الى الله فهيأ له ملبوساً يليق بشأنه ، وقدمه له عند ما اجتاز عليه ، فقبله بالحاح . ولكن هذا الطالب الأبي في اليوم الثاني رجع الى رفيقه الكاسب وارجع له هذا الملبوس قائلاً : اني لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أطيقها ، لا سيما حينما اجتاز عليك ، فلم أجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم ، والقاه عليه ومضى معتزاً بكرامته .

(الحادثة الثالثة) - فيما ينقل عنه أيضاً - وهي أهم من الأولى والثانية - انه كان لا يفض الكتب الواردة اليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة ، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الأمر يتطلب قوة ارادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر . ويتفق أن يقتل والده (أبو ذر) المقيم في نراق وطنه الأصلي ، وهو يومئذ في اصفهان ، يحضر على استاذه الجليل المولى اسماعيل الخاجوئي ، فكتبوا اليه من هناك بالنبأ ليحضر الى نراق ، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون اخرى ، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب ، ولم يعلم بكل ما جرى . ولما طالت المدة على من في نراق ، كتبوا له مرة أخرى ، ولكن لم يجبهم أيضاً . ولما يئسوا منه كتبوا بالواقعة الى استاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء . والاستاذ في دوره - على عادة الناس - خشى أن يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له - تمهيداً لاخباره - الحزن والكآبة ، ثم ذكر له : ان والده مجروح ، ورجع له الذهاب الى بلاده ولكن هذا الولد الصلب القوى الشكيمة لم تلن قناته ، ولم يزد أن دعا بالعافية ، طالباً من استاذه أن يعفيه من الذهاب . وعندئذ اضطر الاستاذ الى أن يصرح له بالواقع ، ولكن الولد أيضاً لم يعبأ بالأمر ، وأصر على البقاء لتحصيل العلم . إلا أن الاستاذ هذه المرة لم يجد بداً من أن يفرض

عليه السفر ، فسافر امتثــالا لأمره المطاع ، ولم يمكث في نراق أكثر من ثلاثة أيام ، على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ثم رجع الى دار هجرته . وهذه الحادثة لها مغزاها العميق في فهم نفسية هذا العالم الإلهي ، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم .

مؤلفاته

لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة ، تدل على قابلية فى التأليف وصبر على البحث والتتبع ، وعلى علم غزير . ونحن نعـد منها ما وصل بحثنا اليه ، وأكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة :

(في الفقه) :

١ — (لوامع الأحكام في فقــه شريعة الإسلام) : وهو كتاب استدلالي مبسوط ، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلدين يقرب من (٣٠) الف بيت :

٢ — (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة) : هو أتم استدلالاً واخصر تعبيراً من كتاب اللوامع السالف الذكر ، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضـاء . قال في الروضات عن الكتابين : « ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيراً » .

٣ — (التحفة الرضوية في المسائل الدينية) : في الطهارة والصلاة ، فارسي ، يقرب من (١٠) آلاف بيت .

٤ — (أنيس التجار) : في المعاملات ، فارسى ، يقرب من (٨) آلاف بيت .

٥ — (أنيس الحجاج) : في مسائل الحج والزيارات ، فارسي ، يقرب

من (٤) آلاف بيت .

٦ — (المناسك المكية) : في مسائل الحج أيضاً ، يقرب من ألف بيت .

٧ — (رسالة صلاة الجمعة) : ذكرها وما قبلها حفيده (الاستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا .

(في أصول الفقه) :

٨ — (تجريد الأصول) : مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره ، يقرب من (٣) آلاف بيت . قال عنه في الروضات : « شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمة » ،

٩ — (أنيس المجتهدين) : توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العـامة بالنجف الأشرف (برقم ٤٠٨ — سجل المخطوطات) ، تقع في ٤١١ صفحة ، بخط محمد حسين بن علي نقي البزاز فرغ منها بتأريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١ . وفي تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت .

١٠ — (جامعة الأصول) : يقرب من (٥) آلاف بيت .

١١ — (رسالة في الاجماع) : يقرب من (٣) آلاف بيت .

(في الحكمة والكلام) :

١٢ — (جامع الأفكار) : في الإلهيات ، يقرب من (٣٠) الف بيت قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣ ، وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته ، كما قال عنـه صاحب (رياض الجنة) ، وستجد راموزاً للصفحتين الأولى والأخيرة منه بخط المؤلف ، منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد أحفاده (الاستاذ حسن النراقي) . والذي يجلب الانتباه في الصفحة الأخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة .

١٣ — (قرة العيون) : في أحكام الوجود والمـاهية ، يقرب من

(٥) آلاف بيت ،

١٤ - (اللمعات العرشية) : في حكمة الاشراق ، يقرب من (٢٥) الف بيت .

١٥ - (اللمعة) : وهو مختصر اللمعات ، يقرب من الفي بيت .

١٦ - (الكلمات الوجيزة) : وهو مختصر اللمعة ، يقرب من ثمانمائة بيت .

١٧ - (أنيس الحكماء) : في المعقول ، وهو من أواخر تأليفاته ، لم يتم . احتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيات ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٨ - (أنيس الموحدين) : في أصول الدين ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٩ - (شرح الشفا) : في الإلهيات ، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الاستاذ حسن النراقي) .

٢٠ - (الشهاب الثاقب) : في الامامة ، في رد رسالة الفاضل البخاري ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

(في الرياضيات) :

٢١ - (المستقصى) : في علوم الهيئة ، خرج منه مجلدان الى مبحث اسناد الحركات . يقرب من (٤٠) ألف بيت ، قال عنه في رياض الجنة: «لم يعمل أبسط وأدق منه في علم الهيئة ، ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية ، لم يتم» .

٢٢ - (المحصل) : كتاب مختصر في علم الهيئة ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

٢٣ - (توضيح الاشكال) : في شرح تحرير اقليدس الصوري

في الهندسة ، وقد شرحه الى المقالة السابعة ، فارسي ، يقرب من (١٦) ألف بيت .

٢٤ - (شرح تحرير اكرثاذوسنيوس) : يقرب من (٣) آلاف بيت .

٢٥ - (رسالة في علم عقود الأنامل) : فارسية ، تقرب من الف بيت .

٢٦ - (رسالة في الحساب) : ذكرها في روضات الجنات .

(في الأخلاق والمواعظ) :

٢٧ - (جامع السعادات) : هذا المطبوع بثلاثة أجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه في رياض الجنة : « يقرب من (٢٥) الف بيت » . وقد طبع في ايران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين ، وسيأتي وصفه ، وقد تقدم شيء من وصفه . وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الأشرف

٢٨ - (جامع المواعظ) : في الوعظ ، يقرب من (٤٠) الف بيت لم يتم .

(في المتفرقات) :

٢٩ - (محرق القلوب) : في مصائب آل البيت ، فارسي ، يقرب من (١٨) الف بيت ، قال عنه في روضات الجنات : « طريف الاسلوب »

٣٠ - (مشكلات العلوم) : في المسائل المشكلة من علوم شتى ، مطبوع على الحجر بايران ، يشبه بعض الشيء كشكول البهائي . وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بايران .

٣١ - (رسالة نخبة البيان) : ذكرها حفيده (الاستاذ حسن النراقي)

٣٢ - (معراج السماء) : ذكره أيضاً حفيده المذكور .

جامع السعادات وعلم الأخلاق

لاشك ان القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم ، وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف .

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس في حياته ، ومن أعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور الأجيال . ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظاً للانسانية .

وإذا أردنا أن نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها ، فانما في فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح أن نضعها في الرف الأعلى ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس ، فتمكث في الأرض ، وتفرض نفسها للخلود والبقاء إذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة . ومن سوء الحظ ان الفراغ لا يزال كثيراً في هذا الرف الأعلى .

ومن بين الفترات لابد أن تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه . وحظها ان تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيء انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الأعلى . وهذه غير الغثاء الذي يذهب جفاء ، ومن حقه أن يلقى في سلة المهملات وما أكثر هذا النوع الرخيص ، لاسيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الاسفاف .

ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا النراقي فنضعها في الرف الأعلى ، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه ، هو بالخصوص من الآثار الخالدة ، وإن لم يكن موضعه هذا الرف الأعلى كسائر الكتب الأخلاقية في الدورة الإسلامية . ولا ندري السر في ذلك ، لأن الفترة بعد لم تنته لعلم الأخلاق بخصوصه كيما يظهر الأثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الأعلى ،

أم لأن هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله في فترة مستديمة ليأس العلماء الأخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف ؟ !

وهذا الثاني هو الأقرب الى الواقع . والحق مع الأخلاقيين في يأسهم فان الأخلاق لا تكتسب بالعلم وقراءة الكتب ، وإنما هي صفات وملكات لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة ، لاسيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل أن يفرض في الانسان أن يكون أهلاً للقراءة ، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تنمبتها لكانت كتب الأخلاق من أثمن ما خلق الله ، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الأخلاق الفاضلة ، بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده ، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه ان تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة لتخرجهم ابريزاً صافياً كصاحبها ، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل أن تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جموداً علي مساوئها .

وليس هذا الرأي عن الكتب الأخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما اعتقد ، إلا اني مع ذلك لا اظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وأرباب القلوب الحية ، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الأخلاقية الموجهة اليهم ممن يعول على قوله ، ويتتبعون باخلاص مجهودات المؤلفين في الأخلاق ، ليترسموا خطاهم فيهذبوا أنفسهم .

ومن هنا نجد السبيل الى انصاف الأخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير ، لنعتقد انهم لم يعملوا عملاً باطلاً لا نفع فيه ، بل الحق أن له قيمته العظيمة ، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لا توازن بشيء في الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئياً على هذا التأثر ، وإن كان محدوداً . وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل في امة في بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من

نتائج هذا التأثر المحدود .

ومع ذلك ، فان تأثير الدعوة الأخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الأخلاقية المجردة . بل لروحية المؤلف أعظم الأثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام الى الخير . ومن هنا اشترطوا في الواعظ أن يكون متعظاً .

وعلى هذا الأساس ينبغي أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها ، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادىء العلمية - في نظر أرباب القلوب - تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلق عليها . ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثره هو بأقواله ، وما كانت شهرة (مجموعة ورام) ، وما كانت أهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق ، ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي (الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الأشتري) ، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضي بهذا الإهتمام . ومن العجيب أن قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهراً على قلمه في مؤلفاته ، فتلمسه في ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذي لا قلب له ، فانك لا تقرأ منه إلا كلاماً جافاً لا روح فيه ، مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية.

وفي نظري ان قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية . وإني لأتحدى قارىء هذا الكتاب إذا كان مستعداً للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته ، وهذا هو السر في اقبال الناس عليه وفي شهرته ، على انه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف ، وما كان عليه من خلق عال وايمان صادق .

وإني لأؤمن ايماناً لا يقبل الشك : ان انتشار هذا الكتاب بين الناس

في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أمتنا نحو الخير ، بعد ان نفدت طبعته الأولى وعزت نسخته ، ولا سيما ان خطباء المنابر - فيما اعتقد - ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثر به ونقل تأثرهم الى سواد الامة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة .

وهذا ما دفعني - والله هو الشاهد علي - الى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ، ليخرج بهذه الحلة ، وإن كانت ظروفي الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له ، لولا اني توكلت على الله ووطنت نفسي على تجاهلها وإهمال كثير مما يجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

النواحي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا ، اعتماده على المراسيل في الأحاديث ، وتسجيل كل ما يرى أمامه من المنقولات : غثها وسمينها ، من دون اشارة الى التمييز ولا الى المصادر ، حتى نقل كثيراً عن احياء العلوم . وتعمد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة ، اللذين يشهد اسلوبهما على وضع أكثر ما فيهما . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها ، وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياماً ، كما قد يذهب البحث سدى . وما كان يهمنا من الرجوع الى المصادر إلا تصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها ، فلذلك لا نشير في الحاشية الى المصدر إلا إذا وجدنا اختلافاً في نصه في النسخ ، فنقول : صححناه على كذا مصدر . وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل ، فنذكر الاستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما أعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات .

والذي يهوّن الخطب في هذه المؤاخذة - على أن لها قيمتها الفنية -

انها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلامية ، بل هذا ديدنها ، وكأن همّ أصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة فاذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحاً مقبولا في عرف أهل الحديث ، فاذا قال المحدث : « قال النبي والإمام كذا » ، يعني بذلك أن هـذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به ، وإلا فيقول « روى عنه كذا » أو ما يشبه ذلك أما الأخلاق فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأي طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولا في مذهبهم على ما قدمنا ، لولم تكن فيه إساءة الى أمانة النقل في أهم تراث اسلامي ديني ، في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث ، على أن في الثابت الصحيح عن آل البيت ـ عليهم السلام ـ ما فيه الكفاية للالمام بنواحي الأخلاق المطلوبة ، وما في (الكافي) كاف وحـده في هذا الباب . وكنا نتمنى ـ أثناء التصحيح ـ على صاحب كتابنا هذا الا يتبع هـذه العادة عند الأخلاقيين ، فيزيد على فائدته الأخلاقية فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة .

اما اسلوب الكتاب الأدبي ، فهو يمثل الى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة الى حد كبير ، بالرغم على أن الفـلاسفة الاشراقيين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الاسلوب ، لاسيما في العصر السابق على عصر المؤلف ، كالسيد الداماد المعظم المتوفى ١٠٤١ ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الأول : أمير البيان ، ولعل الثاني أحق بهذا اللقب . غير ان صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم . على أنه كان يقتبس كثيراً نص عبارات غيره استراحة اليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الأخلاقيين ، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة

بين الجميع ، أو لأن همهم أداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الأحاديث .

وبهذه المناسبة نقول : إنا وجدنا أثنـاء تصحيح الكتاب كثيراً من الألفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغاً من اللغة العربية ، ككلمة (القادسة) و (الملاكة ، ففضلنا أن نبقيها على ما وجدناها ، حرصاً على أمانة النقل ، وأهملنا التنبيه عليها ، ومثل كلمة (سيا) فضلنا أن نصححها ونضع كلمه (لا) بين قوسين اشارة الى زيادتها منا .

وإذا كانت أمانة النقل هي العذر لنـا في ذلك ، فهي التي تقضي علينا ان نصرح أن عناوين الكتاب على الأكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف .

وأما اسلوبه العلمي ، فقد بناه مؤلفه من أوله الى آخره على نظرية الوسط والأطراف في الأخلاق ، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية وقد بحث عنها المؤلف في (الجزء الأول ص ٥٩) . وليس من حقنا أن نناقشها ، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فان شأنه في الاعتماد على هذه النظرية الاساسية شأن ساير كتب الأخلاق الإسلامية العلمية .

ولكن الذي امتاز به كتابنا — بعد أن بحث مؤلفه بحثاً فلسفياً متوسطاً عن النفس وقواها ، والخير والسعادة ، والفضـائل والرذائل ، في البابين الأول والثاني ، كما صنع أسلافه — أن جعل أساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث : العاقلة والشهوية والغضبية ، معللا ذلك بأن « جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث » (١ / ٦٦) . وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من أجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة الى الأخرى ثم ذكر أنواعها ، واستقصى ذكر الأنواع ، مطبقاً على كل نوع نظرية الوسط والأطراف ، فجاء في استقصائه وإلحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بهـا ، بما لم يجيء به غيره ولم يسبقه اليه أحد فيما نعلم ، وهو نفسه ادعى

ذلك فقال : « ان احصاء الفضائل والرذائل وضبطها ، وادخال البعض في البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق » (١ / ٧١) .

وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب ، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة ، لو اتفق لغيره أن يترسم خطاه ، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الاخلاق كبيراً . وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه ، فلم يجعلها جنساً مقابلا لأجناس الفضائل الثلاث الأخرى ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها ، لا انها في مقابلها ، وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني ، ولا أظن أحداً يقره عليه ، ولا يثبت امام النقد . ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة ، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الأخلاقيه الأخرى . وقصدنا أن هـذا التقسيم من المؤلف ، وارجاع الفضائل والرذائل الى أسبابها ، وجعل مواضيع الأبحاث تلك القوى ، واحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها ، كل ذلك مستجد وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب .

تصحيح الكتاب ومراجعه

وعدت الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد كلانتر ، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحاً وتعليقاً — جزاه الله خير ما يجزى العاملون — : على الاشتراك معه واعانته على تدقيق وتحقيق هـذا السفر الجليل وتصحيحه أيضاً عند الطبع ، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه ، وذلك قبل سنتين . وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية ، فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفني الأمر .

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره ، باعتباره أحد الكتب التي يجب احياؤها في هذا العصر ، وهذا منه أحد شواهدي على تأثر الفتيان الكرام الابرار بهذا السفر الأخلاقي . وقد شاهدت صبره لأول مرة في ايران في صيف العام الماضي ، لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة ، في تصحيح قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ الى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع ، فأودعا في التعليقة آراءهما القيّمة في تحقيقه وتصحيحه . ولئن عدنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فانا اعتمدنا كثيراً على تلك التحقيقات القيمة الماضية .

ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة في ايران على الحجر ، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان اليهـا ، ويشوه المقصود والمعنى . ومن الغريب أن نجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة . أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، وتشويه الاملاء والتبويب ، فهذه امور حدّث عنها ولا حرج . ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا ، لتعرف أي مجهود بذل للتصحيح والاخراج ، وتجد العناية على كل سطر منه ، بل كل كلمة .

ومن سوء الحظ ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظاً في الصحة من اختها المطبوعة . وهذا ما دعانا الى أن نرجع الى كتب اخرى تمتّ بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب ، كالكتب الأخلاقية وكتب الحديث . وأكثر ما كان يعنينا تصحيح الأحاديث الشريفة بالرجوع الى مصادرها الذي جشمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق أكثر أوقاتنا ، وقد نذكر أحياناً في التعليقة المصدر المرجوع اليه ، وعلى الأكثر لا نذكر المرجع إلا عند ما يكون مخالفـاً لنسخ الكتاب . ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع

التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب ، وهي :

١ - النسخة من الكتاب - المشار اليها آنفاً - المطبوعة على الحجر بايران سنة ١٣١٢ .

٢ - النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمدمحسن الشهير بـ (آغا بزرگ) مؤلف الذريعة ، وقد نسخت سنة ١٢٠٨ . ونعبر عنها في التعليقة بـ (نسختنا الخطية) .

٣ - النسخة المخطوطة منه في مكتبة سپه سالار بطهران . ولايحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقها في المكتبة . وقد قوبلت النسخة الى حد صفحة ١٧٦ من الجزء الأول .

٤ - النسخة المطبوعة ، التي علكها الخطيب السيد جواد شبر ، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات .

٥ - احياء العلوم - للشيخ أبي حامد الغزالي .

٦ - احياء الاحياء - المجلد الرابع المطبوع في ايران على الحجر سنة ١٣٢٦ ، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني .

٧ - نسخة اصول الكافي - المخطوطة سنة ١١٠٣ ، في مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦) ، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة .

٨ - نسخة اصول الكافي - المخطوطة التي تحت تصرفنا .

٩ - فروع الكافي - المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٠ - الوسائل - المطبوعة سنة ١٣٢٣ ، المعروفة بطبعة عين الدولة .

١١ - البحار - المجلد ١٥ بجميع أجزائه الأربعة ، المطبوع على الحجر .

١٢ - كنز العمال - المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .

١٣ ــ مستدرك الوسائل ــ للشيخ المحدّث النوري ، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ .

١٤ ــ الوافي ــ للشيخ المولى محسن الفيض ، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ . وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٥ ــ سفينة البحار ــ المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة١٣٥٢ للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي .

١٦ ــ جامع الأخبار ــ المطبوع بالهند على الحجر .

١٧ ــ مصباح الشريعة ــ المطبوع بالهند على الحجر ،

وهذه غير المراجع التي رجعنا اليها نادراً : كمجموعة الشيخ ورام ، والحقائق للفيض ، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي ، ونهاية ابن الأثير . . . ونحوها كثير لا فائدة في احصائه . وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح أجزاء الكتاب ، والله تعالى هو الموفق للصواب .

ويجب ألا ننسى في الختام شكر الشيخ عبد الهادي الأسدي على جهوده التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع ، والأشتراك في مقابلة النسخة الأصلية وتدقيقها ، جزاه الله خير ما يجزي العاملين .

النجف الأشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ هـ

محمد رضا المظفر

مراجع البحث في الترجمة :

١ — (روضات الجنات) : للسيد محمد باقر الخوانساري ، المطبوع بايران على الحجر سنة ١٣١٦ ،

٢ — (الروضة البهيــة) : للسيد محمد شفيع الحسيني ، المطبوع بايران على الحجر .

٣ — (أعيان الشيعة) : للسيد محسن الأمين — الطبعة الأولى — في ترجمة الشيخين : أحمد النراقي واسماعيل الخاجوئي .

٤ — (مستدرك الوسائل) : — الجزء الثالث — للمحدث ميرزا حسين النوري .

٥ — (الذريعة) : للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهراني .

٦ — (الاسناد المصفى) : له أيضاً . المطبوع بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٦ .

٧ — (رياض الجنة) : المخطوط ، للسيد حسن الزنوزي المعاصر للمؤلف ، ومن تلامذة الوحيد البهبهاني ، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠) . وقد اعتمدنا عليها في تجديد النظر في الترجمة سنة ١٣٨٣ ، على ما نقله لنا عنها مكاتبة أحد أحفاد المترجم له (الاستاذ حسن النراقي) . وأكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر في تعداد مؤلفات المترجم له .

٨ — (قصص العلماء) : للميرزا محمد بن سليمان التنكابني ، المطبوع على الحجر بطهران .

ملاحظة :

في سفرتي الأخيرة الى ايران في العام الماضي - لامور تخص :

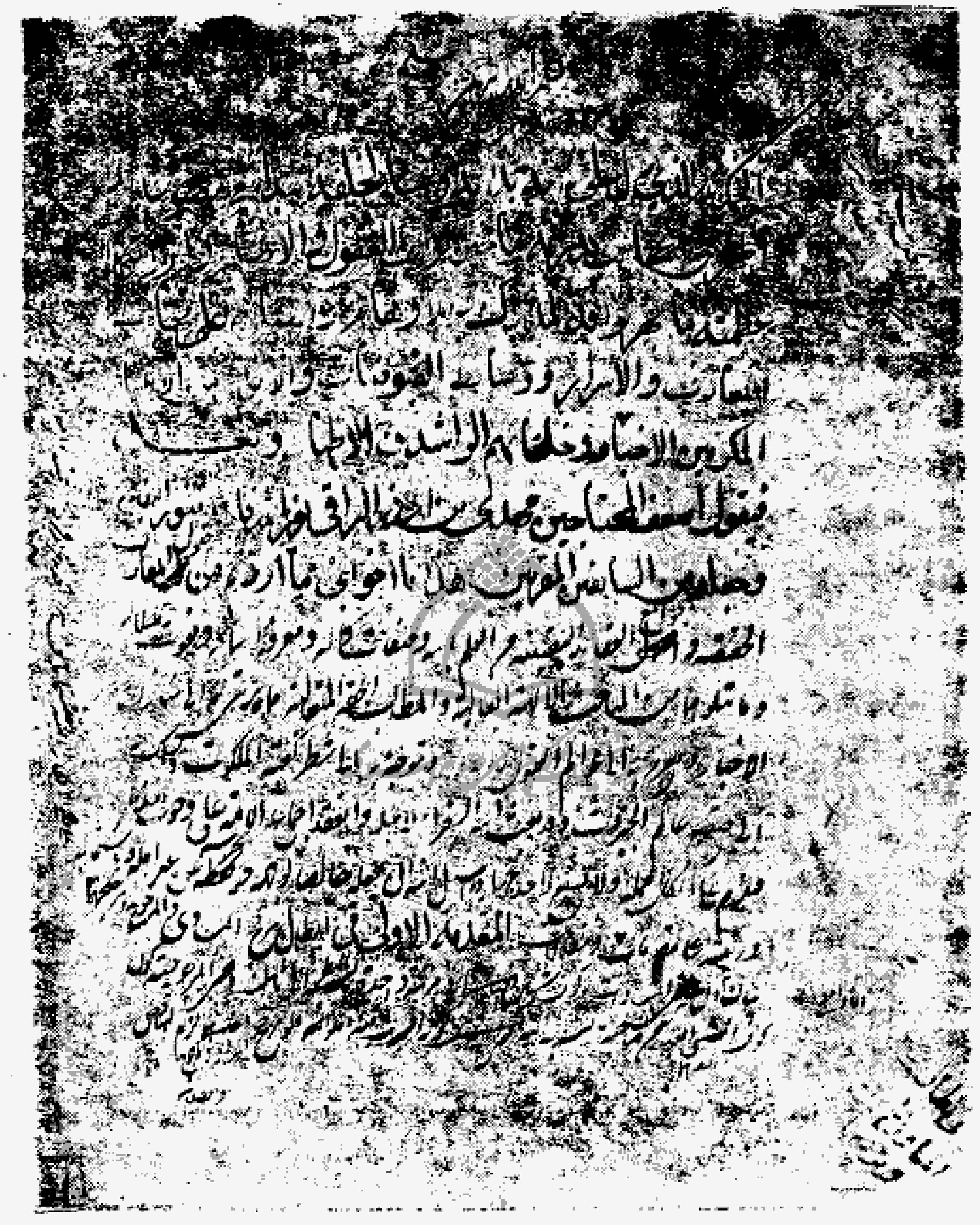
(جامعة النجف الدينية)

- التقيت مع الأخ الاستاذ (حسن النراقي) - دام ظله - من أحفاد المؤلف - قدس سره - ، جرى الحديث معه حول شيخنا المؤلف وعظمته .
فأراني الأخ النراقي نموذجاً من خطوط المؤلف الرّاقيـة ، فجذبني حسن الخط وروعته ، ولا سيا تلكم الصفحات من كتاب .

(جامع الأفكار وناقد الأنظار)

ففكرت في طبع نموذج الصفحة الاولى والأخيرة من الكتاب المذكور تثبيتاً لعظمة ناحيـة اخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلائل الفنون الروائع .
وقد أبدى الاستاذ النراقي موافقتـه على ذلك في اطار من التبجيل الصادق والأدب . . . مما يخص نفسيته الواسعة .
فشكراً له وتقديراً .

السيد محمود كلانتر



نموذج الصحفة الأولى من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف (قده)

(جامع الافكار وناقد الأنظار)

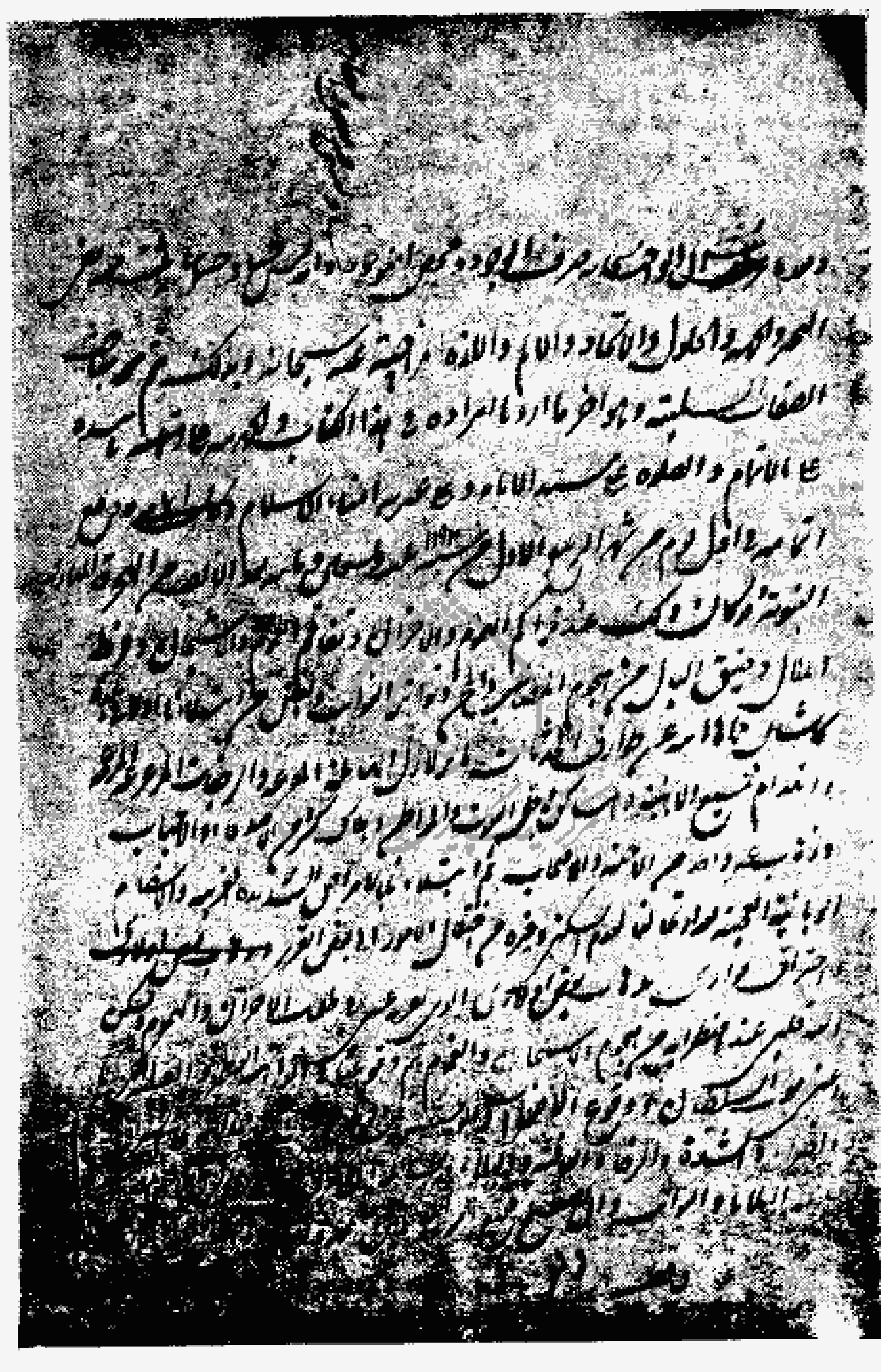
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي دل على ذاته بذاته وتجلى لخلقه ببدايع مصنوعاته ، اظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والافهام ، وأبرز من غرائب عظمته ما بهر نوافذ المدارك والأوهام ، خرق علمه باطن غيب السترات واحاط بغموض عقائد السريرات ، والصلاة على مهابط المعارف والاسرار ووسائط الفيوضات والأنوار ، من الأنبياء المكرمين الأخيار وخلفائهم الراشدين الأطهار .

وبعد فيقول أضعف المحتاجين : مهدي بن أبي ذر النراقي ـ نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين ـ : هذا يا اخواني ما أردتم من اصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية : من العلم بالله وصفات كماله ومعرفة أسمائه ونعوت جلاله ، وما يتلوهما من المباحث الإلهية العالية والمطالب الحقة المتعالية مما يرتقى به الى منازل الأخيار ويعرج به الى عوالم العقول والأنوار ، ويتوجـه به الى شطر كعبة الملكوت ويسلك به الى صقع عالم الجبروت . وقد بعث الله السفراء لأجله ، وانعقد اجماع الامة على وجوب أخذه ، فيلزم على الكل حمله ولا يسع لأحد جهله ، واسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه ويحرسه عن غير أهله ، ولاشتماله على جمع الأفكار الإلهيـة ونقدهـا ، سيما ما تعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشي ، وسميته بـ (جامع الأفكار وناقد الأنظار) ورتبته على مقدمات ومقالات .

المقدمة الاولى ـ في ابطال ترجح المساوي والمرجوح وترجيحهما .

بيان الأول : ان معنى المساوات كون شيئين في مرتبة واحدة بالنظر الى ثالث ، ومعنى المرجوحيـة كون الشيئين أحدهما أبعـد من الأخر ، والراجحية كونه أقرب منه ، فلو ترجح المساوى أو المرجوح لزم التناقض .



نموذج الصفحة الأخيرة من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف (قده)

وبعـــد ما ثبت ان الواجب - سبحانه — صرف الوجـــود ومحض الوجود وليس فيه نقص ولا ممازجة ، وانه ليس جسماً وجسمانياً ، ثبت معه نفي التحيز والجهة والحلول والاتحاد والألم واللذة المزاجية عنه سبحانه ، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية ، وهو آخر ما أردنا ايراده في هذا الكتاب والحمد لله على تأييده على الاتمام ، والصلاة على سيد الأنام وعلى عترته امناء الإسلام ووقع اتمامه في أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة ١١٩٣ — ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة المباركة النبوية — وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والأحزان وتفاقم الغموم والأشجان ، وفرط الملال وضيق البال ، من هجوم المصائب والمحن وتواتر النوائب والفتن ، من ابتلائنا أولا في بلدة كاشان — حماها الله عن طوارق الحدثان — بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزعجة ، وانهدام جميع الأبنية والمساكن وجلّ البيوت والمواطن ، وهلاك كثير من الأصدقاء والأحباب وذهاب غير واحد من الأحبة والأصحاب ، ثم ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة والأسقام الوبائية العجيبة ، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختـــلال الأمور الى بعض القرى ، واحتراق فؤادي بذهاب بعض أولادي الذي تقر به عيني في ظلمات الأحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم ثم وقوعنا في الداهية العظمى والفتنة الكبرى : أعني موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين أهل ايران . فأحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافيـــة والبلاء ، ونسأله أن يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلاياوالنوائب ، وأن يصلح جميع امور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وجعله أفضل أنواع الأكوان ، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الامكان ، أظهر فيه عجائب قدرته القـــاهرة ، وأبرز فيه غرائب عظمته الباهرة ، ربط به الناسوت باللاهوت ، وأودع فيه حقائق الملك والملكوت ، خمر طينته من الظلمات والنور ، وركّب فيه دواعي الخير والشرور ، عجنه من المواد المتخالفة ، وجمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة ، ثم ندبه الى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل ، والصلاة على نبينا الذي أوتي جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن الأخلاق والشيم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم .

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن أبي ذر النراقي) بصّره الله بعيوب نفسه ، وجعل يومه خيراً من أمسه : إنه لا ريب في أن الغاية من وضع النواميس والأديان ، وبعثة المصطفين من عظماء الانسان ، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين ، وايصالهم الى روضات العليين ،

وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت ، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت الى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق ورذائلها ، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها ، فيجب على كل عاقل أن يأخذ اهبته ، ويبذل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعـة وأرجاسها ، وتغسيل نفسه عن أقـذار الجسمية وأنجاسها قبل أن يتيه في بيداء الشقاق ، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة ما دام الاختيار بيده ، إذ لا تنفعه الندامة والحسرة في غده .

ثم لا ريب في ان التزكيـة موقوفة على معرفـة مهلكات الصفات ومنجياتها ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، وهـذا هو الحكمة الحقـة التي مدح الله أهلها ، ولم يرخّص لأحد جهلها ، وهي الموجبة للحيـاة الحقيقة ، والسعادة السرمدية ، والتارك لها على شفا جرف المهلكات ، وربما أحرقته نيران الشهوات .

وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينهـا . وجمعها وتبيينها ، على ما أدت اليه قوة أنظارهم ، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم. ولما جاءت الشريعة النبوية « على صادعها الف صلاة وتحية » حثت على تحسين الأخلاق وتهذيبها ، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان ، وغيرهم من أهـل الملل والأديان ، إلا انه لمـا كان ما ورد منهـا منتشراً في موارد مختلفة ، ومتفرقاً في مواضع متعددة ، تعسّر ان يحيط به الجل فلابد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل ، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرّ به أعين الطالبين ، وتسر به أفئدة الراغبين .

ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب ثم نشير الى أقسام الأخلاق ، ومبادئها من القوى ونضبطها بأجناسها وأنواعها ونتائجها وثمراتها ثم الى المعالجة الكلية لذمائم الأخلاق والجزئية لكل خلق مذموم ، مما له اسم مشهور ، وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة ، وفي تلوه نذكر ضده المحمود ، وما يدل على فضله عقلاً ونقلاً ، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لإزالة ضده ، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل ، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور ، ثم ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث ، لأن ذلك أدخل في ضبط الأخلاق ، ومعرفة أضدادها ، والعلم بمبادئها وأجناسها ، وهو من أهم الامور لطالبي هذا الفن .

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن ، لأن غرضنا في هذا الكتاب إنما هو مجرّد اصلاح النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وسميته « بجامع السعادات » ورتبته على ثلاثة أبواب .



الباب الاول

في المقدمات

انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار — تجرد النفس وبقاؤها — التذاذ النفس وتألمها — فضائل الأخلاق ورذائلها — الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف — حصول الملكات بتضاعف الأعمال — العمل نفس الجزاء — القول بتجسد الأعمال والملكات — المضادة بين الدنيا والآخرة — للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها — حقيقة الخلق وماهية الملائكة — الأقوال في تبدل الأخلاق والملكات — شرف علم الأخلاق — تعريف النفس واساميها باختلاف الاعتبارات — في الاشارة الى اعتبار مدافعة القوى الأربع — انقهار النفس بتسخير القوة العالية — اختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس — ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة — حقيقة الخير والسعادة — والجمع بين الأقوال المختلفة فيها — شرائط حصول السعادة — غاية ما يمكن الوصول اليه من السعادة — تقسيم اللذات والآلام — اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية — ايقاظ فيه موعظة ونصيحة — التنبيه على أن الفائت لا يتدارك .

فصل

(انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الانسان منقسم الى سر وعلن : وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات ، وآلام ولذات ، ومهلكات ومنجيات .

ومنافيات البدن وآلامه هي الأمراض الجسمانيه . وملائماته هي الصحة واللذات الجسمانية . والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الأمراض ومعالجاتها هو علم الطب . ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الأخلاق التي تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه الى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله الى مجاورة أهل الله ومقربيه . والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق) .

ثم ان البدن مادي فانٍ ، والروح مجرد باقٍ ، فان اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبداً ، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلداً ، ولابد لنا من الاشارة الى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعي في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية .

فصل

(في تجرد النفس وبقائها)

لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . أما الأول (والمراد به عدم كونها جسماً وجسمانية) فيدل عليه وجوه :

(منها) ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله ، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفه من المحسوسات والمعقولات من دون أن تزول الأولى بورود الأخرى ، بل كلما قبلت صورة

ازدادت قوتها على قبول الأخرى ، ولذلك تزيد القوة على ادراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسماً .

و (منها) ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بأن يصير طويلا عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بأن يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك ، وأيضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء .

و (منها) ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الامور الإلهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل الى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية ، بل تحن أبداً الى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب ، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما ، إذ لا ريب في أن ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة والعبادة والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما ، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدناً فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على أنها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .

و (منها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلاً لها ، ولا ريب في ان المادي لا يكون محلا للمجرد إذ كل مادي ذو وضع قابل للإنقسام ، وكون المحل ذا وضع قابل للإنقسام يستلزم أن يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله ، والمجرد لا يمكن أن يكون كذلك وإلا خرج عن حقيقته ، فالنفس لا تكون مادية وإذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة .

و (منها) ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة إذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني وضروري . والنفس قد تدرك ما لا طريق لشيء من الحواس الى إدراكه كالامور المجردة والمعاني البسيطة الكلية ، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات ، والضرورة العقلية قاضية بأنه لامدخلية لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك .

وأيضاً نحكم بانه لا واسطة بين النقيضين ، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادىء حسية إذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً ، فثله مأخوذ من المبادىء الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وأيضاً هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس ، وفيما يراه مستديراً وهو مربع ، أو مكسوراً وهو صحيح ، أو معوجاً وهو مستقيم ، أو منكوساً وهو منتصب ، أو مختلفاً في وضعه الواقعي، وفي رؤيته للأشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى ، وللذوق في ادراكه الحلو مراً ومثله ، كذا الحال في الشم واللمس ، ولا ريب في أن تخطئة النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع إنما يكون مسبوقاً بالعلم الذي لا يكون مأخوذاً من الحس ، لأن الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط الحكم مأخوذاً عنه .

ومما يؤكد ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها . ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادىء أخر .

و (منها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان في أفعالها وآثارهما ، والنفس تقوى في ادراكاتها وصفاتها ، كما في سن الكهولة ، أو يكونان

قويين في الأفعــال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب ، فلو كانت جسماً أو جسمانياً لكانت تابعة لها في الضعف والقوة .

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أواختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافي ذلك .

(قلنا) الضعف أو الاختلال إنما يحدث في الإدراك والأفعال المتعلقة بالقوى الجسمية ، وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها فلا يحصل فيه اختلال وضعف ، بل يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى .

وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لا يتطرق اليه الفساد لأنه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره ، ووجهه ظاهر .

فصل

(في بيان تلذذ النفس وتألمها)

إذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبداً ، فاعلم أنها ملتذة متنعمة دائماً أو معذبة متألمة كذلك . والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها ، ولما كانت لها قوتان: النظرية والعملية ، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بادراك كلياتها . والترقي منه الى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل حتى يصل الى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان . وهذا الكمال هو الحكمة النظرية .

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقي منه الى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه . وهذا هو الحكمة

العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها .

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة ، فلا يتم أحدهما بدون الآخر ، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير ، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

فصل

(في فضائل الأخلاق ورذائلها)

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة الى السعادة الأبدية ، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية ، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات . والوصول الى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات ، فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الأوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف ، ولو قصّر أدركته الهلاكة الأبدية ، إذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج الى الدنيا سوياً سميعاً بصيراً ناطقاً كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج الى عالم الآخرة كذلك .

« وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى

---

(١) اشارة الى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع الى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الامور أواسطها » . وسيأتي شرح المعنى من الوسط والطرفين .

وَأَضَلُّ سَبِيلاً » (١) .

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما ان المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة ، والثوب ما لم يُنقّ عن الأوساخ لم يقبل لوناً من الألوان ، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء ، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد ، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع اهمال البواطن ،

ومَثَلُ من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش (٢) ظاهرها جص وباطنها نتن ، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت ، فان الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، أو كمريض به جَرَب وقد أُمِرَ بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب

(١) الاسراء الآية ٧٢ .

(٢) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح أكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة وأصله من الحش بمعنى البستان ، لأنهم كانوا يتغوطون في البساتين ، فلما اتخذوا الكنيف اطلقوا عليها الاسم مجازاً ، فالمراد هنا من بئر الحش خزانة الكنيف .

يتفجر من المادة التي في الباطن .

ثم إذا تخلت عن مساوىء الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العلمي استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب ، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب ، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هي عليها ، على سبيل الكلية أي بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وان علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها ، وحينئذ يصير (١) موجوداً تاماً أبدي الوجود سرمدي البقاء ، فائزاً بالرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، قابلا للخلافة الإلهية والرئاسه المعنوية ، فيصل الى اللذات الحقيقية ، والإبتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الأعيان ، ولم تتصورها عوالي الأذهان .

فصل

(الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية ، والنفحات القدسية إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحاً ، كيف والقلوب كالأواني فاذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه ، والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « لولا ان الشياطين يحرمون الى قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماوات والأرض » فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول (٢) وتتلألأ فيها حقائقه

---

(١) تذكير الضمير باعتبار ارادة الإنسان لأنه صاحب النفس بل هو هي .

(٢) المراد من الحق الأول هو الله تبارك وتعالى فكما ان الحق صفة له كذلك الأول فهو صفة بعد صفة .

كما أشار اليه صلى الله عليه وآله : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » فان التعرض لها إنما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية (١) فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٢) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » فالقلب إذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والإفاضات الرحمانية ما لا يمكن لاعاظم العلماء كما قال سيد الرسل : « إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل » .

وكل سالك الى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده ، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدّق به إيماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدّق بوجودهما ولا نعرف حقيقتهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء .

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد ، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخباثث الطبيعية ، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق ، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك ، بل الاحتجاب

(١) المراد من النفحات هي الإفاضات المعنوية لا النسمات كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الأخبار .

(٢) العنكبوت الآية : ٦٩ .

إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والإنجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية ، وهو المراد بقوله عليه السلام : « إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء » وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « ان من أحب عبـاد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه » (الى أن قال) : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره (١) ، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » وفي كلام آخر له عليه السلام « قد أحيي قلبـه وأمات نفسه حتى دَقَّ جليله (٢) ولطف غليظه ، وبرق له لامع كثير البرق ، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعتـه الأبواب الى باب السلامة ودار الاقامة ، وثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه » .

وقال عليه السلام في وصف الراسخين من العلماء : « هجم بهم العلم على حقيقـة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بمـا استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحهـا معلقة بالمحل الأعلى » .

---

(١) غمرة الشيء شدته ومزدحمه جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أي مكارهه وشدائده .

(٢) الجليل : الكبير في الحجم .

وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر ، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان أنوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » فاذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشرك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « بني الدين على النظافة » يتناول زوال النجاستين ، وما ورد من « أن الطهور نصف الإيمان » المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات .

وبما ذكر ظهر ان العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصقيل لجوهر النفس ، لا يخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقية اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لأن اليقين الحقيقي يلزمه « روح » (١) ونور وبهجة وسرور ، وعدم الإلتفات الى ما سوى الله ، والاستغراق في أبحر عظمة الله ، وليس شيء من ذلك حاصلا لهم ، فما ظنوه يقيناً إما تصديق مشوب بالشبهة ، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور

(١) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى .

وضياء ، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات .

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين فى مقامه ، فكلما تزداد النفس تجرداً تزداد ايماناً ويقيناً ، ولا ريب في أنه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (١) .

فصل

(ان العمل نفس الجزاء)

كل نفس في بدء الخلقه خالية عن الملكات بأسرها ، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الأفاعيل والآثار الخاصة به (٢) بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده في الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لأن الدنيا دار التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه أثر في النفس ، فاذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة ، مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة أولا وإذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها ، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادىء للآثار المختصة بها ،

(١) العنكبوت الآية ؟ ٦٩ .

(٢) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والأصح « بها » وإن كانت الكلمة غير موجودة فى نسخة خطية اخرى .

فالنفوس الانسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ، واذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لأضدادها ، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها .

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار ، وان كانت ردية كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار ، وإنما الخلاف في كيفية ايجابها للثواب أو العذاب ، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة .

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال : ان الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها ، إذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة ، فان العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفى عالم النوم يظهر بصورة اللبن فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة ، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء ، ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم ما يسوءك في عالم آخر ، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك ، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك فى عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم .

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال . واسم الشيطان إن كانت من أضدادها

وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالها ، وعلى الثانية اسم الحيّات والمقارب وأشباههما ، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى ، وإنما الاختلاف في الاسم .

وهذا المذهب يرجع الى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرّحة أو صورة موحشة معذبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة : منها : ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : يا قيس « إن مع العز ذلاً ، ومع الحياة موتاً ، ومع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً ، وإن لكل أجل كتاباً ، وانه لابد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت ، فان كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً ألأمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً ، فانه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك » . ومنها : ما استفاض من قولهم عليهم السلام : « ان من فعل كذا خلق الله تعالى ملكاً يستغفر له الى يوم القيامة » . ومنها : ما ورد « ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله » . ومنها : ما روي « ان الكافر خلق من ذنب المؤمن » . ومنها قولهم « المرء مرهون بعمله » . ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجري في بطنه نار جهنم » . ويدل عليه قوله سبحانه .

« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ » (١) .

وربما كان في قوله تعالى :

(١) التوبة الآية : ٤٩ .

« وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (١) وقوله تعالى : « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٢) .

اشارة اليه حيث قال عز وجل « ما كنتم » ولم يقل بما كنتم .

وقال فيثاغورس الحكيم : « ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك (٣) وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية ، فان كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك ، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدى به في أخراك الى جوار الله وكرامته » انتهى .

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الأشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيّات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصورة روحانية وجودها وجود إدراكي ، والانسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته الى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة . فوقع بصره على وجه ذاته والتفت الى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه :

« وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » (٤) . وقوله تعالى : « فَكَشَفْنَا

---

(١) يس الآية : ٥٤ .

(٢) الطور الآية : ١٦ .

(٣) هكذا وجدنا العبارة في النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال .

(٤) التكوير الآية : ١٠ .

عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (١). صار ادراكه فعلاً وعلمه عيناً وسره عياناً ، فيشاهد ثمرات أنكاره وأعماله ، ويرى نتائج انظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته ، ويدرك حقيقة قوله سبحانه :

« وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » (٢).

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعاً لساعات يومه وأمسه يقول:

« مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » (٣).

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً » (٤).

---

(١) ق الآية : ٢٢ .

(٢) الاسراء الآية ١٣ — ١٤ .

(٣) الكهف الآية ٤٩ .

(٤) آل عمران الآية : ٣٠ .

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر موجبة للبهجـة والالتذاذ والتوحش والتـألم ، بأنه لو لم تكن تلك الملكات والنيات باقية أبداً لم يكن للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح ، إذ لو كان المقتضي للثواب أو للعذاب نفس العمل والقول ، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير ، فاذاً منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات . ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً كما قال سبحانه :

« فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بَأَيْدِي سَفَرَةٍ » (١) .

والسر فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس الى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف .

ثم الظاهر ان هذا المذهب - عند من قال به من أهل الشرائع - بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين ، إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنـات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وسايرما ورد في الشريعة القادسة من امور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين ،

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان ، وكل ما يقرب العبد الى احداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس ، كما دلت عليـه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية ، فكل ملكة أوحركة أو قول أو فعل يقرب العبد

---

(١) عبس الآية : ١٣ - ١٥ .

الى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور ، وبالعكس ، فأسوأ الناس حالاً من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع ، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل اليه من فائدته ، كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا ، ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة الى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا ، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل ، ولا جزاء فعل ، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون من الخير الدائم ، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم ، فاذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلاً :

« يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ » (١) .

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة

فصل

(تأثير المزاج على الأخلاق)

للمزاج مدخلية تامة في الصفات : فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق ، وبعضها مقتض لخلافه ، فانا نقطع بأن بعض الأشخاص بحسب جبلته ، ولو خلى عن الأسباب الخارجية ، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب ، ويضحك بأدنى تعجب ، وبعضهم بخلاف ذلك.

(١) الزمر الآية : ٥٦ .

وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الانسان كامل العقـل ، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة ، كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام . وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردي الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة ، كما في بعض الناس .

إلا أن الحق — كما يأتي — امكان زوالهـا بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق ، فيجب السعي في إزالة نقائصها وتحصيل فضائلها . وعجباً لأقوام يبالغون في اعادة الصحة الجسمانية الفانية ، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية ، يطيعون قول الطبيب المجوسي في شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة ، لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون أمر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة .

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها الى طلب المقصود لملابسة العوائق والموانع ، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبـه ، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، أو لضعف القوة العاقلة ، فان لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله ، الى ان تدركها الهـلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية ، نعوذ بالله من ذلك ، وإن أدركته الرحمة الأزلية ، فيصرف همه في ازالة النقائص ، واكتساب الفضـائل ، فلا يزال يتصـاعد من مرتبة من الكمال الى فوقها ، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب المتعال ويصل الى السرور الحقيقي ، الذي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر والى قرة الأعين التي يشير اليها في قوله سبحانه :

« فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١) .

---

(١) السجدة الآيه : ١٧ .

فصل

(تأثير التربية على الأخلاق)

الخلق عبارة عن «ملكة للنفس مقضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج الى فكر وروية»(١) . والملكة: كيفية نفسانية بطيئة الزوال . وبالقيد الأخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال ، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر ، أو العادة بأن يفعل فعلا بالروية ، أو التكلف ويصبر عليه الى أن يصير ملكة له ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفاً لمقتضى المزاج .

واختلف الأوائل في امكان ازالة الأخلاق وعدمه ، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غيرطبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله . ورجح المتأخرون الأول وقالوا : ليس شيء من الأخلاق طبيعياً ولا مخالفاً للطبيعة . بل النفس بالنظر الى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج ، أو بعسر إن كان مخالفاً له ، فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختبار والمزاولة لأسباب خارجة .

(حجة القول الأول) أن كل خُلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعياً فينتج لا شيء من الخُلق بطبيعي والكبرى بديهية ، والصغرى وجدانية ، فانا نجد أن الشرير يصير بمصاحبته الخيّر خيراً ، والخيّر بمجالسة

(١) ما بين القوسين في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة .

الشرير شريراً . ونرى أن التأديب « في السياسات (١) » فيه أثر عظيم في زوال الأخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرايع والديانات ، ولما قال الله سبحانه : « قد أفلح من زكاها » (١) . ولما قال النبي صلى الله عليه وآله: « حسنوا أخلاقكم » ولما قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وردّ : بمنع كلية الصغرى فانا نشاهد أن بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية ، كالحدس والتحفظ ، وجودة الذهن ، وحسن التعقل ، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة ، فانه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة .

وما قيل : من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود : بأن هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الأخلاق قابلا للتغيير ، وأما مع قبول بعضها أو أكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر ، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق التغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب ، مع انا نعلم بديهة أن بعض الأمراض لا يقبل العلاج .

(وحجة القول الثاني) ان الأخلاق بأسرها تابعة للمزاج ، والمزاج لا يتبدل ، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنه لا ينافي ذلك ، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج ، وأيّد ذلك بقوله صلى الله عليه وآله :

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم

---

(١) ما بين القوسين في الموضعين غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة .

(٢) الشمس الآية : ٩ .

الاسلام) وبقوله صلى الله عليه وآله : « اذا سمعتم أن جبلا زال عن مكانه فصدقوه ، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه ، فانه سيعود الى ما جُبِل عليه » .

و (الجواب) ان توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها ، لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها ، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الانسانية متفقة في الحقيقة ، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولاني . ثم ما يحصل لها منها أما من مقتضيات الاختيار والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء ، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية للأربعة والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه . والثاني مع عدم ثبوته عندنا يدل على خلاف مطلوبهم ، لأن قوله: « سيعود الى ما جبل عليه » يفيد امكان ازالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرها ، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب ، فلو دام على حفظ الأسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا .

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل ، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة الى الأكثر التبديل للحس والعيان ، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولامكان تغير خلق البهائم ، إذ ينتقل الصيد من التوحش الى الانس والفرس من الجماح الى الانقياد والكلب من الهراشة الى التأدب ، فكيف لا يمكن في حق الانسان ، وعدم قبول بعضها بالنسبة الى البعض له ، للمشاهدة والتجربة ، وهذا البعض مما لا يكون التعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها . والتصفح يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة ، ولذا لو تصفحت

أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق ، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة . ويشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » .

وقال ارسطاطاليس : « يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب إلا أن هذا ليس كلياً . فانه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلاً » .

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلاً واماطتهما بالكلية فان ذلك محال لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة ، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل ، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط الى الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور والاتصاف بحس الحمية ، وهو أن يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلاً ، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك ، وكذا الحال في صفة الشهوة .

ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال الى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية ، لوجود قوة النخلية فيه ، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد ، فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة ، لوجود قوة التعديل فيهما ، وتوقف فعليتها على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة ، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية ، كما لا يمكن لنا اعدام شيء من الموجودات ولا ايجاد شيء من المعدومات .

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة الى الأشخاص والأخلاق ، ولذا نرى

أن التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب ، فيمكن أن لا يرتفع مذمومُ خلق بمرتبة من التأديب ، ويرتفع بمرتبة منه فوقها ، والأسهل قبولا لكل خُلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة ، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل ، وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهي ، والثاني أولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحقة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا ، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً .

فصل

(شرف علم الأخلاق بشرف موضوعه وغايته)

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للإنسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة ، تعرف انها أشرف العلوم وأنفعها لأن شرف كل علم إنما بشرف موضوعه أو غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان واصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الانسان ولبّه ، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية ، وغايته اكمال وإيصاله من أول افق الانسان الى آخره ، ولكونه ذا عرض عريض متصلاً ، أوله بأفق البهائم ، وآخره بأفق الملائكة لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي بين أشخاص هذا النوع في أفراد سائر الأنواع ، فان فيه أخس الموجودات ومنه أشرف الكائنات كما قيل :

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عُدّ ألف بواحد

وبالفارسية :

أي نقد أصل وفرع ندانم چه گوهري　　كز آسمان بلندتر واز خاك كمتري

والى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « إني وزنتُ بأمتي فرجحت بهم » ، ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات ، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها .

وهذا العلم هو الباعث للوصول الى أعلى مراتبهما ، وبه تتم الانسانية ويخرج من حضيض البهيمية الى ذرى الرتب الملكية ، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات الى أشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه ، ويسمونه بالإكسير الأعظم ، وكان أول تعاليمهم ، ويبالغون في تدوينه وتعليمه ، والبحث عن اجماله وتفصيله ، ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم .

وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شراً ، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً . ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالا من العوام مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام ، إما لشدة حرصهم على جمع المال ، غافلين عن حقيقة المآل ، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ، ظناً منهم انه ترويج للدين والمذهب ، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة ، أولشوقهم الى المراء والجدال في أندية الرجال ، اظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال أو لاطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعاظم الحكماء ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ، ظناً منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة ، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقة ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال ، ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم : « قصم ظهري رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل

متنسك » ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « البلاغة أدنى الى الاخلاص من فطانة بتراء » ، وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الأمتثال لقوله سبحانه :

« وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » (١) .

فصل

(النفس وأسماؤها وقواها الأربع)

ما عرفت من تجرد النفس إنما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا الى الجسم والآلة ، فحدها: أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته ، وهو حقيقة الانسان وذاته ، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها ، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى (روحاً) لتوقف حياة البدن عليه و (عقلا) لادراكه المعقولات و (قلباً) انقلابه في الخواطر ، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن .

وله قوى أربع : قوة عقلية ملكية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة شهوية بهيمية ، وقوة وهمية شيطانية . و (الأولى) شأنها إدراك حقائق الأمور ، والتمييز بين الخيرات والشرور ، والأمر بالأفعال الجميلة ، والنهي عن الصفات الذميمة . و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء ، والتوثب على الناس بأنواع الأذى . و (الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن ، والحرص على الجماع والأكل.

(١) البقرة الآية : ١٢٩ .

و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل ، والتوصل الى الأغراض بالتلبيس والخدع ،

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس ، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ، ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات ، واصرارهما عليها ، لأنهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة ، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة .

ولذا قال أفلاطون في صفة السبعية والبهيمية : « أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع » وقال أيضاً : « ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلا ، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة ، والحمية حتى يقهرهما » فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما ، وحينئذ لا يرجى صلاحه ، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله ، فان سبل الخيرات مفتوحة ، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة .

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (١) .

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية ، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها الى المقاصد الصحيحة .

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ، ومباينة للقوى للثلاث الأُوَل ، وشأن الأولى ادراك المعاني الجزئية ، وشأن الثانية إدراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما . وكل من مدركاتها

(١) العنكبوت الآية : ٦٩ .

إما مطابق للواقع ، أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الأمر أيضاً ، وإما من مقتضيات العقل والشريعة ، ومن الوسائل الى المقاصد الصحيحة ، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالاً ، وإن كان وجودها على الثاني شراً وفساداً . والحال في جميع القوى كذلك .

هذا وقيل : ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء ، اشارة الى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية ،

والحق أنها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها ، فاذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر ، وصارت منقادة لها مقهورة منها ، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت « مطمئنة » ، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي ، وميلها الى ملائماتها التي تقتضي جبلتها ، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينهما تنازع وتدافع ، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت « لوامة » . وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت « أمارة بالسوء » لأنه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنما هي الآمرة بالسوء .

ثم مَثَلُ اجتماع هذه القوى في الانسان كمثل اجتماع ملك ، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد ، وكان بينها منازعة ، وأيها صار غالباً كان الحكم له ، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ماتقتضيه جبلته فكان إهاب الانسان وعاء اجتمع فيه هذه الأربع ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوه الغضبية ، فان الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية أعني الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح ، والقوة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه

القوة هو الكلب حقيقة ، وان اطلق عليه اسم الانسان مجازاً ، والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو القوة الوهمية ، والتقريب فيهما كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها الى أن يغلب احداها ، فالغضبية تدعوه الى الظلم والإيذاء ، والعداوة والبغضاء ، والبهيمية تدعوه الى المنكر والفواحش ، والحرص على المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيّج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد (١) فعلهما ، وتغري احداهما بالأخرى والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، ونورانيته الباهرة ، فان غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غيرمقدمة على فعل إلا باشارته جرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء ، والخنزير في المنكر والفحشاء ، والشيطان في استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع ، ليرضي الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور أو خنزير هلوع أو شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الأبدية ، والشقاوة السرمدية ، إن لم تغثه العناية الإلهية ، والرحمة الأزلية .

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الانسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده ، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب هلك الراكب بذهابه معها فيما لا يصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه في موارد

(١) وفي نسختنا الخطية هكذا « تزين » .

الملكات ، وان كان الكل تحت نهي الامين وأمره ، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم الى أيدي السارقين .

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلاً منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله ، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها .

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » (١) .

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك الى أن يؤدي الى اضلال الآلة والقرة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها ،

« وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (٢) .

(تتميم) لما تبين أن للنفس اربع قوى متخالفة ، ولها قوى أخر ايضاً كما تبين فى العلم الطبيعي . فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس إنما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة . إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات ، وليس لها فعلية ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن ، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق ، وترتسم بالصور والأعمال الى أن تتقوم بها ، وتصل الى

(١) الشمس الآية : ٩ .

(٢) الشمس الآية : ١٠ .

ما خلقت لأجله .

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب احداها لم تدخل النفس في عالمه (١) الذي يخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة الى أن يغلب احداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من أفق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً ، فلو كانت الغلبة والساطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه وآثاره ، وانتظمت أحوالها ، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها .

ثم المنشأ للتنازع والتجاذب والبقاء في نفس الانسانية إنما هو قوتها العقلية لأن التدافع إنما بينها وبين سائر القوى ، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وإن اختلفت في غلبة ما فيها من القوى ، فان الغلبة في الشياطين للواهمة ، وفي السباع للغضب ، وفي البهائم للشهوة ، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع . فالجامع لعوالم الكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية ، وقابلاً للخلافة الربانية ، وقائماً بعمارة عالمي الصورة والمعنى .

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية ، وتوابعها من اللذات العقلية ، إلا أنه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها . والأجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها

(١) في نسختنا الخطية هكذا « في عالمه التي تخصها » .

في المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفـاوتة ، ولا تقلّب في أطوار النقص والكمال ، ولا تحول في جميع التقاليب والأحوال ، بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفـة ، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمـادية والنباتية والحيوانية والملكية ، وله الترقي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهـدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت ، والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إن الله خص الملك بالعقـل دون الشهوة والغضب ، وخص الحيوانات بهما دونه وشرّف الانسان باعطـاء الجميع فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله الى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم » .

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة ، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعـام ، فبالجزء الجسماني أقيم في هذه العالم الحسي مدة قصيرة ، وبالجزء الروحاني ينتقل الى العـالم العلوي ، ويقيم فيـه أبداً في مصاحبة الأرواح القدسية ، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة ، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني ، وينفض عن نفسه كـدورات الطبيعة ، وتظهر فيـه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات . وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهي ويزيد ذلك بحسب رفع العـلائق الجسمية ، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها ، وازيلت عنه استار العوائق الهيولانية برمتها ، خلى عن جميع الآلام والحسرات ،

وكان أبداً مسروراً بذاته ، مغتبطاً بحاله ، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأول ، ولا يُسرّ إلا بتلك اللذات ، ولا يغتبط إلا بها ، ولا يهش إلا باظهـار الحكمة الحقة بين أهلهـا ، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه ، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها ، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالاً وكلاً عليه إلا ما هو ضروري يحتاج اليه بدنه الذي الذي يفتقر اليه في تحصيل كماله ، ويحن أبداً الى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه ، ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن على فقد محبوب ، ولا فوت مطلوب وإذا صفى من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنـه العوارض النفسانيـة ، والخواطر الشيطانية بأسرها ، وفنى عنه إرادته المتعلقة بالأمور . وحينئـذ يمتلي من المعارف الإلهية ، والشوق الإلهي والبهجة الإلهية ، والشعار الإلهي، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه ، بل يكون علمه بها أشد إشراقاً وظهوراً من علمه بها . وإذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول الى المرتبة القصوى ، ومجاورة الملأ الأعلى ، فيصل الى ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويفوز بما أشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله :

« فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ »(١) .

---

(١) السجدة الآية : ١٧ .

فصل

(الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها)

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول الى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا : إن (الخير) على قسمين مطلق ومضاف ، والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل ، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات ، والمضاف ما يتوصل به الى المطلق . و (السعادة) هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية الى كماله الكامن في جبلته وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة الى الأشخاص ، والسعادة تختلف بالقياس اليهم .

ثم الظاهر من كلام أرسطاطاليس أن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معداً لتحصيلها كالتعلم والصحة ، أو نافعاً فيه كالمكنة والثروة .

وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة الى النفوس فقط ، وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الانسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد كمالاً له سعادة للانسان . وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة إلى الشخص حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه ، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والبخت المسعود ، وغير ذلك مما لا يرجع الى النفس ، ولذا قسموا السعادة الى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج

والى ما يتوصل به الى إفشاء العوارف ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان ، والى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة ، والى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل ، والى ما يرجع الى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية . وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة ، وبقدر النقصان فيها تنقص . قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب ، والاشراقات العلمية ، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر .

ثم الأقدمون لذهابهم الى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بالكدورات الطبيعية ، والشواغل المادية ، بل حصولها موقوف عنها ، لأن السعادة المطلقة لا تحصل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية ، ومضيئة بالأنوار الإلهية ، بحيث يطلق عليها اسم التام ، وذلك موقوف على تخليصها التام عن الظلمة الهيولانية ، والقصورات المادية .

وأما المعلم الأول واتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً ، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها ، واشتغل بتكميل غيره . وما أقبح أن يقال مثله ناقص وإذا مات يصير تاماً ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترقي في مدارجها بالمجاهدة الى أن تصل الى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة ، وتكون باقية بعدها أيضاً ،

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الإسلام قالوا ان السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وأدناها أن تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل ، إلا أن الشوق الى الثانية ، والحرص على اكتسابها يكون أغلب ، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في

الثانية أكثر، إلا أنه قد يقع الالتفات الى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض.

وأما في الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الامور البدنية، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة، والعلوم الحقة اليقينية، والوصول الى مشاهدة جمال الأبد، ومعاينة جلال السرمد. وقالوا إن الاولى لشوبها بالزخارف الحسية، والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالأنوار الإلهية، مستضيئاً بالأضواء العقلية، مستهتراً (١) بذكر الله وانسه مستغرقاً في بحر عظمته وقدسه، وليس له التفات الى ما سوى ذلك، ولا يتصور له تحسر على فقد لذة أو محبوب، ولا شوق الى طلب شيء مرغوب، ولا رغبة الى أمر من الأمور، ولا رهبة من وقوع محذور، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلي مقصوراً همه على الامور الإلهية من دون التفات الى غيرها.

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الأول من حيث اثبات سعادة للبدن ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن. وهو (الحق المختار) عندنا، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة الى السعادة المطلقة سعادة اضافية. ومعلوم أن غرض القائل بكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة انها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية والحطام الدنيوي سعادة، ولو جعلت وسيلة الى اكتساب سخط الله وعقابه وحاجبة عن الوصول الى دار كرامته وثوابه. وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافاً تاماً، ولا تصل الى حقيقة

(١) مستهتراً به على بناء اسم المفعول أي مولع به.

ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية . ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمرّ كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحقة ، والأخلاق الطيبة ، والأمر وإن كان كذلك من حيث ان حقيقتهما ما يكون مطلوباً لذاته ، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك ، إلا انه لا ريب في ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه ، والابتهاجات العقلائية ، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الإعتبار ، وان لم ينفك عنهما ومطلوبيته لذاته أشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى وإن كان الجميع خيراً وسعادة . وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال ، وأصحاب الكشف والحال ، واخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهبت (الفرقة الأولى) الى أن حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، و (الثانية) الى انها العشق ، و (الثالثة) الى أنها الزهد ، وترك الدنيا .

فصل

(لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً)

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً ، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض ، ووقتاً دون وقت . كما ان الصحة الجسمية ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات ، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال

والأزمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن ، ولا شكره بورود النوائب والمحن ، ولا يقينه بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا احسانه بالاساءة ، ولا صداقته بالعداوة . وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله ، ولو ورد عليه ما ورد على أيوب النبي عليه السلام أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاته ، ورسوخ أخلاقه وصفاته . وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة ، بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية ، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها ، ولا ينفعل عن قرهـا وشمسها . أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس ، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الأقتدار على التصرف في مواد الكائنات ، ولو في الأفلاك وما فيها ، كما حصل لفخر الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر وردّ الشمس .

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية ، ويضطرب من الكدورات الطبيعية ، ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعـداء وترحم الأحبـاء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته ، وعدم نيله بعد الى الابتهاجات التي تدفع عن النفس أمثال ذلك .

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان في الباطن متألماً مضطرباً ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهراً وباطناً . بلغنا الله وجميع الطالبين الى هذا المقام الشريف .

وصل

(غاية السعادة التشبه بالمبدأ)

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان في صفاته بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً ، لا لغرض آخر من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيراً محضاً ، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية ، والأقذار الحيوانية . ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية والخواطر النفسانية ، ويمتلىء من الأنوار الإلهية ، والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية ، ويصير عقــلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية ، بل يصير ظهورها أشد ، وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الأفعال وتصير إلهيــة أي شبية بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنه يقتضي الحسن ، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فانما يصدر لأجل ذاته وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصــد الثاني وبالعرض . قالوا وإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهيــة ، واللذة الحقيقية الذاتية ، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانيــة ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم انها لذّة ذاتية ، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع ألم .

وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل .

فصل

(بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم)

لمّا عرفت أن القوى في الانسان اربع : قوة نظرية عقليـة ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية — فاعلم انه بأزاء كل واحـدة منها لذة وألم ، لأن اللذة ادراك الملائم ، والألم ادراك غير الملائم ، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعـه الذي خلق لأجله ، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه :

(فغريزة العقل) لمّا خلقت لمعرفة حقائق الأمور ، فلذتها في المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل ، و (غريزة الغضب) لمّا خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها ، و (غريزة الشهوة) لمّا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن ، فلذتها في نيل الغـذاء ، وألمها في عدم نيله ، وهكذا في غيرها ، فاللذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية .

فاللذة العقلية كالانبساط (١) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية ، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهـل ، واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة ، والألم الخيالي كإدراك غيرالملائمة منها . واللذة المتعلقه بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات ، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية . واللذة البهيميـة هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالها ، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر

(١) وفي النسخة المخطوطة عندنا « الابتهاج » .

والبرد وأشباهها . وهذه اللذات والآلام تصل الى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلاً منهما يصل اليها بواسطة القوة التي تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل .

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن المتأثر بالإلتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس ، ففي هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية ثم تتاثر النفس .

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما الى النفس من دون توسط القوة الغضبية .

ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا في الخارج ، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما .

ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال ، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة ، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية ، وتتضعف بضعفها الى أن تنتفي بالمرة ، ويظهر قبحها عند العقل ، وأما العقلية فهي في البداية منتفية ، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وتتزايد بتزايد القوة العقلية الى أن ينتهي الى أقصى المراتب ، ولا يكون نقص ولا زوال .

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الإنسان وسعادته القصوى . والمتشرعون منهم قصّروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها ، وجعلوا الوصول الى الاولى والخلاص عن الثانية غاية في زهدهم وعبادتهم

وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأجراء والعبيد تركوا قليل المشتهيات ليصلوا الى كثيرها . وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ! ولا أدري أن الباكي خوفاً من النار وشوقاً الى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعدّ من أهل التقرب الى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ، ولا لذة المعرفة بالله وحبّه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين (١) صلى الله عليه وآله « إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وبالجملة لا ريب في أن الانسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس والديدان والهمج من الحيوان ، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة ، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة (٢) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة اليه ، ويذعنون أنه أقرب الناس الى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد إتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول .

والسر فيه أنهم وإن ذهبوا الى هذا الرأي الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة ، وإن كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالا ، ويحكم بنورانيتها الذاتية ، على كون ما هو فضيلة

(١) المعنى به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام .

(٢) المراد هم الذين حصروا اللذات في الحسية والكلام كله في هذا الرأي .

في الواقع فضيلة ، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة ، فيضطرهم الى إكرام أهل التنزه عن الشهوات ، والاستهانة بالمكبين عليها .

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها ، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع ، مع أن الجميل على الاطلاق يحسن إذاعته ، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به ، هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (١) فان ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المني ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل ، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالاً وخيراً ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالاً وخيراً أبداً .

ايقاظ

(فيه موعظة ونصيحة)

لمّا عرفت أن الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث ، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية ، يشارك السباع والبهائم والشياطين — فاعلم أن من غلبت عليه إحدى اللذات

(١) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الاشباع ، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لإشباع غريزة حب الاستطلاع ، إلا أن طلب العلم لايصل الى حد الإشباع أبداً ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال » وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالها فانها تصل الى حد الإشباع فتكتفي .

الأربع كانت مشاركته لما ينسب اليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو .

فانظر ياحبيبي أين تضع نفسك ، فان الغاية لوكانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحداً من البهائم . وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلُّ ميلك الى المناصب والرياسات الردية ، وإيذاء الناس بالضرب والشتم ، وباقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع ، وإن كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول الى مقتضيات قوتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة . وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدّك مقصوراً على « أخذ » (١) المعارف الإلهية واقتفاء (٢) الفضائل الخلقية عرجت الى أفق الملائكة القادسة ، فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جلّ همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الامور الشهوانية ، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة ، بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته ولا يكون قصده منه الالتذاذ ، بل سدّ الضرورة ودفع الألم ، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك ، فان تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهانته وذلته ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي الى حقارته ، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه « ويبقي

(١) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة .

(٢) في نسختنا الخطية هكذا « واقتناء » .

نسله ، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة ، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوتي الشهوة والغضب ، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية . فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان ادركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك ، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك وبادروا الى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فان إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر ، والغلبة على النفس الامارة بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال ، إلا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله ، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ، فانه خير من التمادي في الباطل ، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته .

ولقد قال الشيخ (١) الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ،

(١) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الأكبر « أبو علي أحمد بن محمد » بن يعقوب ابن مسكويه الخازن « الرازي » الأصل والاصفهاني المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبي علي بن سينا ، صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه وكان من خاصته الى أن اتصل بصحبة « عضد الدولة » البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله الى نظرائه ثم اختص بالوزير « ابن العميد » وابنه « أبي الفتح » له مؤلفات كثيرة بعضها في الحكمة ومنه كتاب « الفوز الأكبر » وكتاب « الفوز الأصغر » « وجاويدان خرد » بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في التاريخ ومنه « تجارب الامم » وبعضها في الأخلاق ومنه كتاب « الطهارة » المشهور وهو الذي قصده « المصنف ره » هنا لأنه أول كتاب صنف في علم الأخلاق ، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة « نصير الدين الطوسي » قدس سره بأبيات . وكان (ره) من علمائنا الامامية قدس الله أسرارهم وقبره (باصفهان) على باب —

وهو الاستاذ في علم الأخلاق ، واقدم الاسلاميين في تدوينه ؛ « إني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت الى فطام نفسي عن رذائل الملكات ، وجاهدت جهاداً عظيما حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فان النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب الافاضة أبداً مفتوحة » فبادروا إخواني الى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤساً ، والعقل مقهوراً ، فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ، ويدرككم الانتكاس في الخلق الذى هو خروج عن افق الانسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له . وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء ، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها حتى تصير كلساً (١) لامنفعة فيها .

[تتميم] ولا تظنن أن مايفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل مايعتريها من الكدرة الحاصلة معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فان ذلك محال ، إذ غاية الامر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها ، وتعيد النفس الى ماكانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة إشراقاً وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته ، وحصلت له درجة في الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت

— (درب جناد) وقد اشتهر ان السيد (الداماد) الذى كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا) .

(١) الكلس مايقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها .

فائدتها في مجرد عود القلب الى ماكان عليه قبلها ، وهذا نقصان لاحيلة لجبره ومثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذامسحت بالمصقلة وإن زال به هــذا الخبث ، إلا أنه لاتزيد به جلاء وصفاء ، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا ، فان التصقيل يزيدها صفاء وجلاء ، والى ماذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » .

***

الباب الثاني

في بيان أقسام الأخلاق وتفصيل القول فيها

«وفيه فصول»

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة ـ حقيقة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظرى ولوازم الأقوال في العدالـــة ـ العقل النظرى هو المدرك للفضائل والرذائل ـ دفع اشكال في تقسيم الحكمة ـ تحقيق الوسط والأطراف ـ أجناس الرذائل وانواعها ـ الفرق بين الفضيلة والرذيلة ـ العدالة اشرف الفضائل ـ اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان ـ لاحاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة ـ التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي .

فصـــل

(أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة)

قد تبين في العلم الطبيعي أن للنفس الناطقة قوتين : « أولاهما » : قوة الادراك و « ثانيتهما » : قوة التحريك ،ولكل منهما شعبتان : (الشعبة الأولى) للاولى العقل النظرى ، وهو مبدأ التأثر عن المبادىء العالية بقبول الصور العلمية ، و (الشعبة الثانية) لها العقل العملي ، وهو مبدأ تحريك البـدن في الأعمال الجزئية بالروية (١) وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبـدأ « لحدوث » (٢) بعض الكيفيات الموجبة لفعل او انفعال ، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية . ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق وقبح الكذب ، ونظائرهما .(الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و (الشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم .

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبـة على سائر القوى ولم تنفعل عنها ، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنـه ، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت أمور النشأة الانسانية ، وحصل تسالم

(١) إذا كان العقل العملي مبدأ لتحريك البـدن فهو قوة تحريك لا قوة ادراك وفي الحقيقة أن غرضهم من العقل العملي هو ادراك ماينبغي ان يعمل.

(٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا « الحصول » .

القوى الأربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له مايخصه من الفضيلة ، فيحصل ، من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة ، ومن تهذيب العاملة العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة ، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية .

(بطريق آخر)

قيل : إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية والغضبية ، فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال ، وكانت الثلاث الاخيرة مطيعة للاولى ، واقتصرت من الأفعال على ماتعين لها ، حصلت اولاً فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الاربع،وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع وتمامها ، وهي العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية فقط ، بل تكون كمالاً للقوى بأسرها :

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعاً : « الحكمة » وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه،والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية ، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هوالحكمة العملية . « والعفة » هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية ، وتتخلص عن اسر عبودية الهوى . « والشجاعة » وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة ، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً ، وصبرها محموداً . وتفسير هذه الفضائل الثلاث

لايتفاوت بالنظر الى الطريقين .

وأما « العدالة » فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته ، أوضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته، أوسياسة قوتي الغضب والشهوة ، وحملها على مقتضى الحكمة ، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه . وإلى هذا يرجع تعريف الغزالى « إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحملهما على مقتضى الحكمة ، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها » إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لانفس القوة العملية .

وتفسيرها على الطريق الثاني هو ائتلاف جميع القوى ، واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به . ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط .

اللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق ، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية ، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لايتحقق صدور فعل عن قوة .

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزمة للملكات الثلاث أعني الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثاني تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر ، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخلقى بمنزلة الاعتدال المزاجى الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن في

أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة .

وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقادة له ، واستعمل كلا منها على مايقتضيه رأيه ، فان جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة ، أو نفس تدبير التصرف في البدن وامور المنزل والبلد ، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط ، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لايناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في إعداد الفضائل ، لأن جميع الأقسام لايكون قسما منها ، وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئاً على حدة ونوعاً مركباً .

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا انه على الطريق الأول تكون العدالة علة ، والملكات الثلاث معلولة ، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها فهي أجزاء للعدالة او بمنزلتها .

تكملة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الاول المذكور في الطريق الأول ، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة ، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له ، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملي على قوتي الغضب والشهوة ، او نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري ، وأمثال ذلك ، وعلى هذه التفاسير اللازمة

للاول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فرداً لها .

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل ، وسياسته إياهما ، واستعلائه عليهما . وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها . فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة أيضاً إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها ، إلا أن ذلك لايوجب كونها كمالاً له حتى يعد من فضائله ، ووجهه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة .

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الاخرى بتوسط العقل العملي إنما تندرج تحت لازم العدالة ، لاعينها ، فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره الى اعتبار مايلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره الى عدم اعتباره . وعلى هذا لابأس بأن يقال إن للعدالة اطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم .

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع انواعاً، فكما ادرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً ، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضاً انواعاً كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها .

وأنت ـ بعد ماعلمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتي الغضب والشهوة ـ تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث ، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث ، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، إذ كون الاستعمال والضبط منها لايقتضي استناد مايحصل من

الفضائل باستعمالها اليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى . وكذا لايقتضي استناد مايحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة اليها . ومعلوم أنه لايترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلا ، إذكل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية ، أو بقوتى الغضب والشهوة بتوسط العاملة ، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لايخفى . مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد مايحصل من الفضائل اليها لزم أن تستند اليها جميع الفضائل ، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة . وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر .

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص ، فالفضائل التي جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من انواع الشجاعة أو لوازمها ، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها ، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع . فنحن لانتابع القوم ، ونجرى على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها وتنائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملي ، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ماينبغي من دون إدخال شيء منها تحت العدالة وضدها .

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال ، إما متعلقة بمجرد احدى القوى الثلاث ، أو باثنتين منها ، أو بالثلاث . ومثال المتعلق باحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة ، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية ، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية وأما مايتعلق باثنتين منها أوالثلاث ، فاما أن يكون له أصناف يتعلق بعضها

ببعض وبعضها ببعض آخر ، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب : فانه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب . وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به الى شهوة البطن والفرج ، كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا الحسد أعني تمني زوال النعمة عن الغير : إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية ، وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة اليه كان من رذائل القوة الشهوية . أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه ، كالحسد الذي باعثه العداوة ، وتوقع وصول النعمة اليه معاً ، وكالغرور وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، وتمييل النفس اليه بخدعة من الشيطان ، فان النفس إن كانت مائلة بالطبع الى شيء من مقتضيات الشهوة ، واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، وان كانت مائلة الى شيء من مقتضيات قوة الغضب . واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب ، وإن كانت مائلة الى شيء من مقتضياتهما معاً مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً .

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وايجادها ، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة ، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد ، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في ايجاده وإحداثه ، ولولم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور . فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد

الباعثية ، أي كانت باعثة لقوة اخرى على ايجاد هذه الصفة وإحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم يكن متعلقة بها ، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها ، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لاحداثها وايجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج ، وان كان باعثه قوة الشهوة إلا انه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثه وايجاده ، بل الاحداث إنما هو من القوة الغضبية ، ومدخلية الشهوية انما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للاحداث والايجاد ، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور اكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها « أو فضائلها » (١)

وإذا عرفت ذلك فاعلم انا نذكر اولا مايتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ، ثم مايتعلق بالقوة الغضبية منهما ، ثم مايتعلق بالشهوية منهما ثم مايتعلق بهما أو الثلاث .

وصل

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل

اعلم أن كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من وجه ، أما « الأول » فمن حيث إن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول اليه ، وأما «الثاني» فمن حيث إن السعادة القصوى وغاية الغايات أعني التحلي بحقائق الموجودات مستندة اليه ، وايضا ادراك ماهو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته

(١) لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة .

وقيل : إن ادراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملي ، كما صرح به الشيخ في الشفاء بقوله : « إن كمال العقل العملي استنباط الآراء الكلية في الفضائل والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان ، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية » .

والحق ان مطلق الادراك والارشاد إنما هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح ، والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضي لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة .



دفع الاشكال

في تقسيم الحكمة

ان قيل : إن القوم قسموا الحكمة أولاً الى النظرية والعملية ، ثم قسموا العملية الى ثلاثة أقسام : واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي احداها الحكمة ، فيلزم أن تكون الحكمة قسما من نفسها .

قلنا : الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت الموجودات إلهية أي واقعة بقدرة البارى سبحانه ، أو موجودات انسانية أي واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثاني ، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق ، فان غاية مايلزم أن تكون الحكمة موضوعاً لمسألة هي جزؤها بان يجعل عنواناً فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة ، أو طريق اكتسابها كذا .

وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة ، ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه أيضا الموجودات كما انه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءاً لنفسه . وايضاً نقول كما ان الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر ، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور .

وقيل : في الجواب إن المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الأربع

استعمال العقل على الوجه الأصلح ، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ماتقرر ، مع أن العدالة أيضاً إحدى الفضائل الأربع

(تنبيه) قد صرح علماء الأخلاق بان صاحب الفضائل الأربع لايستحق المدح مالم تتعد فضائلها الى الغير ، ولذا لايسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منافقاً ، ولاصاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصراً .

والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فان من تعدى أثره يرجى نفعه ، ويخاف ضره ، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع ، أودفعاً للضرر ، وأما من لايرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وان بلغ في الكمال مابلغ .

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لاريب في أنه بازاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها ، ولما عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فاجناس الرذائل ايضا في بادى النظر أربعة : الجهل ، وهو ضد الحكمة ، والجبن ، وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة ، والجور ، وهو ضد العدالة . وعندالتحقيق يظهر أن لكل فضيلة حداً معيناً ، والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدى الى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمثابة الأطراف ، والوسط واحد معين لايقبل

التعدد ، والأطراف غير متناهية عدداً . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز الى المحيط ، فان المركز نقطة معينة ، مع كونه ابعد النقاط من المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية ، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف اليه .

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية ، لأن الوسط محدود معين ، والأطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل ، ويكون كل منها أقرب منها الى النهاية (١) ، وبجرد الانحراف عن الفضيلة من أي طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم ، وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه ، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون إلا واحداً ، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية ، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير .

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب ، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب ، لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال ، وهذا معنى قول الحكماء « اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصوب (٢) بعد ذلك حتى لا يخطيها أعسر » ولذلك لما امر فخر

---

(١) أي ان كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة الى النهاية .

(٢) الصواب ! يقال فلان مستقيم الصوب اذا لم يزغ عن قصده يميناً وشمالا .

الرسل بالاستقامة في قوله تعالى :

« فَاستَقِم كَما أُمِرتَ » (١)

قال شيبتني سورة هود عليه السلام ، إذ وجد ان الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل ، والثبات عليه بعد الوجدان اشكل .

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة : « إن ماورد في اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر ، وأحد من السيف اشارة الى هذا المعنى » وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة ، وهتك لأستار السنة الكريمة ، والواجب الأذعان بظاهر ماورد من أمور الآخرة نعم يمكن أن يقال كما مر : إن الأمور الاخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به ، إلاانها صور للاخلاق ، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبى بحسب المرتبة ، إذظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت فمواد مايؤذى ويريح من الصور في موطن المعاد انما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة . وهذا المذهب مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار ، واشرنا الى حقيقة الحال فيه . وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق ، والجحيم صورة لأطرافها ، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل الى الجنة التي وعدها الله المتقين ، ومن مال الى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي احاطت بالكافرين .

---

(١) هود الآية : ١١٢ .

ثم الوسط أما حقيقي وهو ما تكون نسبته الى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة الى الاثنين والستة ، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذى انكر الاطباء وجوده ، او اضافي وهواقرب مايمكن تحققه للنوع أو الشخص الى الحقيقي ، ويتحقق به كمالهما « اللائق بحالهما » (١) وان لم يصل اليه ، فالتسمية بالوسط انما هو بالنسبة الى الأطراف التي هي أبعد من الحقيقي بالاضافة اليه ، وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الاطباء ، فان المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحققها للأنواع والأشخاص ، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه ، وان لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوى الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية الى الحقيقي بالنسبة الى سائر الاطراف سمى اضافياً .

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه ، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والاحوال والازمان ، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافي فضيلة بالنظر الى شخص او حال او وقت ، ورذيلة بالنسبة إلى غيره .

وتوضيح الكلام انه لاريب في ان الوسط الحقيقي في الاخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لايمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لايمكن الحكم بكون تلك الفضيلة « هي الوسط الحقيقي ، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة » (٢) قريبة اليه ولا يمكن

---

(١) غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة .

(٢) هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا الخطية .

وجود الأقرب منها اليه له ، يحكم بكونها وسطاً اضافياً لأقربيتها اليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الاضافي له عرض ، وسطه الاعتدال الحقيقي ، وطرفاه طرفا الافراط والتفريط ، إلا انه مالم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً اضافياً ، وكلما كان اقرب الى الحقيقي كان أكمل وأقوى ، واذا خرج عنهما دخل في الرذيلة .

لايقال : على هذا ينبغي أنيكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضا كذلك اى له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي حتى انه كلما قرب الى الحقيقي صار الطبي اقوى واكمل مع انه ليس الأمر كذلك ، إذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي ، او ضعفه لقربه الى الحقيقي .

« بيان ذلك » ان الاعتدال الحقيقي في المزاج ان تكون اجزاء العناصر متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي في نوع الانسان اوشخص من اشخاصه ان تكون الاجزاء الحارة مثلا من عشرة الى اثنى عشرة ، والباردة من ثمانية الى تسعة ، واليابسة من سبعة الى ثمانية ، والرطبه من ستة إلى سبعة ، فاذا كانت الأجزاء الحارة ستة ، والباردة خمسة ، واليابسة اربعة ، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي ، مع صيرورته اقرب الى الحقيقي ، بل إذا فرضت تكافؤ اجزاء العناصر الاربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت ايضاً عنه ، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى انه كلما يصير اليه اقرب يكون اقوى واكمل .

لانا نقول نحن لاندعى : انالحقيقي وسط الطبي بل هو امر مغاير له ، والحقيقي في طرفه الخارج ، فان له طرفين : « احدهما » ان تصير الاجزاء

اقرب في التساوي بما كان للطي الى أن يبلـغ الى الحقيقي ، « والثاني » أن يصير ابعد فيه بما كان له الى غير النهاية ، إلا ان بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل .

فان قيل : ان الوسط المعتبر هنا إن كان اضافياً ، لكان له عرض كعرض المزاج ، فلايناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا . كما في عرض المزاج مرتبة هي افضل المراتب واقربها الى الاعتـدال الحقيقي ، كذلك في عرض الوسط للملكات مرتبة هي افضل المراتب واقربها الى الحقيقي ، وهي المطلوبة بالذات ولا ريب في ان خصوص هذه ليس لها عرض واسعة ، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة ، واما سائر المراتب المعدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الافراط والتفريط ، إلا انه لما كان لها قرب محدود الى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع او الشخص باقياً على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل ، كما ان غـير الأقرب الى الاعتـدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال ؛ لكون النوع او الشخص معه باقياً محفوظاً بحيث لايظهر خلل بين في افعاله وان لم يخل عن الانحراف ، ولو وصف هذه المراتب ايضاً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه ان وجدانها والثبات عليها لايخلو ايضا من صعوبة .

فصـــل

(اجناس الرذائل وانواعها)

قد ظهر بما ذكر انه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهيـة من طرفي الافراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لان وظيفته بيان الاصول والقوانين الكلية

لا احصاء الاعداد الجزئية .

والقانون اللازم بيانه هو ان الانحراف عن الوسط إما الى طرف الافراط او الى طرف التفريط ، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة ولما كانت اجناس الفضائل اربعة فتكون اجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة « الجربزة والبله » ؛ و (الاول) في طرف الافراط وهواستعمال الفكر في مالا ينبغي او في الزائد عما ينبغي و (الثاني) في طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها فيماينبغي اوفي اقل منه ، والاولى ان يعبر عنهما (بالسفسطة) اي الحكمة المموهة ، و (الجهل) اى البسيط منه ، لان حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الاشياء على ماهي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فاذاحصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الافراط واذاحصلت لها بلادة لاينتقل الى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة « التهور والجبن » : (الاول) في طرف الافراط وهو الاقدام على ماينبغي الحذر عنه ، و (الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقدام عليه . (واثنان) بازاء العفة وهما ؛ « الشره والخمود » و (الاول) في طرف الافراط وهو الانهماك في اللذات الشهوية على مالايحسن شرعاً وعقلا ، (والثاني) في طرف سكون النفس عن طلب ماهو ضروري للبدن و (اثنان) بازاء العدالة وهما ؛ « الظلم والانظلام » ؛ و (الاول) في طرف الافراط وهو التصرف في حقوق الناس واموالهم بدون حق ، (الثانى) في طرف تفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة ، هكذا قيل .

والحق ان العدالة مع ملاحظة مالاينفك عنها من لازمها، لها طرف واحد يسمى جور أو ظلماً، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات، ولايختص بالتصرف في حقوق

الناس واموالهم بدون جهة شرعية ، لان العدالة بهذا المعنى ـ كما عرفت ـ عبارة عن ضبط العقل العملي جميع القوى تحت اشارة العقل النظري ، فهو جامع للكمالات بأسرها ، فالظلم الذي هو مقابلـه جامع للنقائص بأسرها ، اذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والافعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلماً ، على ان من مكن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة ، فقد ظلم نفسه والظلم على النفس ايضاً من اقسام الظلم . هـذا هو بيان الطرفين لكل من الاجناس الاربعة للفضيلة .

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الاخلاق والافعال ذكرها علماء الاخلاق في كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة ايضاً انواعاً وقد عرفت فيما تقدم ان تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لاوجه له ، إذ جميع الرذائل والفضائل لايخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، اعني العاقلة والغضبية والشهوية ، وإن كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة ، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقلة فقط ، وبعضها بالقوة الغضبية فقط ، وبعضها بالشهوية فقط ، وبعضها بالاثنين منها او الثلاث معاً ، فنحن نذكر ذلك في مقامات اربعة .

ولمزيد الاحاطة نشير هنا اجمالا الى اسماء الاجناس والانواع واللوازم التي لكل جنس ، ونذكر اولا مايتعلق بالعاقلة ، ثم مايتعلق بالغضبية ، ثم مايتعلق بالشهوية ، ثم مايتعلق بالثلاث او الاثنتين منها ، ونذكر اولا الرذيلة ، ثم نشير الى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم ، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الاجناس والانواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها

من الفضيلة ، ونذكر اولا جنسي الرذيلة لكل قوة ، ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الانواع والنتائج على النحو المذكور ، اى نذكر اولا الرذيلة باحكامها « ومعالجاتها » (١) ، ثم نشير الى ضدها ، وما ورد في مدحه ترغيباً للطالبين على اخـــذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الانواع واللوازم على ماذكر اكثره القوم لايخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير ، او في الفرق والتمييز ، او في الادخال تحت ماجعلوه نوعاً له ، اوغير ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لانتبعهم في ذلك ونبينها ادخالا وتمييزاً وتعريفاً مايقتضيه النظر الصحيح ، فنقول :

اماجنسا الرذيلة للقوة العقلية ، «فاولهما» (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الافراط ، و « ثانيهما » (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمـة) ، واما الانواع واللوازم المترتبة عليهما ، فمنها (الجهل المركب) وهو من باب رداءة الكيفية ، ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ماقيل ، وضد الجهل المركب ادراك ماهوالحق اوزوال العلم بأنه يعلم ، وضدالحيرة الجزم بأحد الطرفين . وبذلك يظهر ان اليقين ضد لكل منهما ، لانه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضداً للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامـــة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الاستدلال ، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن ، اوحصول الخطأ في الاستدلال ، او وجود مانع من افاضة الحق كعصبية ، او تقليد او امثال ذلك ،ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ، اوالالتهاب الموجب للتجاوز

(١) هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية فقط .

عن المطلوب ، اوعدم الاحاطة بمقدماته ، ومنها (الشرك) وضده التوحيد.
ومنها « الوساوس » النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا ايضاً من باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة ، إذ الغالب انها لاتنفك عن الاختلال فيهما ، الا أنك قد عرفت العذر في ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول الى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الافراط.

واما جنسا الرذائل للقوة الغضبية ، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة) . وأما الانواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب ، وهو مذموم إلا ماكان لأجل المعصية والخيانة ، او من الله وعظمته ، والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الامن والطمأنينة ، والممدوح من فضائلها لكونه مقتضى العقل وضده الأمن من مكر الله ، وهو ـ اى الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء وضده اليأس . ومنها (صغر النفس) اى ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن ، وضده كبر النفس اى ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ماكان . ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الاهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو اخص من كبر النفس ، وضده الاضطراب في الاهوال والشدائد.ومن جملة الثبات الثبات في الايمان،ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالى الامور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذى هو من لوازم كبر النفس وشجاعتها ، أى السعى في تحصيل السعادة والكمال وطلب الامور العالية

من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها . ومن افراد علو الهمة الشهامة ، ويأتي تفسيرها . ومنها (عدم الغيرة والحمية) اي الاهمال في محافظة مايلزم حفظه ، وهو ايضاً من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر . ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب (١) في القلب الباعث على الاقدام على الامر بأول خاطر من دون توقف فيه ، وهو ايضاً من نتائج صغر النفس وضعفها، وضدها الاناءة والتأني ، و (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعني (التوقف) قريب من الاناءة ، ويأتي الفرق بينهما ،(والوقار)يتناول التأني والتوقف ، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والافعال في الابتداء (والاثناء)،وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها .ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس ، وربما كان من باب رداءة الكيفية ، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس . ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط ، وضده الحلم.ومنها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب ، وضده العفو . ومنها (العنف) وهو ايضا من نتائج الغضب ، وضده الرفق . ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الاخص وهو ايضا من نتائجه ، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الاخص . ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة اي ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو ايضا من ثمرات الغضب ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) اي ارادة الخير والصلاح ودفع الشر والفساد عن كل مسلم . ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن . ومنها (العجب) وهو استعظام النفس ، وضده

---

(١) الراتب : عيش راتب : اي دائم ثابت .

انكسارها واستحقارها (١) . ومنها (الكبر) وهو التعظم الموجب لرؤية النفس فوق الغير ، وضده (التواضع) وهو ان لايرى لنفسه مزية على الغير ومنها (الافتخار) وهو المباهات بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر . ومنها (البغي) وهو عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد وهو ايضا من شعب الكبر وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد اليه واطاعته ، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة (٢) ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها . ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب اليه بالباطل والخروج عن الحق . ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق . ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع ، وضدها الرحمة .

واما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة) ، واما الانواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا) . ومنها (حب المال) وضدهما الزهد . ومنها (الغنى) وضده الفقر . ومنها (الحرص) وضده القناعة . ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس . ومنها (البخل) وضده السخاء ، وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها . ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه ، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص . ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة .

---

(١) من كلمة (منها) الى قوله و (استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى .

(٢) من كلمة (منها) الى قوله و (الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى .

ومنها (انواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وامثالها . ومنها (الخوض في الباطل) . ومنها (التكلم بمالايعنى وبالفضول) وضدهما الترك والصمت ، او بالتكلم بما يعني بقدر الضرورة .

واما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث ، او باثنتين منها فمنها (الحسد) وضده النصيحة . ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الاذى والاكرام والتعظيم ، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الاخص او اعم منه ، وضد الظلم بالمعنى الاخص العدالة بالمعنى الاخص . ومنها (إخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدهما إزالة الخوف والكرب عنه . ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم . ومنها (المداهنة) في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضده السعي فيهما . ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور . ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة . ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر اليهما . ومنها (تجسس العيوب) وضده الستر . ومنها (إفشاء السر) وضد الكتمان . ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح بينهم . ومنها (الشماتة بمسلم) ومنها (المراء والجدال والخصومة)وضدهما طيب الكلام . ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما المزاح . ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص ، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت . ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول . ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما ومنها (الريا) وضده الاخلاص . ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانيه . ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد . ومنها (طول الامل) وضده قصره . ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى

الاعم . ومنها (الوقاحة) وضده الحياء . ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة ، واقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبـــة من التوبة في ضديتها للاصرار . ومنها (الغفلة) وضدها النيـة والارادة . ومنها (عـدم الرغبة) وضده الشوق . ومنهـا (الكراهة) وضده الحب . ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب . ومنها (البعد) وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة . ومنها (السخط) وضده الرضا ، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً ، بل هو فوق الرضا كما يأتي . ومنها (الحزن) وضـــده السرور . ومنها (ضعف الوثوق والأعتماد على الله) وضده التوكل . ومنها (الكفران) وضده الشكر . ومنها (الجزع والهلـع) وضده الصبر . ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعـة الله وعبادته ، وضده الطاعـة والعبادة ، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع) (١) من الطهارة ، والصلاة والذكر وتلاوة القرآن ، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات . ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الانفاق ، وما سواهما في العبادات .

(تنبيه) اعلم ان إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وادخال البعض في البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على مافصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الاخـــلاق ، بل انما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال .

والسر فيه ان كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا اليه ، فالاختلاف في الادخال لاجل اختلاف الاعتبار للجهات « وقد عرفت انماله جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ، ولا نخصه بواحدة منها » . ثم بعض

(١) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية .

الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل ، وببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل ، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء ، فان الحب ان كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل ، وإن كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل ، والخوف إن كان مما لايخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب ، وان كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل وان كان في موقعه كان من الفضائل ، وقس عليها غيرهامما له الاعتبارات المختلفة .

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت اجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل ، وليست بها فلابد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضل ويضل ، فنقول :

قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ماهي عليه ، وهو لاينفك عن اليقين والطمأنينة ، فمجرد اخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ، والآخذ بمثله ليس حكيماً ، إذ حقيقة الحكمة لاتنفك عن الاذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه ، فمثله كمثل الاطفال في التشبه بالرجال ، أو بعض الحيوانات في محاكاة ماللانسان من الاقوال والافعال .

وأما فضيلة العفة ، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصوراً على امره ونهيه ، فيقدم على مافيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه ، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه ،

وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها بمجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لاشيء آخر من دفع ضر ، أو جلب نفع ، أو اضطرار وإلجاء ، فالاعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الازيد من جنسها ليس عفة ، كماهو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا وكذا الحال في تركها لجمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، أولحصول النفرة من كثرة تعاطيها ، او للحذر من حدوث الامراض والاسقام ، أو اطلاع الناس وتوبيخهم ، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي . . الى غير ذلك .

وأما فضيلة الشجاعة ، فقدعرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة ، فالاقدام على الامور الهائلة ، والخوض في الحروب العظيمة ، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال ، او الظفر بامرأة ذات جمال ، او للحذر من السلطان ومثله ، او للشهوة بين ابناء جنسه ، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها إما رذيلة الشره او الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين ، وقاطعي الطرق والسارقين ، فمن كان اكثر خوضاً في الاهوال ، وأشد جرأة على الابطال للوصول الى شيء من تلك الاغراض ، فهو اكثر جبناً وحرصاً ، لا اكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع في المهالك والاهوال ، تعصباً عن الاقارب والاتباع ، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فاغتر بذلك ولم يبال بالاقدام اتكالا على العادة الجارية . ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل ، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته ، بل لعجز الطفل . ومن هذا القبيل مايصدر عن بعض الحيوانات

من الصولة والاقدام ، فانه ليس صادراً من ملكة الشجاعة ، بل عن طبيعة القوة والغلبة .

وبالجملة : الشجاع الواقعي ماكانت افعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة ، فربماكان الحذرُ عن بعض الاهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض في بعض الاخطار من موجباته فينا فيها ، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة ، وايقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية ، أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة او في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من امارات القحة والحماقة .

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة اكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لايبالي بذهاب شرفه ، وفضيحة اهله وحرمه ، فهو من اهل الجنون والحماقة ، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة احسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة . على ان الشجاعة في المبادىء ربما كانت موذية ، وانما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما اذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة ، والذب عن العقائد الحقة ، فان الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأى الصحيح اذاعلم أن عمره في معرض الزوال والثور ، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور ، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني ، فيحامي عن دينه وشريعته ، ولا يبالى بما يحذر عنه غيره من ابناء طبيعته ، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين ، ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياماً محدودة ، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضى نفسه

بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لاصحابه : « أيها الناس انكم إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفس ابن ابي طالب بيده لالف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش » .

وبالجملة : كل فعل يصدر عن الشجاع في اى وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً في موقعه ، وله قوة التحمل على المصائب ، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الامور ، ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، واذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل ، وكان انتقامه مقصوراً على مايستحسن عقلا وشرعاً ، ولا يتعدى الى مالا ينبغي . وليس مطلق الانتقام مذموماً ، فربما كان في بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع ، وقدصرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس ذبولا لايرتفع إلا بالانتقام ، وربما أدى هذا الذبول الى بعض الرذائل المهلكة .

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة ، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب ، ولا يغلب بعضها على بعض ، ولا يقدم على شيء غير ماتسقط له العاقلة . وانما يتم ذلك اذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لاجلها جميع الافعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونهافضيلة وكمالا ، فمن يتكلف اعمال العدول رياء وسمعة او لجلب القلوب ، او تحصيل الجاه والمال ليس عادلا .

وقس على ذلك جميع انواع الفضائل المندرجة تحت الاجناس المذكورة فانه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها ، فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها

ويجتنب عنها ، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق مع كون الغاية الباعثة له عليه بجرد كونه فضيلة وكمالا ، دون الاغراض الاخر ، فبذل المال لتحصيل الازيد ، أو لدفع الضرر ، أو نيل الجاه ، او للوصول الى شيء من اللذات الحيوانية ليس سخاء . وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه . فان المبذر جاهل بعظم قدر المال . والاحتياج اليه في مواقع لولاه لادى الى تضييع الاهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الاعمال ، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان ، ومع الفقر نائم) (١) . وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهذا يكون في الاغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث او غيره مما لايحتاج الى كد وعمل ، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، اذ المكاسب الطيبة قليلة جداً ، وارتكابها للاحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه ، شاكين عن بختهم ، واضدادهم على خلاف ذلك ، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان . وقد قال بعض الحكماء : « إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر الى قلة الجبل وانفاقه كاطلاقه » .

فصل

العدالة اشرف الفضائل

العدالة اشرف الفضائل وافضلها ، إذ قد عرفت انها كل الفضائل

(١) كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها .

او مايلزمها ، كما ان الجور كل الرذائل او مايوجبها ، لانها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والافعال ، ورد الزائد والناقص الى الوسط ، وانكسارسورة التخالف بين القوى المتعادية ، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضى حصول فعل متوسط بين افعالها المتخالفة ، وذلك كما تحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين افعالها المتخالفة ، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال افلاطون الالهي : (العدالة اذاحصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ويستضىء بعضها من بعض ، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على افضل ما يكون ، فيحصل لها غاية القرب الى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها اقرب الصفات الى الوحدة ، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات ، والتاليف بين المتباينات ، والتسوية بين المختلفات ، ورد الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة الى التوسط الذى هو الوحدة ، فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد ، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة ، ولا ريب في ان الوحدة اشرف من الكثرة ، وكلما كان الشيء اقرب اليها يكون افضل واكمل وابقى وادوم ومن تطرق البطلان والفساد ابعد ، فالمتخالفات اذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان،ولذا قيل : كمال كل صفة ان يقارب ضدها ، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة ، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة ، وجذب الصور الجميلة للنفوس ، انما هو لوحدة التناسب ، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى اوغيرها اشرف النسب لقربها الى الوحدة

وغيرها من النسب يرجع اليها .

وبالجملة : اختلاف الاشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد الكل ومبدؤه ، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقــدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت او خلقية او فعلية او عددية او مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحقة ، وكلما كان اقرب اليها يكون اشرف وجوداً ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود ، لأن تولد المواليد من العناصر الاربعــة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربانية بالبدن انما هو لحصول نسبة الاعتدال ، ولذا يزول تعلقها به بزوالها بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت .

والتحقيق انها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها ، فهي في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي ، وفي الاعضاء حسن ظاهري ، وفي الكلام فصاحة ، وفي الملكات النفسية عدالة ، وفي الحركات غنج ودلال ، وفي النغمات ابعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهــذا المعنى في اي مظهر ظهر ، وبأى صورة تجلى ، وبأي لباس تلبس .

فاني أحب الحسن حيث وجدته وللحسن في وجــه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما ، وفي هــذا المقام تفوح نفحات قدسيــة تهتز بها نفوس اهل الجذبة والشوق ، ويتعطر منها مشام اصحاب التأله والذوق ، فتعرض لها إن كنت اهلا لذلك .

واذا عرفت شرف العدالة وايجابها للعمل بالمساواة ، ورد كل ناقص

وزائدالى الوسط . فاعلم! أنها إما متعلقة بالأخلاق والافعال .أوبالكرامات وقسمة الامـوال . او بالمعاملات والمعاوضات . او بالاحـكام والسياسات . والعادل في كل واحد من هذه الامور ما يحدث التساوي فيه برد الافراط والتفريط الى الوسط . ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط . حتى يمكن رد الطرفين اليـــه . وهذا العلم في غاية الصعوبة . ولا يتيسر إلا بالرجوع الى ميزان معرف للأوساط في جميع الاشياء . وماهو إلا مـــيزان الشريعة الالهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية . فانها هي المعرفة للاوساط في جميع الاشياء على ماينبغي . والمتضمنـة لبيان تفاصيل جميـع مراتب الحكمـة العمليـة . فالعادل بالحقيقـة يجب ان يكون حكيما عالماً بالنواميس الالهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة .

وقد ذكر علماء الاخلاق ان العدول ثلاثة ! « الاول » العادل الاكبر وهو الشريعة الالهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة . «الثاني» العادل الاوسط . وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الالهيـة والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة . « الثالث » العادل الصامت وهو الدينار لانه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات .

بيان ذلك ؛ ان الانسان مـدني بالطبع فيحتاج بعض افـراده الى بعض آخر . ولايتم عيشهم الابالتعاون . فيحتاج الزارع الى عمل التاجر و بالعكس والنجار الى عمل الصباغ و بالعكس . وهكذا تتقع بينهم معاوضات . فلابد من حفظ المساواة بينها دفعاً للتنازع والتشاجر . ولايمكن حفظها بالاعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك . وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير كنظر المهندس . وتدبير صاحب الجيش . فان نظرهما في لحظة واحدة ربما ساوى عملا كثيراً لمن يعمل ويحارب . فحفظ المساواة

بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الاعمال والأشياء المختلفة ، ليحصل الاعتدال والاستواء ، ويتبين وجه الأخذ والاعطاء ، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لايتضمن إفراطاً ولا تفريطاً قيل : وقد أشير الى العدول الثلاثة في الكتاب الالهي بقوله سبحانه : «

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (١) .

فان الكتاب اشارة الى الشريعة ، والميزان الى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار ، والحديد الى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط .

هذا والمقابل للعادل ـ اعني الجائر المبطل للتساوى ايضاً ـ اما جائر أعظم ـ وهو الخارج عن حكم الشريعة ـ ويسمى كافراً ـ أو جائر اوسط ـ وهو من لايطيع عدول الحكام في الاحكام ـ ويسمى طاغياً وباغياً ـ أوجائر اصغر ـ وهو من لايقوم على حكم الدينار ، فيأخذ لنفسه اكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه ـ ويسمى سارقاً وخائناً ـ .

ثم العدالة على اقسام ثلاثة :

« أحدها » مايجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه ، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان ، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج اليه كل حي من الارزاق والاقوات ، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، وما من يوم إلا

---

(١) الحديد : الآية : ٢٥ .

ويصل الينا من نعمه وعطاياه ماتكل الألسنة عن حصره وعده ، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لاتحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة ، إذ من اعطى خيراً ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر.

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الاشخاص ، فان مايؤدى به حق احسان السلطان غير مايؤدى به حق احسان غيره ، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن ، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك . والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعينا . ولايحتاج الى شيء من اعمالنا وأفعالنا . ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة ، كمعرفته ومحبته ، وتحصيل العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة ، والاجتهاد في امتثال ماجاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة ، والسعي الى المواقف الشريفة وغير ذلك ، وان كان التوفيق لادراك ذلك كله من جملة نعمائه ، إلا أن العبد إذا أدى ماله فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضي الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات ، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق ، وإن كان أصل تمكنه واختياره ، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .

« الثاني » مايجرى بين الناس بعضهم لبعض : من اداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء ، فهذا القسم من العدالة يقتضي ان يرضى بحقه ، ولايظلم أحداً ، ويقيم كل واحد من ابناء نوعه على حقه بقدر الامكان ، لئلا يجور بعضهم بعضاً ، ويؤدى حقوق اخوانه المؤمنين بحسب استطاعته . وقد ورد في الحديث النبوي : « إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقاً لابراءة له منها إلا بالأداء

أو العفو : يغفر زلته ، ويرحم غربته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته ، ويرد غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته ، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافيء صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته ، ويشفع مسألته ، ويسمت عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب كلامه ، ويبر انعامه ، ويصدق أقسامه ، ويواليه ولا يعاديه ، وينصره ظالما أومظلوما فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على من ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على اخذ حقه ، ولا يسأمه ، ولايخذله ، ويحب له من الخير مايحب لنفسه ، ويكره له من الشر مايكره لنفسه » .

« الثالث » مايجري بين الاحياء وذوى حقوقهم من الاموات ؛ من أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء . وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله » ، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر آخر : « الدين النصحية ، قيل لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولعامة المؤمنين » .

ايقـــاظ

قد ظهر بما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وافعاله الباطنة والظاهرة ، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الاشياء المتخالفة ، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة . فكن ياحبيبي جامعاً للكمالات ، متوسطاً بين مراتب السعادات ، ومركزاً لدائرة نيل

الافاضات . فكن أولا متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان ولا تكتف بأحدهما حتى لاتكون واحداً من الرجلين القاصمين (١) لظهر فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم . وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن ، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك نقياً ، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزى حوراء مدلسة بأنواع التدليسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي ان يكون ظاهرك مرآة لباطنك ، حتى يظهر من محاسنك بقدر مااقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة . وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة متوسطاً بين الافراط والتفريط على مايقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قصروا انظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم الى الالحاد والزندقة ، ولامن الذين صرفوا اعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ماجاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة ، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الانبياء الى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أوالتعصب ،فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان ، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة ، فلا تكن متكلماً صرفالاتعرف سوى الجدل ، ولامشائياً محضااضاع الدين واهمل ولا متصوفاً استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطاً بين الاصول والفروع ، فلا تكن اخباريا تاركا

---

(١) اشارة الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك) .

للقواعد القطعية ، ولا اصوليا عاملا بقياسات عامية . وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة ، واعمل به حتى يرشدك الى طريق السداد ، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد .

[دفع اشكال]

إن قيل : قد تلخص مما ذكر : أن الفضيلة في جميع الاخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع انه قد ثبت ان للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة الى المساواة (قلنا): التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان ، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد فان الزيادة في السخاء إذا لم يؤد الى الاسراف احسن من النقصان عنه ، واشبه بالمحافظة على شرائطه ، فالتفضل انما يصدر عن فضيلة العدالة ، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، إذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة ، بل هي العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل : « إن المتفضل أفضل من العادل » ، والمذموم ان يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين ، لأنه انفق فيما لاينبغي أو على مالا ينبغي ، وصاحبه لا يسمى متفضلا بل مضيعاً ، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة الى صاحبه في المعاملة التي بينهما ، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه الا العدل المحض ولم يجز له التفضيل

تتميم

(اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان)

قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلا منها فيما يقتضي رأيه ، فلا يفسد نظام

العالم الانساني، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة ، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها إلى مايقتضيه ويشتهيه ، كما هو الشأن في كل مركب . وقدشبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها . فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذى هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم .

ثم كل شخص مالم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد ، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره ، فان السراج الذي لايضيء قريبه كيف يضيء بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الافراط والتفريط واستقر على جادة الوسط ، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه ، وهو خليفة الله في أرضه ، وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره لتنورت البلاد بأهلها ، وصلحت امور العباد بأسرها ، وزاد الحرث والنسل ودامت بركات السماء والارض .

وغير خفي أن اشرف وجوه العدالات واهمها وأفضل صنوف السياسات واعمها هو عدالة السلطان ، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن احد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال ، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة ، وافواج المحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق (١) الحدثان

(١) البائقة : الداهية والشر . يقال: رفعت عنك بائقة فلان أي غائلته وشره جمعه بوائق .

متصادمة ، وطالبوا الكمال كالحيارى في الصحارى لايجدون الى مناله سبيلا ولا الى جداوله مرشداً ودليلا ، وعرصات العلم والعمل دارسة الآثار ، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار ، فلا يوجد ماهو الملاك في تحصيل السعادات ، اعنى تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الانسان . ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه ، بل لا تجد ديناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله ، ولا طالباً إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله ، ولعمرى إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه : « لايبقى من الاسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه » .

وبالجملة : المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان ، واعتناؤه باعلاء الكلمة ، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار : (إن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وإن كان جائراً كان سهيما في معاصيهم) . وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرب الناس يوم القيامة الى الله تعالى الملك العادل وابعدهم عنه الملك الظالم » . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل الى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار ، وقال بعض الأكابر : لو علمت انه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه .

تنوير

(لاحاجة الى العدالة مع رابطة المحبة)

لواستحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا الى سلسلة العدالة ، فان أهل الوداد والمحبة في مقام الايثار ولوكان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض . والسر ان رابطة المحبة أتم واقوى من رابطة العدالة لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحـــدة قهرية قسرية . على انها لاتنتظم بدون المحبة ، لكونها باعثة للايجاد ، كما اشير اليه في الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف » . فالمحبة هو السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها (١).

وصـــل

(التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي)

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لايتعدى عنه . وبيان ذلك : ان مبادىء الحركات المؤدية الى الكمالات : إما طبيعية كحركة النطفة في الاطوار المختلفة الى بلوغ كمال الحيوانية ، اوصناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات الى بلوغ كمال السريرية . ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها الى المبادىء العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة الى الانسان ، ولما كان كمال الثواني ان تتشبه بالاوائل ، فينبغي ان تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية الى كمالها بالطبيعية .

(١) ولذلك ان الشريعة الاسلامية أول مادعت فيما دعت الى الاخوة والتآلف بين الناس ، وكثير من احـكامها مثل الجماعة والجمعـة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد ، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر .

وإذا ثبت ذلك فاعلم : إن تهذيب الاخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم ان يقتفى في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها ، فنقول : لاريب في أن أول مايحصل في الطفل قوة طلب الغذاء ، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء ، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر (١) ، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية . ونهاية هذه القوة وكمالها ان يتم مايتعلق بالشخص من الامور الشهوية ، وينبعث منه الميل الى استبقاء النوع ، فيحدث ميل النكاح والوقاح. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه مايؤذيه ولو بالاستعانة بغيره . وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع ، فيحدث فيه الميل الى مايحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات . ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد الى ان يتمكن من تعقل الكليات .

وهنا يتم مايتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل ، ويكون ابتداء التكميل الصناعي ، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقى على هذه الحالة ولم يبلغ الى الكمال الحقيقي الذى خلق الانسان لأجله ، لأنه لم يخلق احد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من ايد من عند الله بالنفس القدسية ، وإن كان بعض الناس اكثر استعداداً لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر ، فلا بد لجل الانام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر : ان الطبيعة تولد أولا قوة الشهوة ، ثم قوة الغضب ، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعي ، فيهذب أولا القوة الأولى ليكتسب العفة ، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة ، ثم الثالثة ليتحلى

(١) يريد بها المرضعة .

بالحكمة ، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمى كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة ، ومن حصله لا على الترتيب ، فلا يظن ان تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن ، وإن كان أصعب بالنسبة الى تحصيله بالترتيب فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره ، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه . فلا يترك السعى والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال ، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول الى ماهو المقصد والمطلب .

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعى في حفظها وابقائها ، وان لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بازالة الضد ، ولذا كان فن الأخلاق على قسمين : (احدهما) راجع الى حفظ الفضائل ، (وثانيهما) نافع في دفع الرذائل ، فيكون شبيهاً بعلم الطب ، من حيث انقسامه الى قسمين : (أحدهما) في حفظ الصحة ، (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طباً روحانياً ، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانياً . ومن هنا كتب جالينوس الى روح الله عليه السلام : « من طبيب الابدان الى طبيب النفوس » . فكما ان لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً ، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة ، كما نذكره ان شاء الله تعالى .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها
بازالة نقائضها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل ـ قانون العلاج في الطب الروحاني ـ طريقة معرفة الامراض النفسية ـ المعالجات الكلية لامراض النفس ـ المعالجات الخاصة لامراض النفس . وله اربعة مقامات :

(الاول) مايتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل .

(الثاني) مايتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

(الثالث) مايتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الرابع) مايتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها .

وفيه فصول (١) :

فصـل

(الطريق لحفظ اعتدال الفضائل)

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بايراد المثل وملائم المزاج فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل ايضاً بذلك . وايراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور :

(منها) اختيار مصاحبة الأخيار ، والمعاشرة مع اولي الفضائل الخلقية واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيئة ، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وماصدر عنهم من الافعال ومزخرفاتهم ، فان المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه ، فان الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر . والسر: أن النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو الى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضى الشرور والرذائل ، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال اليه وغلب على صاحبه الى الخير ، ولكون دواعى الشر من القوى اكثر من بواعث الخير منها ، يكون الميل الى الشر اسرع وأسهل بالنسبة الى الميل الى الخير ، ولذا قيل : إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود الى الاعالى وكسب الرذائل بمثابة النزول منها ، والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

(ومنها) إعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواضبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملكات ، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الأربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الأخلاق .

الخلق الذى يريد حفظه ، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين ، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها الى الامساك ، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام في الاخطار والاهوال بشرط اشارة العقل ، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها . وهكذا الحال في سائر الصفات . وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية .

(ومنها) ان يقدم التروي على كل مايفعله ، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ماتقتضيه الفضيلة . ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها ، فليؤدب نفسه بارتكاب مايضاده ، ويشق عليها عقوبة ، بعد تعييرها وتوبيخها ، كما إذا اكل مايضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم ، وإذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدبها بايقاعها في مثلها مع الصبر عليها ، أوفي معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب مايشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغي ألا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية لأن التعطيل يؤدى الى الكسالة وهي الى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتنسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكة الأبدية ، والسعي يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والانس بالحق والالف بالصدق (١) ، فيتنفر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الاسرار الالهية والغوامض الربانية ، ويتشبه بالروحانيات القادسة وينخرط في سلك الملائكة المقدسة . ويجب ان يكون سعيه في امور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد ، لانه لاشقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخزف الفاني الظلماني الذي يفوت عنه وينتقل الى أعدائه من الوراث وغيرهم .

---

(١) كذا في النسخ . والصحيح « للصدق » .

(ومنها) أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعاً وتخيلا ، ومن هيجهما كمن هيج كلباً عقوراً أو فرساً شموساً ، ثم يضطر الى تدبير الخلاص عنه . وإذا تحركتا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة ، وهو القدر الذى جوزه العقل والشريعة .

(ومنها) أن يستقصى في طلب خفايا عيوب نفسه ، واذا عثر على شىء منها اجتهد في إزالته . ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها ، فكثيراً مايخفى عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض اصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، واذا أخبره بشىء منها فليفرح وليبادر الى ازالته حتى يثق صديقه بقوله ، ويعلم أن اهداء شيء من عيوبه اليه أحسن عنده من كل مايحبه ويهواه ، وربما كان العدو في هذا الباب انفع من الصديق ، لان الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره ، والعدو مصر على اظهاره ، بل ربما يتجاوز الى البهتان ، فاذا أظهر الاعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر الى رفعها وقمعها .

ومما ينفع في المقام ان يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، واذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه ، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد في إزالته . وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة ، ويتفحص عن جميع ماصدر من الافعال فيهما فان لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانون العلاج في الطب الروحاني

(تنبيه) قد تبين أن للطب الروحاني أسوة بالطب الجسماني . والقانون في معالجة الامراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولا ، ثم الاسباب والعلامات ، ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الامراض ، أو جزئي يختص بمرض دون مرض ، فكذلك الحال في الطب الروحاني . ونحن نشير الى ذلك في فصول :

فصل

(طريق معرفة الامراض النفسانية)

الامراض النفسانية هي انحرافات الاخلاق عن الاعتدال . وطريق معرفتها : أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة في انواع ثلاثة : (احدها) قوة التمييز ، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها إما في الكمية اوفي الكيفية ، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال او للنقصان عنه ، والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها . فامراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط ، أو بحسب رداءة الكيفية .

فالافراط في قوة التمييز : كالجربزة والدهاء ، والتجاوز عن حد النظر ، والمبالغة في التنقير (١) ، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية ، والحكم على المجردات بقوة الوهم ، وإعمال الذهن في ادراك مالا يمكن دركه ، والتفريط فيه كالبلاهة ، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كاجراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد ، والميل

(١) التنقير : البحث والتتبع .

الى العلوم الغير اليقينية ـ كعلم الجدل والخلاف ـ أزيد مما يميل الى اليقينيات واستمالهما في مقام اليقينيات ، والشوق الى علم الكهانة والشعبذة وامثالهما للوصول الى الشهوات الخسيسة .

وأما الافراط في قوة الدفع : كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . وأما التفريط : كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات . وأما الرداءة فيها : كالغيظ على الجمادات والبهائم او على الناس لابسبب موجب للانتقام .

واما الافراط في قوة الجذب : فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه : فكالفتور عن تحصيل الاقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الردادة فيها : كشهوة الطين والميل الى مقاربة الذكور .

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة ، فاجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية ، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للاخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لايعد كثرة ، كما عرفت اكثرها .

فصل

(أسباب الامراض النفسانية)

إعلم أن اسباب الانحراف في الاخلاق ، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها للاعمال الردية ، او جسمية ـ وهي الامراض الموجبة لبعض الملكات الردية ـ والسر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية ، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل

كيفية تحدث في احدهما تسرى في الآخر ، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه ، وتأثر البدن بالامراض ، (لا) سيما إذا حدثت في الاعضاء الرئيسية يوجب النقص في ادراك النفس وفساد تخيلها وكثيراً مايحدث من بعض الامراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن ، ومن بعضها التهور ، ويحصل من اكثر الامراض سوء الخلق .

فصل

(المعالجات الكلية لمرض النفس)

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر الى ازالتـه بالمعالجات الطبية ، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني . والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولا بالغذاء الذى هو ضد المرض طبعاً ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فان لم ينفع فبالدواء وإن لم ينجع فبالسمومات ، وإن لم يحصل بها البرء فبالكى أو القطع ، وهو آخر العلاج . فالقانون الكلي في المعالجة هنا ايضاً كذلك ، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف الى تحصيل الفضيلة التي هي ضده ، والمواظبة على الأعمال التي هي آثارها ، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض ، فكما ان حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه . فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها . فان لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكراً اوقولا أو عملا ، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال : أيتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه ، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار . فان لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل ، فصاحب الجبن مثلا يعمل

اعمال المتهورين ، فيخوض في المخاوف والأهـوال ، ويلقي نفسه في موارد الحذر والأخطار . وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال ، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف ، وهذا بمنزلة المـداواة بالسم . فان لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعـذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة الكى والقطع ، وهو آخر العلاج .

المعالجات الخاصة لمرض النفس

(تنبيه) لما عرفت المعالجـــة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وانواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه . وقدعددنا قبل ذلك مايتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور ، فهنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ، ونذيله بذكر مايضادها من الفضيلة ، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا ، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على إزالة مايضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة ، وربما كان للرذائل أوالفضائل المتعددة ضد واحد منهما ، فنحن نشير الى ذلك ، ونشير ايضا في تلو كل رذيلة وفضيلة الى مايتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته ـ إن كان له ذلك ـ ونراعى الترتيب المذكور في مقام الاجمال ؛ فنذكر أولا مايتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وانواعهما ، ثم مايتعلق بالقوة الغضبية ، ثم مايتعلق بالشهوية ، ثم مايتعلق بالثلاث والاثنين منها ، فهنا أربعة مقامات :

المقــام الاول

(في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة)

الجربزة وعلاجها ـ الجهل البسيط وعلاجه ـ شرف العلم والحكمة ـ آداب التعلم والتعليم ـ العلم الالهي والأخـلاق والفقـه أشرف العلـوم ـ اصول العقائد المجمع عليها ـ الجهل المركب والشك ـ اليقين ـ علامات صاحبه ـ مراتب اليقـين ـ الشرك ـ التوحيـد ـ التوكل على الله ـ حق التوكل بماذا يحصل ـ مناجاة السر لأرباب القلوب ـ الخواطر النفسانيـة والوساوس ـ أقسام الخواطر ومنها الالهام ـ المطاردة بين جنـدى الملائكة والشياطـين في معركة النفس ـ العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة ـ علاج الوساوس ـ مايتم به عـلاج الوساوس ـ مايتوقف قطع الوساوس عليه ـ حديث النفس لامؤاخذة عليه ـ الخاطر المحمود والتفكر ـ مجارى التفكر في العوالم والمخلوقات

اما جنسا رذائلها (١) [فأولهما] :

الجربزة

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شيء بل لايزال يستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقرعليه ، وربما أدى في العقليات الى الالحاد وفساد الاعتقاد ، بل الى نفي حقائق الأشياء رأساً كماللسوفسطائية ، وفي الشرعيات الى الوسواس.(وعلاجه) بعد تذكر قبحه وايجابه للهلاك ، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند اولى الأفهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولايزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط . وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك.

[وثانيهما] :

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط ، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة . وهو في البداية غيرمذموم لتوقف التعلم عليه ، إذ مالم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها . وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق في ازالته امور : (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا ، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس انساناً بالحقيقة،وانما يطلق عليه الانسان مجازاً ، إذ فضل الانسان عن سائر الحيوانات انما هو ادراك

(١) اى القوة العاقلة .

الكلي المعبر عنه بالعلم ، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك ، فلولا علمه بحقائق الاشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة ، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم . وأى هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول في حد البهيمية . (الثاني) أن يتذكر ماورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ستة يدخلون في النار قبل الحساب لستة » وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة . (الثالث) أن يتذكر مايدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره واذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة ، ويصرف في ازالته الهمة ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه ، ويصرف فيه أيامه ولياليه .

فصل

(شرف العلم والحكمة)

قد علم أن ضد الجنسين ـ أى الجربزة والسفسطة والجهل ـ هو الحكمة ، اعنى العلم بحقائق الاشياء . فلنذكر اولا بعض مايدل على شرافته عقلا ونقلا ترغيباً للطالبين على السعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم ، فنقول :

لاريب في أن العلم افضل الفضائل الكمالية واشرف النعوت الجمالية ، بل هو أجل الصفات الربوبية واجمل السمات الالوهية ، وهو الموصل الى جوار رب العالمين والدخول في افق الملائكة المقربين ، وهو المؤدى الى دار المقامة التى لاتزول ومحل الكرامة التي لاتحول ، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الأديان على : أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه

لا يتيسران بدونه ، وأى شىء افضل مما هوذريعة اليهما . وايضا قد ثبت في الحكمة المتعالية : ان العلم والتجرد متلازمان ، فكلما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً ، ولا ريب في انالتجرد اشرف الكمالات المتصورة للانسان ، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى واهل القرب من الله تعالى .

ومن جملة العلوم معرفة الله التى هي السبب الكلى لايجاد العالم العلوى والسفلى ، كما دل عليه الخبرالقدسي : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت انأعرف فخلقت الخلق » . على انالعلم لذيذ فينفسه محبوب في ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره . والسر فيه ان ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدركاقوى من ملكية الاعيانالمباثنة لذات المالك الزائلةعنه . والتحقيق : اناطلاق الملكية عليه مجازي ، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحت القهر والاستيلاء على الأشياءوالمالكية لها باى نحو كان ، إذمعنى الربوبيةالتوحدبالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء .

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والاشرار ، ونفوذ الحكم علىالملوك وارباب الاقتدار ، فانطباع الانام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم اهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائموالسباع مطيعةللانسان مسخرة له ، لاختصاصه بقوةالادراك ومزيد التمييز . ولوتصفحت آحاد الناس لمتجد احداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه او مال او غير ذلك إلا وهو راجع الى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك ، ولو كان من باب المكر والحيل .

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والاخبار اكثر من ان تحصى

نبذة منها قوله تعالى :

« إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ » (١)

وقوله تعالى :

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » (٢)

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً » (٣)

وقوله تعالى :

« وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُهـا لِلناس وما يَعقِلُهـا إلا العالِمُونَ » (٤)

وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اللهم ارحم خلفائي. قيل : يارسول الله ! من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأبي ذر : « جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب الى الله تعالى من قيام الف ليلة يصلي في كل ليلة الف ركعة واحب اليه من الف غزوة ، ومن قراءة القرآن كله اثني عشر الف مرة وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عزوجل له بكل قدم ثواب نبي من الانبياء ، وثواب الف شهيد من شهداء بدر ، واعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ، ولا يحب العلم إلا السعيد وطوبى لطالب العلم ، والنظر في وجه العالم خير من عتق الف رقبة ، ومن

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (٢) الزمر ، الآية : ٩ .
(٣) البقرة ، الآية : ٢٦٩ . (٤) العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

أحب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسي في رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ، ولا يأكل الدود جسده ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام » .

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وإن طلب العلم اوجب عليكم من طلب المال ، وان المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم ، وقد ضمنه وسيفى لكم ، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه » . وقوله عليه السلام : « إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم ، تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار ، واعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات » .

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ : « لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج » .

وقول الباقر عليه السلام : « عالم ينتفع بعلمه افضل من سبعين الف عابد »

وقول الصادق عليه السلام : « لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم الى ما متع به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم ، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله . إن معرفة الله تعالى انس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم قبلكم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الارض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم !

« الا أن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ » (١)

(١) البروج ، الآية : ٨ .

فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم » .

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم في مظانه ، واقتبسوه من اهله ، فان تعلمه لله تعالى حسنة ، وطلبه عبادة ، والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة الى الله ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء . والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم وينتهى الى آرائهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسهم ، وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهو امه وسباع البر وأنعامه . ان العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الابصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الابرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى . الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال والحرام العلم امام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء ، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه » .

آداب التعلم والتعليم

[تنبيه] لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط :

[أما آداب التعلم] :

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الاكابر : « كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مؤوفة

برمد ونحوه فهي محرومة من الاشعة الفائضة عن الشمس ، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من ادراك الانوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية » .

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب الى الله والفوز بالسعادات الاخروية ، ولم يكن باعثه شيئاً من المراء والمجادلة ، والمباهاة والمفاخرة ، والوصول الى جاه ومال، أو التفوق على الاقران والامثال . قال الباقر عليه السلام : « من طلب العلم ليباهي به العلماء اويماري به السفهاء اويصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرئاسة لاتصلح إلا لاهلها » وقال الصادق عليه السلام : « طلبة العلم ثلاثة ، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم صنف يطلبه للجهل (١) والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل . فصاحب الجهل والمراء مؤذ عار ، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع ، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه ، وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للاغنياء من دونه ، فهولحلوائهم (٢) هاضم ولدينه حاطم ، فاعمى الله على هذا خبره

---

(١) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة .

(٢) قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) في تعليقته على اصول الكافي عن هذا الحديث : « الحلوان ـ بضم الحاء المهملة وسكون اللام ـ ماتأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الاجر والرشوة على اعمالهم ، يقال : حلوته أحلوه حلواناً ، فهو مصدر كالغفران ، ونونه زائدة ، وأصله من الحلاوة ، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) ـ بالهمزة بعد الالف - والحلوا . ـ بالمد والقصر ـ مايتخذ من الحلاوة » .

وقطع من آثار العلماء أثره . وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه ، يعمل ويخشى وجلا داعياً مشفقاً مقبلا على شأنه عارفاً بأهل زمانه مستوحشاً من أوثق اخوانه ، فشد الله من هذا اركانه وأعطاه يوم القيامه أمانه » .

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم ، فان من عمل بما يعلم ورثه الله مالم يعلم . وقال الصادق عليه السلام : « العلم مقرون الى العمل ، من علم عمل ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل عنه » . وعن السجاد عليه السلام : « مكتوب في الانجيل : لا تطلبوا علم مالا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فان العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدده من الله إلا بعداً » . وعن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا ، ومن أراد به الدنيا فهي حظه » . وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « العلماء رجلان : رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك ، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وأن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فأدخله الجنة ، وأدخل الداعي النار بترك عمله (١) واتباعه الهوى وطول الأمل ، اما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة » .

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والادب للمعلم ، ولا يرد عليه شيئاً بالمواجهة ، ويكون محباً له بقلبه ، ولا ينسى حقوقه ، لأنه والده المعنوي الروحاني ، وهو أعظم الآباء الثلاثة . قال الصادق عليه السلام : « اطلبوا

---

(١) صححناه على بعض نسخ اصول الكافي المصححة وفي نسخ جامع السعادات هكذا : (بتركه علمه) .

العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولاتكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم » .

هذا وقد اشرنا سابقاً الى ان اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه اولا من رذائل الأخلاق وذمائم الاوصاف باسرها ، إذما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من الواح العقول الفعالة القدسية .

(وأما آداب التعليم) :

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالي أوجاه ورئاسة اوشهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد التقرب الى الله تعالى والوصول الى المثوبات الابدية ، فان من علم غيره علماً كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره ... وهكذا الى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد الى مثوبات التعاليم الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلا وشرفاً .

(ومنها) ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له ، مقتصراً في الافادة على قدر فهمه ، متكلماً معه باللين والبشاشة لا بالغلظة والفظاظة .

(ومنها) أن لايضن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها ، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد في الخبر (١).

(ومنها) أن يقول مايعلم ويسكت عما لايعلم حتى يرجع اليه ويعلمه، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع . وهذا الشرط لايختص بالمعلمين ،

---

(١) روى في اصول الكافي في باب بذل العلم عن الصادق عليه السلام : « قام عيسى بن مريم خطيبا في بني اسرائيل فقال : يا بني اسرائيل ! لاتحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم » .

بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتي والقاضي وأمثالهما . وقال الباقر عليه السلام : « حق الله على العباد أن يقولوا مايعلمون ويقفوا عند مالا يعلمون » (١)

وقال الصادق (ع) : « إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه : ألايقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا ، فقال :

« أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ إِلّا الْحَقَّ » (١) . وقال : « بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ » (٢) .

وعنه (ع) : « إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أدري ، ولا يقل : الله اعلم ، فيوقع في قلب صاحبه شكا . وإذا قال المسؤل : لا أدري ، فلايتهمه السائل » . وعنه (ع) : « إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك إياك أن تفتي الناس برأيك ، أو تدين بما لا تعلم » ، وعن الباقر (ع) « من افتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه » .

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق . ثم العارف بأهل زماننا يعلم انآداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل

(١) الحديث المروى في اصول الكافي هكذا : « عن زرارة بن اعين قال سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ ماحق الله على العباد ؟ قال : ان يقولو مايعلمون ... » الى آخر الحديث .

(١) الاعراف ، الآية : ١٦٩ (٢) يونس ، الآية : ٣٩ .

العرفان ! « قد فسد الزمان وأهله ، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، واندرست مراسمه بين طلابه » .

تتميم

(العلم الالهي وعلم الاخلاق والفقه أشرف العلوم)

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة ، إلا ان فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه ، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وامثالها ، مما ترجع جل فائدته الى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى ، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة ، ولا يجب تحصيلها ، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية .

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله ، واشرف العلوم واحسنها هو العلم الالهي المعرف لاصول الدين ، وعلم الاخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها ، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات ، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة ، وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجمالا إلا انها في كيفية الأخذ مختلفة ! فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الاخلاق ، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عيناً إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي ، والتارك للطريقين غير معذور ، ولذا ورد الحث الأكيد على التفقه في الدين ، قال الصادق (ع) : « عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا اعراباً ، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر اليه يوم القيامة ولم يزك له عمــلا » ، وقال : « ليت السياط على رؤس اصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام » ، وقال (ع) : « إن آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والارض والمشرق والمغرب ، فاذا سألته عـــن حرام الله وحلاله لم يكن

عنده شيء » .

وأما اصول العقائد فيجب أخــذها عيناً من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق احكامه الواقع ونفس الامر ، فلا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، واذا ورد : « انه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل » (١) ، فهما متعاضدان ومتظاهران ، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج ، وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب الى الشرع منه ، فان كل عقل ليس تاماً ، وكلما ينسب الى الشرع ليس ثابتاً منه ، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي ، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا الى دركه ، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة ، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي .

اصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الامة المختارة عليه من اصول العقائد هو : أن الواجب سبحانه موجود ، وانه واحد في الالوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وان وجوده وصفاته عين ذاته ، وانه متقدم

(١) هذا الحديث رواه في اصول الكافي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله في كتاب العقل والجهل فصححناه عليه ، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا .

على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وانه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء ، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد باحداثها علما ، وان قدرته عامة بالنسبة الى جميع الممكنات ، وانه يخلق مايشاء ويفعل مايريد ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وانه عدل في حكمه صادق في وعده ، وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثله شيء ، ولايتصور عقل ولاوهم مثله ، بل هو تام فوق التمام .

وأن القرآن كلامه ، ومحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رسوله ، ما اتى به من أمور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقصه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

ثم ان المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة ، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً(١) ، وبعضهم على يقين دون ذلك ، واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم الى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض ، والى هذا الاختلاف أشار الامام محمد ابن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ بقوله «ان المؤمنين على منازل : منهم على واحدة ، ومنهم على اثنتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على اربع ، ومنهم على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو ،

(١) كما قال امير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو ... الى آخره » (١) . والامام ابو عبد الله الصادق (ع) بقوله : « ان للايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهى تمامه ، ومنه الناقص البين نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه »

ولا ريب في أن تحصيل مايطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما لابد منه لكل مكلف ، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الأخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين . ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلاً من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي ، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها ، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية ، بمجرد ان عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لايليق بذاته الأقدس ، كان كافياً في النجاة والدخول فى زمرة المؤمنين . وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد ان هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء واساطين الحكماء والعلماء ، وقوة عقولهم ودقة افهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائناً ماكان .

قال العلامة « الطوسي » ـ ره ـ في بعض تصانيفه : « اقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا إله الا الله محمد رسول الله ، ثم اذا

(١) الحديث مروي في اصول الكافي في باب درجات الايمان وبقيتـه : « وعلى صاحب الثلاث اربعاً لم يقو ، وعلى صاحب الاربع خمساً لم يقو ، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقو ، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو ... وعلى هذه الدرجات » .

صدق الرسول ينبغي ان يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الامام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان ! اما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، واما في الآخرة فبالايمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ، ولا يجب عليه ان يبحث عن حقيقة الصفات ، وان الكلام والعلم وغيرهما حادث او قديم ، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا ، فان غلب على قلبه شك او إشكال ، فان امكن إزالته بكلام قريب من الافهام وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف ، ولا حاجة الى تحقيق الدليل ، فان الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها ، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وإنما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات . ومنع العوام عـــن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطىء دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه أيضاً هي رخصة الماهر في صنعة السباحة ، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو ان كل ضعيف في عقله يظن انه يقدر على ادراك الحقائق كلها ، وانه من جملة الاقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون ، فالصواب منع الخلق كلهم ـ إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين ـ من تجاوز سلوك أهل العلم في الايمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما انزل الله وأخبر به رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل ، إذ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حين رأى اصحابه يخوضون ، بعد ان غضب حتى

احمرت وجنتاه ! أفبهذا أمرتم ؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض ! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا » فهذا على تنبيه منهج الحق .

ثم لا ريب في ان نورانية اليقين ووضوحه ، بل واطمئنان القلب وسكونه . لايحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام . بل (الاول) ـ اعني الاستضاءة بنور اليقين ـ يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وازالة كدرتها وصدأها!

« وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها » (١) .

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات ، حتى يقذف في قلبه نور إلهي تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد ، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين وله درجات ومراتب ، والناس فيه يختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد ، كماهم يختلفون في ادراك أنواع العلوم والصنائع «وكل ميسر لما خلق له» (٢) .

وأما (الثاني) ـ اعنى مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد ـ فيمكن ان يحصل بمادون ذلك ، بأن يشتغل ـ بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها ـ بوظائف الطاعات ، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات ، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته ، ودرس الحديث ودرايته ، ويحترز عن مخالطة أولى المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة ، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء ، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين ، ومجالسة الأتقياء والصالحين ، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة ، فيكون التلقين كالقاء البذر في

(١) الشمس ، الآية : ٩ .

(٢) حديث نبوي شريف مشهور تقدم ذكره صفحة «٢٦» .

الصدر ، وهذه الامور كالسقي والتربية له ، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً ، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء . ثم من وصل الى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره ، ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم في الآخرة ، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صـــدره وانفتح له باب الافاضة ، ووصل الى المرتبة الأولى .

أنواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها :

الجهل المركب

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لا يعلم ، ولا يعلم انه لا يعلم ، ولذا سمى مركباً . وهو أشد الرذائل واصعبها ، وازالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة . وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الامراض المزمنة ، ولذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ : « اني لا اعجز عن معالجة الاكمه والابرص وأعجز عن معالجة الاحمق » . والسر فيه : أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها ، فلا يتحرك للطلب ، فيبقى في الضلالة والردى مادام باقياً في دار الدنيا . ثم ان كان المنشأ له اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب ، فانها موجبة لاستقامـة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها ، فيصير جهلها بسيطاً ، فينتهض للطلب . وان كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة ، ويعرض

أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ، حتى يظهر خطأه . وإن كان مانع من عصبية أو تقليد أوغير ذلك فليجتهد في ازالته .

ومنها الشك والحيرة

وهو من باب رداءة الكيفية وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المطالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الأدلة ، ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسدها ، اذ الشك ينافي اليقين الذي لايتحقق الايمان بدونه . قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في بعض خطبه : « لا ترتابوا فتشكوا ولاتشكوا فتكفروا ، وكان الارتياب في كلامه ـ عليه السلام ـ مبدأ الشك . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « لا ينفع مع الشك والجحود عمل » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا الينا » . وسئل ـ عليه السلام ـ عن قول الله تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » (١) .

قال : « بشك » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفيء إلى خير أبداً » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله ، إن حجة الله هي الحجة الواضحة » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك في الله تعالى وفي رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو كافر » . وبمضمونه وردت أخبار أخر . وغير خفي ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس ، لما يأتي أنه لا ينافي الايمان ، بل الظاهر من بعض الاخبار أن ايجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود ، كما روي أن أبا بصير سأل الصادق ـ عليه السلام ـ ما تقول فيمن شك في الله تعالى ؟ قال : « كافر » ،

(١) الانعام ، الآية : ٨٢ .

قال : فشك في رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ؟ قال « كافر » ، ثم التفت الى زرارة فقال : « انما يكفر إذا جحد » .

ثم علاجه ان يتذكر أولا قضية بديهية ، هي : أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ومنه يعلم اجمالا أن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الامر والبواقي باطلة ، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف ، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك ، فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن ، ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها ، ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه .

وصــل

اليقــين

قد عرفت : أن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين) ، وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وان قويت ، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينا ، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع ، بل هو ـ كما اشير اليه ـ جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة ، أو خطأ في الاستدلال ، أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك . فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضداً للجهل المركب . ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقــة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ، والا

فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين .

هذا ومتعلق اليقين إما اجزاء الايمان ولوازمه ، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الالهية من النبوة واحوال النشأة الآخرة، أو غيرها من حقائق الاشياء التي لا يتم الايمان بدونها . ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة ، وإن كان اليقين في المباحث الالهية أدخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الاخروية ، لتوقف الايمان عليه ، بل هو اصله وركنه ، وغيره من المراتب فرعه وغصنه ، والنجاة في الآخرة لاتحصل إلا به ، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين .

وبالجملة : اليقين اشرف الفضائل الخلقية واهمها ، وافضل الكمالات النفسية واعظمها ، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا اوحدي من اعاظم العرفاء او ألمعي من اكابر الحكماء . ومن وصل اليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى . قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن اوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل » ، وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : اليقين الايمان كله » وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ما آدمي إلا وله ذنوب ، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما اذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عندالله تعالى من العمل الكثير على غير يقين » ، وعنه عليه السلام ـ : ان الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . وفي وصية لقمان لابنه : « يا بنى ! لايستطاع العمل الا باليقين ، ولايعمل المرء الابقدر يقينه ، ولايقصر عامل حتى ينقص يقينه » .

علامات صاحب اليقين

ثم لصاحب اليقين علامات :

(منها) الا يلتفت في اموره الى غير الله سبحانه . ولا يكون اتكاله في مقاصده الا عليه ، ولا ثقته في مطالبه الا به . فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولايرى لنفسه ولا لابناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لاثر . ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدّر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه . فتستوي عنده حالة الوجود والعدم . والزيادة والنقصان والمدح والذم . والفقر والغنى . والصحة والمرض . والعز والذل . ولم يكن له خوف ورجاء الا منه تعالى . والسر فيه : انه يرى الاشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الاسباب . ولا يلتفت الى الوسائط ، بل يراها مسخرة تحت حكمه قال الامام ابوعبد الله ـ عليه السلام ـ : « من ضعف يقينه تعلق بالاسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات واقاويل الناس بغير حقيقة ، والسعي في امور الدنيا وجمعها وامساكها ، مقراً باللسان انه لامانع ولا معطي الا الله ، وان العبد لا يصيب الا ما رزق وقسم له ، والجهد لايزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه :

« يَقولُونَ بِأفْواهِهِمْ ما لَيْسَ في قُلوبِهِمْ واللهُ أعْلَمُ بِما يَكتُمُونَ » (١) .

(١) الآية من سورة آل عمران : ١٦١ وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب الى الصادق ـ عليه السلام ـ وهذا الكتاب قال فيه المجلسي ـ قدس سره ـ في مقدمة البحار : « فيه ما يريب اللبيب الماهر ، واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الائمة وآثارهم » ، ثم قال : « وان

وقال ـ عليه السلام ـ : « ليس شيء الا وله حـد » قيل : فما حد التوكل ؟ قال : « اليقين » ، قيل : فما حد اليقين ؟ قال : « الا تخاف مع الله شيئاً » . وعنه ـ عليه السلام ـ : « من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضى الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله فان الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره ، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت » .

(ومنها) ان يكون في جميع الاحوال خاضعاً لله سبحانه . خاشعاً منه ، قائماً بوظائف خدمته في السر والعلن ، مواظباً على امتثال ما اعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجهاً بشراشره اليه ، متخضعاً متذللاً بين يديه ، معرضاً عن جميع ماعداه ، مفرغاً قلبه عما سواه ، منصرفاً بفكره الى جناب قدسه ، مستغرقاً في لجة حبه وانسه ، والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته ، وبأن الله تعالى مشاهد لاعماله وافعاله ، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره ، وأن :

« مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (١) .

فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الادب والخدمة ، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة اشد من تزيين

سنده ينتهي الى الصوفية ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم » .

(١) الزلزال ، الآية : ٨ ـ ٩

ظاهره لابناء نوعه .

وبالجملة : من يقينه بمشاهدته تعالى لاعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب ، يكون ابداً في مقام امتثال اوامره واجتناب نواهيه .

ومن يقينه بما فعل الله في حقه من اعطاء ضروب النعم والاحسان ، يكون دائماً في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي .

ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور ، وما اعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء .

ومن يقينه باستناد جميع الامور اليه سبحانه ، وبأن صدور ما يصدر في العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير ، يكون أبداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله .

ومن يقينه بكون الموت داهيـة من الدواهي العظمى وما بعده أشد وأدهى ، يكون أبداً محزوناً مهموماً .

ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها ، لا يركن اليها . قال الصادق ـ عليه السلام ـ في الكنز الذي قال الله تعالى :

« وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما » (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! عجبت لمن ايقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن اليها » .

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة ، يكون دائماً في مقام

(١) الكهف الآية : ٨٢ .

الهيبة والدهشة . وقد ورد أن سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث اذا كان يمشي يظن انه يسقط على الأرض .

ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام ، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحب . وحكايات اصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والاولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وامثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة ، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة ، وكذا ماياًخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه . وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة . وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام اليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولاوآخراً يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه اليه بحيث يغفل عن ذاته .

(ومنها) أن يكـــون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات وخرق العادات . والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقيناً ازدادت تجرداً ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات . قال الامام أبو عبد الصادق ـ عليه السلام ـ : اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينـه

لمشى في الهوى » . فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الأنبياء مع جلالة علهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مراتب اليقين

وقد ظهر مما ذكر : أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثم له مراتب : (أولها) علم اليقين ، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع ـ كما مر ـ وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات ، ومثاله اليقين بوجود النارمن مشاهدة الدخان . (وثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر ، والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : « لم أعبد رباً لم أره » بعد سؤال ذعلب اليماني عنه ـ عليه السلام ـ ! أرأيت ربك ؟ وبقوله ـ عليه السلام ـ : « رأى قلبي ربي » . وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً ، و (ثالثها) حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه ، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنية فيضان الأنوار والآثار منه اليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا إنما يكون لكمّل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضيات قوية ، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات ، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية ، والطهارة عن ادناس جيفة الطبيعة ، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون

ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة :

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهّرتها بالمدامع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين والفناء في الله ، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقا من سبحات وجهه ، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلاً ، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها .

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبرّى عن ظلمات الاوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الاولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال ، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الاخلاق وصدأها ، ليحصل لها التجرد التام فتحاذي شطر العقل الفعال ، فتتضح فيهاجلية الحق حق الاتضاح . والسر ان النفس بمنزلة المرآة تنعكس اليها صور الموجودات من العقل الفعال ، ولا ريب في ان انعكاس الصور من ذوات الصور الى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة ، فيجب في انعكاس حقائق الاشياء من العقل إلى النفس : ـ ١ ـ عدم نقصان جوهرها ، فلايكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها ـ ٢ ـ وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة واخباث المعاصي ، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات . وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدا ـ٣ـ وتوجهها التام وانصراف فكرها الى المطلوب ، فلا يكون مستوعب الهم بالامور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها ، وهو بمنزلة المحاذاة ـ ٤ ـ وتخليتها عن التعصب والتقليد . وهو بمثابة ارتفاع الحجب ـ ٥ ـ واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على

الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة .

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها ، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة ، اذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والارض والجبال ، وصارت قابلة لحمل امانة الله (١) التي هي المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس عن معرفة اعيان الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - الى مانع التعصب والتقليد بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه ويمجسانه (٢) وينصرانه »، والى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماوات والأرض » . فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، اذ هو

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات الأرض فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » الاحزاب ، الآية : ٧٢ .

(١) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه)، وكذا في غوالي اللئالي ، الا أن المعروف في روايته اضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه) ، كما أرسلها في مجمع البيان : ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا ، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر)، وكذا في صحيح البخاري : ج ١ ص ٢٠٦ ، وصحيح مسلم : ج٢ص ٤١٢ ، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن : ج ٥ ص١٧٢ ، وغير هؤلاء .

متناه يمكن لها الاحاطة به ، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر مايتمكن منه بحسب مرتبته ، لأنهما الاسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بادراك البصائر ، وهي غير متناهية ، ومايلوح منها للنفس متناه ، وان كانت في نفسها وبالاضافة الى علم الله سبحانه غير متناهية ، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ (العالم الربوبي) ، إذ كل ما في الوجود من البداية الى النهاية منسوب الى الله سبحانه ، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره ، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها . ثم بقدر مايحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة ، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله ، وكل منها لانهاية له . ولذا لاتستقر النفس في مقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ، ولا تكون طالبة لما فوقها .

وما اعتقده جماعة من ان مايحصل للنفس من المعارف الالهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة .

ومنها :

الشرك

وهو أن يرى في الوجود مؤثراً غير الله سبحانه ، فان عبد هذا الغير - سواء كان صنما أو كوكباً أو انساناً أو شيطاناً - كان شرك عبادة ، وان لم يعبده ولكن لاعتقاد كونه منشأ أثر اطاعه فيما لايرضي الله فهو شرك طاعة

والأول يسمى بالشرك الجلي ، والثاني يسمى بالشرك الخفي ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »(١)

وكون الشرك اعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لاريب فيه ، وقد انعقد عليه اجماع الامة ، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء .

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذى هو التوحيد ، والشرك وان كان شعبة من الجهل، كما أن التوحيد الذى هو ضده من أفراد اليقين والعلم فذكرهما على حدة لم يكن لازماً هنا ، إلا انه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق . فنحن أيضا ذكرنا له عنواناً على حدة تأسياً بها ، وأشرنا الى لمعة يسيرة منه ، اذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس في وسعنا ولا يليق هنا ، فان التوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له .

وصل

(التوحيد في الفعل)

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته ، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين، لثبوتهما في الحكمة المتعالية) ، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد ، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو ، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول :

هذا التوحيد - على ماقيل - له اربع مراتب : قشر ؛ وقشر القشر ، ولب

(١) يوسف ، الآية : ١٠٦ .

ولب اللب كالجوز الذى له قشرتان وله لب ،وللب دهن وهو لب اللب .
(فالمرتبة الاولى) ان يقول الانسان باللسان : لا إله إلا الله ، وقلبه منكر وغافل عنه، كتوحيد المنافقين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد ، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لايوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاء له ، ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصي . (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد بمعنى أنه لايشاهد إلا فاعلا ومؤثراً واحداً ، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه . (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحداً ، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد ، لأنه من حيث لايرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه، لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه ، وهو مشاهدة الصديقين ، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد . وهذا هي الغاية القصوى في التوحيد .

فالمرتبة الأولى : كالقشرة العليا من الجوز ، وكما أن هذه القشرة لاخير فيها أصلا ، بل إن أكلتها فهي مر المذاق ، وان نظرت الى باطنها فهو كريه المنظر ، وإن اتخذتها حطباً أطفأت النار واكثرت الدخان ، وان تركتها في البيت ضيقت المكان ، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى ، ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر

مذموم الظاهر والباطن ، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية الى وقت الموت ، والمرتبة الثانية :كالقشرة السفلى ، فكما أن هذه القشرةظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا ، فانها تصون اللب عن الفساد عند الادخار ،واذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطباً ، لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة الى مجرد نطق اللسان ، اذ تحصل به النجاة في الآخرة ، لكنه ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والعيان الذى يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه باشراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة : كاللب ، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وكأنه المقصود لكنه لايخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن منه فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين ، إلا أنه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق ، والمرتبة الرابعة : كالدهن المستخرج من اللب، وكما ان اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب في نفسه ، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه .

[تنبيه] ان قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد ، مع ان كل أحد يشاهد الارض والسماء وسائرالأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحداً ؟ (قلنا) : من تيقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها ، وأن مابه تحققها من الله سبحانه ، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله ، فأي استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه ، مع عدمية الكثرة ووحدة مابه التحقق عنده ورسوخ ذلك ،

وارتكازه في قلبه أن لايرى في نظرشهوده إلا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ماهو الحقيقة والواقع . ومما يكسر سورة استبعادك: ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره ، وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لايرى غيره ، مع تحقق الكثرة عنده ، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها لاترى لمغلوبيـة أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس ، فاذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحـل ويغيب عن بصر الظاهر ، فأى استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقى القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة ثم هـذه المشاهـدات التي لايظهر فيها إلا الله الواحد الحق لاتدوم ، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصـــل

(ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى)

اعلم : انه لايمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، إذ المرتبة الرابعة لايتوقف ولا يبتني عليها التوكل ، والأولى مجرد نفاق لايفيد شيئاً . والثانية ـ اعني مجرد التوحيد بالاعتقاد ـ لايورث حال توكل كما ينبغي ، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم .

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد ، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لافاعل إلا الله ، وان كل موجود : من خلق ورزق وعطاء ومنع وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعز وذل ، وحياة وموت ... الى غير ذلك مما

يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لاشريك له فيه ، واذا انكشف له هذا لم ينظر الى غيره ، بل كان منه خوفه واليه رجاؤه ، وبه ثقته وعليـه اتكاله ، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والارض واذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هـذا اتضاحاً أتم من المشاهـدة بالبصر ، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع في قلبـه شائبة الشرك بالالتفات الى بعض الوسائط التي يتراءى في بادى النظر منشيتها لبعض الامور ، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر ، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات الكواكب وانصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض ، وكالالتفات الى اختيار بعض الحيوانات وقـدرتها على بعض الافعال ، فيوسوس الشيطان في قلبـه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهـذا الانسان يعطيك رزقـك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء منع ، وهذا الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عفى عنك ، فكيف لاتخافه ولا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟!

ولا ريب في أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور ، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بابواب المعارف ، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليـه ، علم ان السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان ... وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذى لاشريك له ، فيعلم ان الريح مثـلا هواء ، والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركـه محرك ، وهـذا المحرك لايحرك الهواء مالم يحركه على التحريك محرك آخر ... وهكذا الى أن ينتهي

إلى المحرك الأول الذى لامحرك له ولا هو متحرك في نفسه . وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك ونجومها ، وكائنات الجو ، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان .

فالتفات العبد في نجاته الى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أوالانسان أو الحيوان يضاهي التفات من اخذ لتجز رقبته ، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعاً بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب ، ويقول : لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ماتخلصت ، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أومن القلم دون محركه ـ أعني الكاتب ـ أومن الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم أن القلم لاحكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب ، وان الكاتب لاحكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك ، لم يلتفت الى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب . ولا ريب في ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أوجماد مسخرات في قبضة القدرة، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان بل هذا تمثيل في حق العبد لاعتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة ، وليس الامر كذلك ، إذ الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى .

« وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ » (١)

فمن انكشف له ان جميع ما في السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق ، لم ير في الوجود مؤثراً إلا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائباً ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك .

(١) الأنفال ، الآية : ١٧ .

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف في الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض . وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها الى الأصابع واليد ، فضلا عن صاحب اليد ، وظنت ان القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

فصـــل

(مناجاة السر لأرباب القلوب)

قال بعض العارفين (١) : أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الارض والسماوات بقدرته التي انطق بها كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذى هو ليس بعربي ولا أعجمي ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه أحد إلا بالسمع العقلي الملكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي ، وهذا النطق الذى لكل ذرة من الأرض والسماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد (٢) من بحر كلام الله الذى لا نهاية له !

---

(١) المقصود به (أبو حامد الغزالي) في احياء العلوم ، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ ، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير ، وصاحب الكتاب اعترف ـ فيما سيأتي ـ باقتباس هذه الفصول من الغزالي .

(٢) وفي نسختنا الخطية : (لأنها كلام يستمد) ، ولكن الموجود في المطبوعة وفي نسخة احياء العلوم كما اثبتناه في المتن .

« قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً »(١).

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت ، وليس كل أحد موضعاً للسر ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب . وهم أيضاً لايحكون هذه الأسرار لغيرهم ، إذ إفشاء السر لؤم ، وهل رأيت قط أميناً على اسرار الملك قد نوجي بخفاياه فينادي بها على الملا من الخلق ، ولو جاز افشاء كل سر لما نهى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن افشاء سر القدر ، ولما خص أمير المؤمنين (ع) ببعض الأسرار، ولما قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون .

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان : (أحدهما) المنع عن إفشاء السر ، (ثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ونحن نحكي في فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض مايرى أسباباً ووسائط ، واقرارها بالعجز على انفسها ، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ، ويفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه، ونرد لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية الى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن أصواتاً وحروفاً ، فنقول :

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد ، وقد رأى وجهه أسود بالحبر : « لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقاً ؟ » .

فقال : « ماسودت وجهي ، وانما سوده الحبر ، فاسأله لم فعل كذا ؟ » .

---

(١) الكهف ، الآية : ١٠٩ .

فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : « هذا السؤال على القلم الذي أخرجني من مستقرى ظلماً » .

فسأل القلم،فأحاله الى اليد والأصابع ، وهي الى القدرة والقوة ، وهي الى الارادة ، معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهوراً مسخراً تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته .

ولما سأل الارادة ، قالت : « ما انتهضت بنفسي ، بل بعثت على إشخاص القدرة وإنهاضها ، وبحكم رسول قاهر ورد علي من حضرة القلب بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم » .

ولما سألها قال (العقل) : « أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكنى اشعلت » .

وقال (القلب) : « أما أنا فلوح ماانبسطت بنفسي ولكنى بسطت » .

وقال (العلم) : « أما أنا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري ،فسل القلم الذى نقشني ورسمنى على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل » .

وعند هذا تحير السائل وقال : « ماهذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج ؟ فانى لا اعلم قلماً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطاً إلا بالحبر ، ولا سراجاً إلا من النار . وانى لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولااشاهد من ذلك شيئاً»

فقال له (العلم) : « فاذن بضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، والمهالك في الطريق الذى توجهت اليه كثيرة ، فان كنت راغباً في استتمام الطريق الى المقصد ، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة : (أولها)

عالم الملك والشهادة ، ولقدكان الكاغدوالحبر والقلم واليد والأصابع منهذا العالم ، وقدجاوزت تلك المنازل على سهولة ، (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل وهو يشبه السفينة التي بين الارض والماء ، فلا هي حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها ، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم . (وثالثها) عالم الملكوت الاعلى ، وهو من ورائي ، فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله . وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة » .

فقال له السائل السالك : « قد تحيرت في امري ولست أدري اني اقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا ، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكني على قطع هذا الطريق ؟ » .

فقال : « نعم ! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي ، فان ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم . أماترى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كوشف به وانزل عليه قوله تعالى :

«إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... الى قوله: إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» (١) .

وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب . أو ماسمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ وقد علمت ان الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان ، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي ، ولا قلمه سائر الاقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط . بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الاعلى ، فليست يده من لحم وعظم

(١) العلق ، الآية : ١ ، ٣ ـ ٥ .

ودم ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحـه من خشب ، ولا كلامـه من صوت وحرف ، ولا خطه من نقش ورسم ورقم ، ولا حبره من زاج وعفص . فان كنت لاتشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والاصوات ، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها ؟ » .

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته ، بعدالابتهال الى ربه ، فانكشف له القلم الالهي ، فاذا هو كما وصفـه العلم ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا لـه رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر اصناف العلم ، فشكرالعلم وودعه ، وسافر الى حضرة القلم الالهي ، وقال له :

« أيها القلم ! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى انهاض القدرة وإشخاصها وصرفها الى المقدورات ؟ » .

فقال له (القلم الالهي) : « أفنسيت مارأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحالك الى اليد ؟ فجوابي مثل جوابه ، فانى مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة بـ (يمين الملك) ، فاسأله عن شأنى فانى في قبضته وهو الذى يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الالهي والقلم الآدمى في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة » .

فقال السائل : « من يمين الملك ؟ » .

قال القلم : « أما سمعت قوله تعالى :

وَٱلسَّمٰوٰاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ؟ (١) » .

---

(١) الزمر ، الآية : ٦٧ .

قال : « نعم ! سمعته » .

قال : « والاقلام أيضاً في قبضته وهو الذي يرددها » .

فسافر السائل من عند القلم الى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم ، ورأى أنه يمين لا كالايمان ، ويدلا كالايدى ، واصبع لاكالاصابع، فرأى القلم متحركاً في قبضته، فسأله عن سبب تحريكه القلم

فقال : « جوابي ماسمعتـه من اليمين التى رأيتها في عالم الشهـادة ، وهو الحوالة على القدرة ، إذ اليد لاحكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة » .

فسافر الى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لاجلها ماقبلها فسألها عن سبب تحريكها اليمين .

فقالت:« إنما أناصفة فاسأل القادر ، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة ».

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة :

« لايُسْأَلُ عَمّاَ يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١) .

فغشيته دهشة الحضرة ، فخر صعقاً في غشيته مـــدة ، فلما أفاق قال : « سبحانك ! ما أعظم شأنك واعز سلطانك ، تبت اليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، ومالى إلا أن أسألك واتضرع اليك ، وأقول :

(إشْرَحْ لي صَدْرِي) لاعرفك ، (واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني) (٢) لاثنى عليك .

---

(١) الانبياء ، الآية : ٢٣ . (٢) طه ، الآية : ٢٥ ، ٢٧ .

فنودى من وراء الحجاب : « إياك أن تطمع في الثناء ، فان سيد الانبياء ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مازاد في هذه الحضرة على أن قال : (سبحانك لا اثنى ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك) . وإياك أن تطمع في المعرفة ، فان سيد الاوصياء قال : (العجز عن درك الادراك ادراك ، والفحص عن سر ذات السر إشراك) . فيكفيك نصيباً من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا » .

فعند هذا رجع السائل السالك ، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته ، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة ومابعدها: « اقبلوا عذرى فانى كنت غريباً جديدالعهد بالدخول فيهذه البلاد . والآن قدصح عندى عذركم وانكشف لى أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون في قبضته ، وهو الأول بالاضافة الى الوجود ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير المسافرين اليه ، فانهم لايزالون مترقين من منزل الى منزل الى انيقع الانتهاء الى حضرته ، فهو أول فيالوجود وآخر في المشاهدة وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذى اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت ، وهو الباطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس » .

وهذا هوالتوحيد فى الفعل للسالكين ، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت ، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة اليه واستماع الكلام من أهله . ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول اليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذى ذكرناه ، فينبغى ان يردمثله الى التوحيد الاعتقادي الذي

يوجد في عالم الشهادة ، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل ، مثل ان يقال له : ان كل احد يعلم ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين ، فاله العالم ومدبره واحد ، إذ :

«لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا» (١)

فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده ، وقد كلفوا الأنبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم .

ثم الحق ان هذا التوحيد الاعتقادي اذا قوى يصلح ان يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ، اذ الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب ، فيحتاج الى من يحرسه بكلامه ، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً .

(تنبيه) اعلم ان ما يبتني عليه التوحيد المذكور ، أعني كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر . وسائر ماأوردنا في هذا المقام عاذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا « ولا اشكال فيه إلا في أفعال الانسان وحركاته » (٢) . فان البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له ، لأنه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء ، مع أنه لو كان مسخراً مقهوراً في جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب . ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر، ولا يليق ذكرها هنا .

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

(٢) هكذا في المطبوعة وفي نسختنا الخطية والنسخة الأخرى : « ولا ريب في لزوم الاشكال في افعال الانسان وحركاته » .

والحق ان كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان ، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع (١) .

ومنها :

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الافكار فان كان مذموماً داعياً الى الشر سمي (وسوسة) ، وان كان محموداً داعياً الى الخير سمي (إلهاماً) .

وتوضيح ذلك : ان مثل القلب بالنسبة الى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب ، أوحوض تنصب اليه مياه مختلفة من الجداول ، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآة منصوبة تجتاز اليها صور متباينة . فكما ان هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح ، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر . فلا تزال هذه اللطيفة الالهية مضماراً لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها ، الى ان يقطع ربطها عن البدن ولذائه ، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحياته .

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلا بد له من سبب ، فان كان سببه شيطاناً فهو الوسوسة ، وان كان ملكاً فهو الالهام . ومايستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءاً وخذلاناً ، وما يتهيأ به لقبول الالهام يسمى لطفاً وتوفيقاً . والى ذلك اشار سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله : « في القلب

---

(١) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التاريخية في سر الخلق، والحل الذي لم يسبق اليه البشر حتى عند فلاسفتهم الاقدمين والمتأخرين ما قاله امامنا الصادق (ع) : « لاجبر ولاتفويض ، ولكن أمر بين أمرين » فان الفاعل الذي منه الوجود هوالله تعالى وحده لاشريك له في خلقه ، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله .

لمتان (١) : لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة من الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق » . وبقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » .

فصل

(أقسام الخواطر ومنها الالهام)

الخاطر ينقسم الى ما يختلج بالبال من دون ان يكون مبدأ للفعل : وهي الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة ، والى محرك الارادة والعزم على الفعل ، إذ كل فعل مسبوق بالخاطر أولا ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، وهي تحرك الرغبة والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الأعضاء على الفعل ، (والثاني) كما عرفت ان كان مبدأ للخير يكون إلهاماً ومحموداً ، وان كان مبدأ للشر يكون وسواساً ومذموماً . (والأول) له أنواع كثيرة :

(منها) ما يرجع الى التمني ، سواء كان حصول مايتمناه ممكناً أو محالا ، وسواء كان المتمنى حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً ، وسواء كان عدمه مستنداً

---

(١) روى الحديث في احياء العلوم ج٢ ص٢٣ هكذا : « في القلب لمتان : لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله سبحانه وليحمد الله . ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ... » الآية .

وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا ، وكذا الحديث الآتي :

في نهاية ابن الأثير : « في حديث ابن مسعود : لابن آدم لمتان : لمة من الملك ولمة من الشيطان . اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب ، اراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه » .

الى قضاء الله وقدره أو الى تقصيره وسوء تـــدبيره فيخطر بباله أنه ياليت لم يفعل كذا أو فعل كذا .

(ومنها) ما يرجع الى تذكر الأحوال الغالبة ، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما ، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيسر به ، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله ، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والاسقام واختـــلال امر المعاش وسوء الانتظام ، أو يـــذهب وهمه الى حساب المعاملين او جواب المعاندين ، وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة .

(ومنها) ما يرجع الى التطير ، وربما بلغ حداً يتخيل كثيراً من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب بذلك ، وان لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالباً الى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب الى ما يريده ويسره ، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والاسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته منعدوه ، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة . فيعتريه نوع اضطراب وانكسار ، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول التوسعة في الأموال والأولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوعاذعان لها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوساوس وأردؤها ، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ . وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحـــدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله .

(ومنها) مايرجع الى التفاؤل ، وهذا ليس مذموماً . وقد ورد من رسول الله ـ صلى الله عليهوآله وسلم ـ : أنه يحب التفاؤل ، وكثيراً ما يتفاءل ببعض الامور .

(ومنها) الوسواس في العقائد ، بحيث لا يؤدي الى الشك المزيل لليقين، فانه قادح في الايمان كما تقدم . ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لايضر بالايمان ولا يؤاخذ به ـ كما يأتي ـ .

(تذنيب) قد ظهر مما ذكر : ان أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لابد وان يحصل منه ماهو مقدر ، وكيف كان هو تضييع لوقته ، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره ، فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله او عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله ، فهو مغبون . وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات ، مع ان الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، اذ لايزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفاً لغرضه ، أو من يتوهم انه ينازعه ويخالفه في رأيه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم فلا يزال في شغل دائم مضيع لدينه ودنياه .

فصل

(المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس)

قد عرفت ان الوسواس أثر الشيطان الخناس ، والالهام عمل الملائكة الكرام . ولا ريب في ان كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي ، وانما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فاذا مالت النفس الى مقتضى شهوة او غضب وجد الشيطان مجالا فيدخل بالوسوسة ، واذا انصرفت الى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام . فلايزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس . لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية ، الى أن

يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة انما هو بغلبة الهوى او التقوى فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه ، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « خلق الله الانس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم ، قال الله تعالى :

« لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا (١) » .

وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله » .

ولاريب في ان أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية الى إيثار العاجلة واطراح الآجلة . والسر فيه : ان سلطنة الشيطان سارية في لحم الانسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه ، كما ان الشهوات ممتزجة بجميع ذلك ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم » ، وقال الله سبحانه ـ حكاية عن لسان اللعين ـ :

« لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ

(١) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (١) ».

فالخلاص من أيدي الشياطين يحتاج الى مجاهدة عظيمة رياضة شاقة، فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم

فصل

(تسويلات الشيطان ووساوسه)

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة، فالأبواب المفتوحة للشيطان الى القلب كثيرة، وباب الملائكة واحدة، ولذا روي ان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خط يوماً لأصحابه خطاً وقال: « هذا سبيل الله »، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال: « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه »، ثم تلا قوله سبحانه:

« وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (٢).

ثم لسهولة ميل النفس الى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية الى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً، والطرق المؤدية الى الحق التي هي باب الملائكة خفية. فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً، فما أصعب بالمسكين ابن آدم ان يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً، على ان

(١) الأعراف الآية: ١٦، ١٧.

(٢) الأنعام، الآية: ١٥٣.

اللعين ربما يلبس بين طريق الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير ، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه ، لا وسوسة الشيطان وإغواؤه ، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم ، كما يلقى في قلب العالم ان الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجهل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك ؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها ؟ فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه ، الى ان يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ ، فيدعوه الى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم اياه ، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه ، لا يزال في اثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة ، ولذة الجاه وحب الرياسة ، والتعزز بالعلم والفصاحة ، والنظر الى الخلق بعين الحقارة ، فيهدى الناس ويضل نفسه ويعمر يومه ويخرب أمسه ، ويخالف الله ويظن انه في طاعته ، ويعصيه ويحسب انه في عبادته ، فيدخل في جملة من قال الله فيهم :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً »(١).

ويكون ممن قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيهم : « ان الله

(١) الكهف الآية ١٠٣ ـ ١٠٤ .

ويكون من قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيهم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ، و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده الا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل

(العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة)

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة وقد قيل إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات : (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها . (وثانيها) كالنظر الى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والأوهام ، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الايمن من النفس ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها ، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الأيسر منها ، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية ، لأنها مبادىء العلوم اليقينية ، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية ، لأنها مبادىء المقدمات السفسطية . (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والائمة الاطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وارباب التعطيل والتشبيه من الكفار . فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير ، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور . « ورابعها » كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والاعيان الشريفة

كالعلم بالله وملائكته ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث ، وقيام الساعة ، ومثول الخلائق بين يدى الله تعالى ، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، في مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة ، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فان الاول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوي، والثاني يشبه الابالسة المطرودة عن باب الله ، الممنوعة من ولوج السماوات ، المحبوسة في الظلمات ، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم .

فصل

(علاج الوساوس)

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج في دفعها ان يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه ، ويتذكر أن الصبر عما تدعو اليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذف شرارة منها الى الارض احرقت نبتها وجمادها فاذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان ، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه ، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الامور الحقة ، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه ، بحيث يرجع هارباً خائباً . فان التهاب نيران (١) البراهين بمنزلة رجوم الشياطين ، فاذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحمر من الاسد .

وإن كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار ، من دون ان تكون مبادىء الافعال ، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والاشكال ، وقد اعترف اطباء

(١) وفي نسختنا الخطية هكذا : « فان نيرات البراهين » .

النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة ، وربما قيل بتعذره ، ولكن الحق امكانه ، لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشيء غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » ، ولولا امكانه لم يتصور ذلك .

والسر في صعوبة قطعها بالكلية ان للشيطان جندين : جنداً يطير وجنداً يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لان غالب ما خلقتا منه هي النار التي خلق منها الشيطان ، فالمناسبة اقتضت تسلطـــه عليهما وتبعيتهما له .

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضيـة للحركـة ، إذ لاتتصور نار مشتعلة لاتتحرك ، بل لاتزال تتحرك بطبعها ، فشأن كـل من الشيطان والقوتين ان يتحرك ولا يسكن ، إلاان الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركـــة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما ـ اعني النار ـ شيء من الطين لم تكونا بمثابة ماخلق من صرف النار في الحركة ، إلا انهما استعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما ثم الشهوة لكون النارية فيها اقل فسكونها ممكن ، فيحتمل ان يكف تسلط الشيطان عن الانسان فيها ، فيسكن بالكلية عن الهيجان . واما الواهمة فلا يمكن ان يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الانسان ، إذ لو امكن قطعه ايضا بالمرة ، لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له ، وانقياده له هو سجوده له ، اذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ،وكيف يتصور ان يسجد الملعون لاولاد آدم عليه السلام مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من ان يطمئن عن حركته ساجداً له معللا بقوله :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ » (١)

فـــلا يمكن ان يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة، بل هو من المنظرين لاغوائهم الى يوم الدين ، فلا يتخلص منه احد الامن اصبح وهمومه هم واحد فيكون قلبه مشتغلاً بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالاً فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء (٢) عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظنن انه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح ، فانك ان اردت ان تخلي القدح عن الهواء من غير ان تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر مايدخل فيه الماء يخلو عن الهواء ، فكذلك القلب اذا كان مشغولاً بفكر مهم في الدين يمكن ان يخلو من جولان هذا اللعين ، واما لو غفل عن الله ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ، كما قال سبحانه :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »(١).

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الله يبغض الشاب الفارغ » ، لان الشاب اذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لابد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد الحيوانات ، لان الشيطان طبعه من النار ، والشهوة

---

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ .

(٢) إشارة الى قوله تعالى: «قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » الحجر الآية : ٤٠ .

(٣) الزخرف ، الآية ٣٥ .

في نفس الشاب كالحلفاء (١) اليابسة ، فاذا وجدها كثر تولده وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً .

فظهر أن وسواس الخناس لايزال يجاذب قلب كل انسان من جانب الى جانب ، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً ، والفرار عن الاهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال الى زاوية ، وجعل الهموم هماً واحداً هو الله . وهذا أيضا غير كاف مالم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والارض وعجائب صنع الله ، فان استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والأذكار والادعية والقراءة . ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور ، إذ الاوراد الظاهرة لاتستغرق القلب ، بل التفكر بالباطن هو الذى يستغرقه وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الاوقات إلا بعضها ، إذ لايخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر ، كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان ، ولو من مخالطة بعض لايستغنى عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة .

فصل

(مايتم به علاج الوسواس)

لو امكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فانما يتم بأمور ثلاثة :

(الاول) سد الابواب العظيمة للشيطان في القلب ، وهي الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب ، والحقد ، والكبر ، والطمع ، والبخل ، والخفة والجبن ، وحب الحطام الدنيوى الداثر ، والشوق

---

(١) الحلفاء : نبت اطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص ، ينبت في مغايض المياه . الواحدة (حلفة وحلفاء) .

الى التزين بالثياب الفاخرة ، والعجلة في الامر ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق والخلق . . . وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات ، فانها ابواب عظيمة للشيطان ، فاذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به ، واذا سدت لم يكن له اليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز .

(الثاني) عمارة القلب باضدادها من فضائل الاخلاق وشرائف الاوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الاعلى .

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان ، فاذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته ، سوى خطراته واجتيازاته ، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية ، ولولم يسد أبوابه اولا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها ، إذ حقيقة الذكر لايتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل ، ولولاهما لم يظهر على القلب سلطانه ، بل كان مجرد حديث نفس لايندفع به كيد الشيطان وتسلطه ، فان مثل الشيطان مثل كلب جائع ، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم اوخبز اوغيرهما من مشتهيات الكلب ، ومثل الذكر مثل قولك له : إخسأ . ولا ريب في أن الكلب إذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك : إخسأ ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول مالم يصل الى مطلوبه . فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر الى حواشيه ، ولايستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان فيه . وايضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوي ، فكما لاتنفع الاغذية المقوية مالم ينق البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة ، كذلك

لاينفع الذكر مالم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس ، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان متطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار الورع والتقوى ، كما قال سبحانه .

«انَّ ٱلَّذينَ ٱتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُمْ مُبصِرُونَ » (١)

وقال سبحانه :

« إنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ » (١)

ولو كان بجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل احد حاضر القلب في الصلاة ، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة ، إذ منتهى كل ذكروعبادة انما هو في الصلاة مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات ، وربما لايتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضماراً لجولانهم ، ويقلبونه شمالا ويميناً بحيث لايجد فيه ايماناً ولايقيناً ويجاذبونه الى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها ، ومع ذلك كله لاتظنن أن الذكر لاينفع في القلوب الغافلة أصلا ، فان الأمر ليس كذلك ، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين ، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة :

(الأولى) اللساني فقط .

(الثانية) اللساني والقلبي ، مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث احتاج

---

(١) الاعراف ، الآية : ٢٠١ . (٢) ق ، الآية : ٣٦ .

القلب الى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلي وطبعـــه استرسل فى أودية الخواطر .

(الثالثة) القلبي الذى تمكن من القلب واستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل احتاج ذلك الى سعي وتكلف ، كما احتيج في الثانية اليهما في قراره معه ودوامه عليه .

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر ، فلا يلتفت القلب الى نفسه ولا الى الذكر ، بل يستغرق بشراشره في المذكور ، واهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات الى الذكر حجاباً شاغلا . وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض لكونها طرقاً الى ماهو المطلوب بالذات .

فصـــل

(مايتوقف عليه قطع الوساوس)

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفيـة والتخلية أولا ، ثم المواظبة على ذكر الله : إن بعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها ، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت الى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط ، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقاً ، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان ، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب

الملائكة ، ويصير مستقرها ومستودعها ، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية ، ويشملها خطاب :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية » (۱)

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة المملوة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل ، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة ، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها ، فتملأ جوانبها ويطفيء نور اليقين ويضعف سلطان الايمان ، حتى تخمد انواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير ابداً ، وتكون دائماً محل الوساوس الشيطانية ، ومثلها لايرجع الى الخير ابداً ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع ، والى مثلها اشير بقوله سبحانه :

« أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً » (۲)

وبقوله تعالى :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (۳)

وبقوله سبحانه :

« إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » (٤)

---

(۱) الفجر ، الآية : ۲۷ ـ ۲۸ . (۲) الفرقان ، الآية : ٤۳ .

(۳) البقرة ، الاية : ۷ . (٤) الفرقان ، الاية : ٤٤ .

وبقوله تعالى :

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (١)

وبقوله عز وجل :

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (٢)

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة ، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة . فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها الى الشر ، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين ، الى أن تصل الى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر . ثم النفس الاولى في غاية الندرة ، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين ، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم، والثالثة نفوس اكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الاولى ، وآخرهما بالثانية

فصل

(حديث النفس لامؤاخذة عليه)

قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة في احداث ظلمة وكدرة في النفس ، إلا أن مجرد الخواطر ـ أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا

---

(١) يس ، الاية : ١٠ .

(٢) يس ، الاية : ٧ .

اختيار ، كالميل وهيجان الرغبة ـ لامؤاخذة عليهما ، ولا يكتب بهما معصية لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخذة عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لايطاق ، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذ به لكونه اختيارياً ، وكذا الهم بالفعل والعزم عليه ، إلا أنه إن يفعل مع الهم خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وإن لم يفعل لمانع منعه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة .

والدليل على هذا التفصيل : أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر ، فما روي في الكافي : « أنه جاء رجل الى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال يارسول الله ! هلكت . فقال له هل اتاك الخبيث فقال لك من خلقك ؟ فقلت الله تعالى ، فقال لك : الله من خلقه ؟ فقال له : اى والذى بعثك بالحق لكان كذا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ . ذاك والله محض الايمان» ومثله ماروي : أن رجلا أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال «يارسول الله نافقت ! فقال والله ما نافقت ! ولو نافقت ما أتيتني تعلمني ، ماالذي رابك ؟ أظن أن العدو الحاضر أتاك ، فقال : من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى خلقني . فقال لك : من خلق الله ؟ فقال : أى والذى بعثك بالحق لكان كذا ، فقال : إن الشيطان أتاكم من قبل الاعمال فلم يقو عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكى يستزلكم ، فاذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده » . وقريب منه ماروي : أن رجلا كتب الى أبي جعفر عليه السلام يشكو اليه لما يخطر على باله ، فأجابه في بعض كلامه : « إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لابليس عليك طريقاً . قد شكى قوم الى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما يعرض لهم لان تهوى بهم الريح أو يقطعوا أحب اليهم من أن يتكلموا به ، فقال رسول الله : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ! قال : والذي نفسي بيده إن ذلك

لصريح الايمان ، فاذاوجدتموه فقولوا : آمنا بالله ورسوله ولا حول ولاقوة إلا بالله » وسئل الصادق عليه السلام عن الوسوسة وان كثرت ، فقال . « لاشيء فيها ، تقول لا اله الا الله » . وعن جميل بن دراج قال : قلت للصادق عليه السلام : انه يقع في قلبي أمر عظيم ، فقال : « قل لا اله الا الله » ، قال جميل فكلما وقع في قلبي قلت لا اله الا الله ، فيذهب عني .

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة اذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ماروى . انه لما نزل قوله تعالى .

« وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ » (١)

جاء ناس من الصحابة الى رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ وقالوا كلفنا مالا نطيق ، ان احدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت في قلبه ، ثم يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ . « لعلكم تقولون كما قال بنو اسرائيل . سمعنا وعصينا ، قولوا . سمعنا وأطعنا ، فقالوا . سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى .

« لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا » (٢)

وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه .

« وان تبدوا مافي أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله » . « ان هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ وعرضها على امته فقبلوها . فلما رأى الله

(١) البقرة ، الآية : ٢٨٤ .

(٢) البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

عز وجل منهم القبـــول على أنهم لايطيقونها ، قال . أما اذا قبلت الاية بتشديدها وعظم مافيها وقد عرضتها على الامم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك ، فحق علي أن أرفعها عن أمتك ، وقال عز من قائل : لايكلف الله نفساً الا وسعها » وما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: « وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لايعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما اضطروا عليه ، وما استكرهوا عليه ، والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق ، والحسد مالم يظهر بلسان أويد » . وماروي أنه سئل الصادق عليه السلام عن رجل يجيء منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى ؟ فقال عليه السلام . « ان الله تعالى اكرم من أن يستغلق على عبده » ، والمراد من الغضب فيه . الغضب الذي سلب الاختيار .

وبالجملة القطع حاصل بعدم المؤاخذة والمعصية على مالا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لاتطاق ، وان لم ينفك عن إحداث خباثة في النفس.

وأما (١) على انه يكتب سيئة على الاعتقاد والهم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله ، فهو ان كلاً من الاعتقاد والهم بالمعصية فعل من الافعال الاختيارية للقلب ، وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً ، قال الله سبحانه :

« إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً »(٢)

وقال سبحانه :

---

(١) أي وأما الدليل على انه يكتب سيئة .

(٢) بنى اسرائيل ، الآية : ٣٨ .

« لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللغوِ في أيمَانكُمْ ولٰكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلوبُكُم » (١)

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنما يحشر الناس على نياتهم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « لكل امرىء ما نوى » والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة ، واطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفاً من الله ، لما يأتي من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة ، وكيف لايؤاخذ على اعمال القلوب مع ان المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع ، مع كونها أفعالاً قلبية ، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها أجنبية كان عاصياً وإن كانت زوجته .

وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله ، فما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال : « قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد ان يعمل سيئة وهو ابصر ، فقال : راقبوه فان عملها فاكتبوها عليه بمثلها ، وان تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلي » . وما روي عن الامام محمد بن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ : « ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة » ، وقوله : « لم يكتب عليه » محمول على صورة عدم

(١) البقرة ، الآية : ٢٢٥ .

العمل خوفاً من الله . لما تقدم من انه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة . وما روي عن الصادق عليه السلام انه قال : « مامن مؤمن إلا وله ذنب يهجره زمانا ثم يلم به وذلك قوله تعالى :

« إِلَّا ٱللَّمَمَ »(١)

وقال : « واللمم : الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه » ، وقد وردت بهذا المضمون اخبار أخر .

وصل

(الخاطر المحمود والتفكر)

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعا وعقلا ، لأن القلب إذا كان مشغولا بشيء لايمكن أن يشغله شيء آخر ، فاذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لاسبيل للخواطر المذمومة اليه ، وربما كان للغفلة التي هي ضدالنية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، إذ عند الغفلة لايتحقق شيء منهما ، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً في غاية الندرة ، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وان كان مشغولا بالوساوس الباطلة ، كما يأتي تحقيقه .

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقا بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها ، وإلا كان راجعا اما الى الذكر القلبي أوالى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته ، أو الى التدبر الاجمالي الكلي فيمايقرب العبد الى الله سبحانه أومايبعده عنه

(١) النجم ، الآية : ٣٢.

تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا .

واذا عرفت ذلك فاعلم : أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذى هو الخاطر المحمود ، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس . وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الافعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الافعال ايضا كما يأتي ذكرها في باب النية، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر.

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة الى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد الى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر الى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية ، فنقول :

التفكر : هو سير الباطن من المبادىء الى المقاصد ، والمبادىء : هي آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد : هو الوصول الى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان الى اوج الكمال الا بهذا السير ، وهو مفتاح الاسرار ومشكاة الانوار، ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار ، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو أجنحة النفس للطيران الى وكرها القدسي ، ومطية الروح للمسافرة الى وطنها الاصلي ، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره وتنجلى أنوار العلم واسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والاخبار كقوله سبحانه :

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ » (١) » .

---

(١) الروم الآية : ٨ .

وقوله تعالى :

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَما خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شيْءٍ »(١)

وقوله تعالى :

« فاعْتَبِرُوا يا أولي الأبصارِ »(٢)

وقوله تعالى :

«قُلْ سيرُوا في الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ»(٣)

وقوله تعالى :

«إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرْضِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ»(٤)

وقوله تعالى :

«وَفي الأرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنينَ . وَفي أنفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ »(٥)

وقوله تعالى :

(١) الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٢) الحشر ، الآية : ٢ .
(٣) العنكبوت ، الآية : ٢٠ .
(٤) آل عمران ، الآية : ١٩٠ .
(٥) الذاريات ، الآية : ٢٠ ـ ٢١ .

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالارضِ » (١).

وقول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « التفكر حياة قلب البصير » وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « فكرة ساعة خير من عبادة سنة » ، ولا ينال منزلة التفكر الا من خصه الله عزوجل بنور التوحيد والمعرفة ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته » (٢) ، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب افعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته ، لا التفكر في ذاته ، لكونه ممنوعا عنه في الاخبار ، ومعللا بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ، وقد ورد : « إياكم والتفكر في الله ، ولكن اذا أردتم ان تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظيم خلقه » . واشتهر عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انه قال : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ، فانكم لن تقدروا قدره » ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « التفكر يدعو الى البر والعمل به » ، وقوله عليه السلام : « نبه بالتفكر قلبك ، وجاف عن الليل جنبك ، واتق الله ربك » ، وقول الباقر عليه السلام : « باجالة الفكر يستدر الرأى المعشب » وقول الصادق عليه السلام : « الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات ، وضياء للقلوب وفسحة للخلق ، واصابة في صلاح المعاد ، واطلاع على العواقب ، واستزادة في العلم ، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها » ، وقول الرضا عليه السلام : « ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر في امر الله عز وجل » .

---

(١) آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٢) روى هذه الاحاديث في الكافي في (باب التفكر) عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ كما هنا .

تكملـــة

(مجاري التفكر في المخلوقات)

الموجودات بأسرها مجارى التفكر ومطارح النظر ، إذ كل مافي الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده ، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادي ، فلكي أو عنصري ، بسيط او مركب ، فعل الله وصنعه ، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته ، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الاعصار لاستنباطها ، انقضت اعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها .

ثم ان الموجودات المخلوقة منقسمة الى مالا يعرف اصله فلا يمكننا التفكر فيه ، والى مايعرف اصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه . وهو الى مالايدرك بحس البصر ويسمى بـ (الملكوت) ، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة ، ولها أجناس وطبقات لايحيط بها إلا موجدها ، والى مايدرك به ، وله أجناس ثلاثة : عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها ، وعالم الارض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها ، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده ، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم الى أنواع ، ويتشعب كل نوع الى أقسام واصناف غير متناهية ، مختلفة في الصفات والهيئات ، واللوازم والآثار والخواص ، والمعاني الظاهرة والباطنة ، وليس شيء منها إلا وموجده هو الله سبحانه ،

وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لاتحصى .

وكل ذلك مجارى التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم ، إذ كلها شواهد عـدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته ، فمن قدم قدم حقيقته ، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد بملكة ربه الودود ، لظهر له في كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة ، بهر منها عقله ووهمه ، وحسر دونها لبه وفهمه .

ثم لاريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجـدها الحكيم ومدبرها العليم ، مبتـدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهي الى أسفل العوالم وأخسها ، وهو عالم الأرض بما فيه ، وكل عالم أسفل لاقدر له بالنسبة الى مافوقه ، فلا قـدر للأرض بالنظر الى عالم الجو ، ولا للجو بالقياس الى عالم السماوات ، ولا للسماوات بالنسبة الى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر الى عالم الملكوت ، ولا للملكوت بالقياس الى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبـة الى مالا سبيل لنا الى دركـه تفصيلا واجمالاً من عوالم الالوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة ، ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدة والعيان .

ثم أخس العوالم الذى عرفت حالـه ـ أعنى الأرض ـ لاقـدر لـما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر الى نفسها ، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ماعليها ، ولـكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غـير متناهية .وأضعف انواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف أنواعه الانسان فنحن نشير الى نبـذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعـة فيها ، وكيفيـة التفكر فيها ، ليقاس عليها البواقي اجمالا . فان بيان مجارى التفكـر

باسرها في حيز المحال ، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين ، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من اجلة العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجاری التفکر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه ، فسطروا فيه الأساطير وملأوا منه الطوامير ، وخاضوا في غمرات بحار الأفكار وغاصوا في تيار لجج الانظار ، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر الى ماهو الواقع إلا صفر اليدين ورجعوا آخر الامر (بخفي حنين) . ونحن لو تعرضنا لشرح مايمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من اعضائها على التفصيل لخرجنا عن وضع الكتاب ، وارتكبنا مايمل الناظرين من الاطناب ، فنشير اجمالا الى بعض مافيها من الحكم والعجائب ، تنبيهاً للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الالهية ، فنقول :

أما (البعوض) ـ فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هوأعظم الحيوانات ، إذخلق له خرطوماً كخرطومه،وخلق له مع صغره جميع الاعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين ، أقسم اعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه ، وشق سمعه وبصره ، ودبر في باطنه اعضاء الغذاء ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب في الحيوانات العظيمة ـ كما يأتى في الانسان ـ ثم هداه الى غذائه الذى هو دم الانسان وغيره من الحيوانات ، فانبت له آلة الطيران الى الانسان ، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وهداه الى الامتصاص من مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطومه ـ مع دقته ـ مجوفاً حتى يجرى فيه الدم الصافي الرقيق وينتهى الى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر أعضائه ، وعرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب ، وخلق له

السمع الذى يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، وإذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه . ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لايحتمل الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرهما عن الغبار والقذى ، أولا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه . وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميها الى اطراف الاهداب . فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة مالو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها .

أما (النحل) ـ فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت ا

« مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ » (١)

واستخرج من لعابها الشمع والعسل ، وجعل أحدهما ضياء والاخر شفاء وانظر في عجائب أمرها في تناولها الازهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والاقذار ، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصاً ، وهو أميرهم . وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف بينهم ، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ماوقع منها على نجاسة . ثم انظر الى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال المسدس ، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو أن أوسع الاشكال وأجودها المستدير ، ثم مايقرب منه ،

(١) النحل ، الاية : ٦٨ .

فان المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مسدير مستطيل ، فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة ، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لايبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وماذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها ، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لايمكن الاحاطة به .

وأما (الانسان) . فنقول : لاريب في أن أول كل انسان قطرة من ماء قذرة ، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها ، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر ، فالقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الانثى وقادهما بسلاسل الشهوة الى الاجتماع ، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الانثى قوة جاذبة ، حتى جذبتها من فم الاحليل الى نفسها ، وامتزجت بمنى الانثى بحيث صارتا واحدة ، واستقرت في الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة في منى الذكر ، ومبدأ انعقادها في منى الانثى ، فهما بالنظر الى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس الى الجبن ، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة ، إلا أن الاولى في الذكورى والثانية فى الانوثى أقوى ، وإلا لم يتحدا شيئاً واحداً ، ولم ينعقد الذكورى حتى يصير جزءاً من الولد . فلو كان مزاج الانثى ذكوريا كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوي ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المنى المنفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيراً من المنفصل عن كليتها اليسرى ، فاذا اجتمعا في الرحم ،

وكان مزاج الرحم قويا في الامساك والجذب ، قام المنفصل من الكلية اليمنى مقام منى الذكر في شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام منى الأنثى في قوة الانعقاد، فيختلق الولد ، وبهذا تتصحح ولادة مريم البتول ـ عليها السلام ـ حيث تمثل لها روح القدس بشراً سويا حسن الصورة ، فمع تحقق ماذكر لها تأيدت به ـ أى بروح القدس ـ وسرى أثراتصالها به الى الطبيعة والبدن وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحانى ، فصارت أقدر على أفعالها بما لاينضبط بالقياس .

ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم ، وشبه بالعجين إذا ألصق بالتنور ، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا ، كالبذر إذا نبت من الأرض ، فصارت نطفة ، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق اليها، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة . ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيها بالدم الجامد ، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة . ثم أظهر فيها رسوم الاعضاء وشكلها وصورها ، فاحسن تصويرها ، فقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة من العظام والاعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم.

ثم ركب الاعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والاعصاب ، فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والانف وسائر المنافذ ، ومد اليد والرجل ، وقسم رؤسها بالاصابع وقسم الاصابع بالأنامل ، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والامعاء وغيرها من الاعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملا معينا وفعلا مخصوصا ، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الاحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس ، منضم في صرة ، كفاه على خديه ، ومرفقاه على حقويه ، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشبه

نائم ، سرته متصلة بسرة امه يمتص منها الغذاء ، ووجهه الى وجهها إن كان انثى والى ظهرها إن كان ذكراً. فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبير منها له وللرحم ، ولا للأب والام ، ولا يرى داخل النطفة او الرحم ولا خارجهما نقاش يصل اليه أثر نقشه ، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها : تصوروني في ظلمة الاحشاء مغموسا بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي ، فينقش النقاش اجفاني وحدقتي ، ويصور المصور خدي وشفتي ، ولا يزال يظهر علي نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا ارى نقاشا ولا مصوراً ، او لاتتعجبون من هذا النقاش الذى لايحتاج الى تماس ومزاولة ولا يفتقر الى آلة ومباشرة ، او لاتنتقلون من عجيب صنعه الى عظيم قدرته وجسيم عظمته ، اوليس لكم اعين بها تبصرون اوقلوب بها تفقهون ، فكيف تنظرون الى تكون اعضائي وعجائبها ولا تعتبرون؟!

فانظر الآن - ياحبيبي - في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء ، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه ، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة، وجعلها قواماً ودعامة للبدن ، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة ، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة ، ولما كان الانسان محتاجاً الى الحركة ، تارة بجملة بدنه ، وتارة ببعض أعضائه ، لم يخلقه من عظم واحد ، بل جعل له عظاماً كثيرة بينها مفاصل ، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة

بها ، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمتاً ، وان جعل فيه المسام والخلل التي لابد منها ، وما يحتاج اليه للحركة ايضا ، زاد في تجويفه ليكون أخف ، وجعل تجويفه في الوسط واحداً لئلا يحتاج في وصول الغذاء اليه الى التجاويف والخلل المتفرقة ، فيصير رخواً ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة ، وماكانت الحاجة فيه الى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج فيه الى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائماً ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة .

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين وألصقها بالآخر ، كالرباط ، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو أراد الانسان أن يحرك جزءاً من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه ، خصوصاً عند الضربة والضغطة ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة فلا تتراض لصلابتها .

ثم انظر - يا اخي - في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فانها خلقت على نوعين : (أحدهما) الشرايين : وهي العروق الضوارب المتحركة ومنبتها القلب . ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لايصال الروح والحياة منه اليها ، ولها حركتان ، انقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب

وانبساطية يجذب بها صافي النسيم اليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني ، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ، فاوجب الحكمة الالهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح ، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية ، لئلا يتحلل شيء منها بتحلل محلها. وواحد من هذه الشرايين ويسمى الشريان الوريدى ، لما كان حاملا لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب فيغوص فيها ويصير شعباً ، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة الى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج الى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة ، وكثرة الصلابة منافية لذلك .

(وثانيهما) العروق الساكنة ، وتسمى الاوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة الى الكبد ومنه الى سائر الأعضاء ، وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشرياني ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الأيمن من القلب ، فكان اللازم زيادة وثاقته لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذى يأتي بغذاء الرية الى القلب ، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدى منه الغذاء ويذهب به الى الرية .

فانظر - يا أخي - الى عجيب حكمة ربك ، فان حامل غذاء الرية مادام نافذاً في القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين ، واذا خلص عنه الى الرية التي لاتتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما أجل شأنه واعظم برهانه .

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبه من عظام مختلفة الاشكال والصور ، والف بعضها الى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله مجمع الحواس ، ولذا جعله مستديراً ، لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس الى ذى الزاوية ، واعظم مساحة منه مع تساوى احاطتهما وجعل استدارته الى طول ، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت ، والف قحفه (١) من ستة اعظم : اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤن ، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذى هو السقف، لان الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل اليافوخ عما لابد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) (٢) وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكثها الى الصداع وغيره من الامراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج الى زيادة وثاقة.

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً ، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها ، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية ، وجعل مقدمه الذي هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة ، لان الحركة لا تحصل إلا بالقوة ، والقوة إنما تحصل بالصلابة . ثم جلل الدماغ بغشاءين: (أحدهما) رقيق لين ملاصق

---

(١) القحف : العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال في القاموس : « ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء » .

(٢) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة ، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الاخرى .

لجوهره ، و (ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه ، وانشعبت منـه شعب دقاق تصعد من دروز القحف الى ظاهره ، ليتشبث بهاهذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئي الدماغ المقـدم والمؤخر حجاباً لطيفا ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة(١) شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد الى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح ، ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج ، ثم يتخلص الى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ ، ولم يناسبا جوهره ، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية ، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها .

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة ، ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم ايصالهما منه اليهما ، ولم يكن ذلك ممكنا بدون واسطة في الايصال ، فخلق (الأعصاب) من جوهره ، ووصلها منه الى سائر الأعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حسا وحركة ، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن ، وأيضا لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة ، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط ، لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الاعصاب التي يحتاج اليها من الدماغ موجبا لثقل الرأس وعظمه ، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع) ، وجعل في أسفل القحف ثقبا وأخرجه منها ، وخصه بالعنق والصلب ،

(١) الموجود في نسختنا الخطية : « فسحة » بدل (نسيجة) .

واخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج اليها الى الاعضاء . فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجاري منه ، والأعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول .

ثم انظر - ياحبيبي - كيف خلق (العين) وفتحها واحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ورتب لهاسبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل امر الابصار ، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع اكنافها وتباعد اقطارها ، وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها ، وجعلها وقاية لهايدفع بها الأقذاء عنها ، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع اليها عند انطباقها ، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى ، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الاسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً ، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل

ثم زين الأجفان بـ (الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الاشياء التي لايمنعها الأجفان مع انفتاح العين - كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالأقذاء - فيفتح العين أدنى فتح ، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه ، فتحصل الرؤية مع دفع القذى .

ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها مايحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذى ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الاصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذى في داخلها ويموجه - كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شيء - حتى يصل الى العصبة المفروشة على الصماخ التى فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت . وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة مايدب

فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها ، وخلق فيها جرماً نتنا عفنا لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها .

ثم تأمل كيف زين الوجه : (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل بـ (اللحية) ووجه المرأة بعدمها ، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة .

وزين الوجه برفع (الأنف) من وسطه ، وحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق الهواء الطيب الصافي ، ويدفع الهواء الحار الدخانى ، ترويحا لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالبا الى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحا ، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها .

ثم انظر الى (الفم) وعجائبه والى اللسان وغرائبه ، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقا معربا عما في القلب ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الاصوات واخراج الحروف المتباينة ، وجعل له قدرة على الحركة فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها . وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فاحكم اصولها ، وحسن لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب، كالدرر المنظومة، مختلفة الاشكال باختلاف الاغراض والمقاصد ، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة الى الكسر وتارة الى القطع واخرى الى الطحن فقسم الاضراس الى عريضة طواحن كالاضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى مايصلح للكسر كالانياب . والاضراس التي في الفك

الا على لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة او اربعة ، والتي في الفك الاسفل اكتفى في اصولها باثنين او ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل لسائر الاسنان أصلا واحداً لعدم ثقل فيها . ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ، وهو ثابت لايتحرك ، فيتم الطحن بذلك . فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية ، لدوران الاعلى منها على الاسفل . والحكمة في تحرك الاسفل دون الاعلى : أن الأعلى يجمع الدماغ والحواس ، فتحركه كان موجباً لاذيتهما واضطرابهما ، وايضاً هو مفصل الرأس والعنق ، فلو تحرك لم يستحكم ، مع أن الوثاقة فيه لازمة ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً الى تحركه فيما تحت الأسنان ، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الأسنان بحسب الحاجة . ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه .

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الاصوات ، وجعلها مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى اختلفت بها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة .

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس ، وركبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان اكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية

كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به .

ثم انظر الى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الاكل ، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ ، ثم هيأ (المرىء) (١) والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى الى المعدة ، وإذا ورد عليها لايصلح لان يصير عظماً ولحماً ودماً على هـــذه الهيئة ، بل لابد أن ينطبخ انطباخاً تاماً تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيـــه الطعام وتنغلق عليه الابواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الاربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب ، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم ، حتى يصير كيلوساً (٢) أي جوهراً سيالا ليشبه ماء الكشك (٣) الثخين .

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لايصال صفو ماطبخ في المعدة الى الكبد قسمين من العروق : (احدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة بالمعاء المسماة بـ (ماساريقا) (٤) ، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها ، و(ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في اجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد ، فاذا انصب خالص الكيلوس في الماساريقا يوصله الى باب الكبد ،

(١) هو الخرطوم المتصل بالاوداج الاربعة الى الحنجرة .

(٢) كلمة يونانية ، المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخاً ناقصاً .

(٣) ماء الكشك : هو ماء الشعير .

(٤) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية .

وينصب منه الى العروق الليفية المتفرقة في جوهر الكبد ، فتستولى قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث يلاقي كله كله ، ولذا يصير فعله فيه اشد واسرع ، فيمتصه ويجذبه الى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة ، حتى ينصبغ بلون الدم ، ومن هذا الطبخ يحصل شيء كالرغوة وهي (الصفراء)، وشيء كالدودى وهو (السوداء) ، وشيء كبياض البيض وهو (البلغم) ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الاول ايضاً ،وقد يصير شيء من هذا البلغم الى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى المتصفى من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية ، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال ، وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً في الكبد ، وجعل عنقي الآخرين داخلا في تجويف الكبد ، ولم يجعل عنقى الكليتين داخلا في تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ،اذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية .

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه الى الكليتين ، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كماً وكيفاً لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية، ويندفع باقيها الى المثانة ،ومنها الى الاحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد، وتقذفها من منفذ آخر لها الى الامعاء ، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الاثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه الى الكبد ، فينضغط حتى تندفع منها الاثقال، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية، وصفرتها لذلك . وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحدب

الكبد منه الرسوب السوداوى ويحيله حتى يكتسب قبضاً وحموضة ، ثم يرسل منه في كل يوم شيئا الى فم المعدة لتتنبه بالجوع ، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج الثقل ايضاً . وأما (الدم) فيتوجه الى الاعضاء ويتوزع عليها في شعب العرق الاجوف العظيم النابت من محدب الكبد ، فيسلك في الاوردة المتشعبة منه في جداول ، ثم في سواقي الجداول ، ثم في رواضع السواقي ، ثم في العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشح من فوهاتها في الاعضاء بتقدير خالق الارض والسماء .

ومما ذكر ظهر انه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة ، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذي يجذبه من الكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الامراض الصفراوية ، ولو حلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائية الى الكلى بعروض آفة لهما حصل مرض الاستسقاء .

وأما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير اليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دماً ، وما بقى منه في الامعاء ولم ينحدر الى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الامعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها ، ومن البلغم مايبقى في البدن لاحتياجه اليه في حركة المفاصل وترطيب الامعاء ، ومنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق أو ينحدر من الرأس الى الفم ويخرج منه بالتنخع .

ثم انظر - ياأخي - في (القلب) وعجائبه ، حيث خلقه جسما صنوبريا وجعله منبعاً لروح الحياة ، ولذا خلقه صلبا ليكون محفوظا من الواردات ، وجعل هذا الروح جرما حاراً لطيفا نورانيا شفافا ، وجعله مطية للنفس وقواها ، واناط به حياة الانسان وبقاءه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو

يفيض عليه من سلطان نوره يكون حيا ، والا كان ميتا ، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته ، ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه الى سائر الاعضاء العالية والسافلة ، بوساطة سفراء الشرايين والاوردة ، فما يصعد منه الى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين، ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ، ثم يفيض على الاعضاء المدركة والمتحركة منبثا في جميع البدن ، يسمى (روحا نفسانيا) . وما ينزل بصحابة أمناء الاوردة الى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق الى سائر الاعضاء ، يسمى (روحا طبيعيا) . وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الامشاج الاربعة ، كما خلق الاعضاء من كثائفها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج ، والقلب الذي محله كالمسرجة له ، والدم الاسود الذي في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له ، والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت ، كما ان السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح ايضا ينطفيء مهما انقطع غذاؤه وكما ان الفتيلة قد تحترق وتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الاسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به ، وكما ان السراج ينطفيء تارة بسبب من داخل ـ كما ذكرنا ـ وتارة بسبب من خارج ، كهبوب ريح او اطفاء انسان ، فكذلك انطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج ، كالقتل ، وكما ان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك انطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان ، وهو أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، وكما أن السراج اذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح اذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته انواره التي كان يستفيدها من الروح ، وهي

أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .

ثم انظر ـ ياحبيبي ـ ان كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما، حيث طولهما لتمتدا الى المقاصد ، وعرّض الكف ووضع عليها الأصابع الخمس ، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل، وجعل الابهام في جانب ، والبواقي في جانب ، ليدور عليها، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الأبهام من الأربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر ، على ان يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه او مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء ، فان بسطتها كانت لك طبقاً تضع عليها ما تريد ، وان جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وان نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وان ضممتها ضما غير تام كانت لك مغرفة ، وان وضعت الأبهام على السبابة كانت لك عرقة ، وان بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك بجرفة وان بسطت الكف وجمعت عليها الأصابع كانت لك محرزة ، الى غير ذلك من المنافع .

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها ، زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها ، حتى لاتنفت ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ،وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق واعجزهم ، ثم هدى (اليد) الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في حالة النوم والغفلة ، من غير حاجه الى فحص وطلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك .

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص ، ليتحرك بهما الانسان الى أي موضع أراد ، ولو

تغير شيء من الشكل اوالوضع او التركيب في جزء من اجزائهما لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله ، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه ، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لايتصور بدون ذلك . فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساساً وحاملاً للأثقل والأغلظ والأكبر ، مع ان كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ عما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته .

ثم خلق جميع ذلك في النطفة جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد اليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج الى مباشرة آلة ولا افتقار الى مكادحة عمل .

تذنيب

ثم تأمل - ايها المتأمل - في عجائب حكم ربك : إنه لما كبر الصبي وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل الى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير ، ولما خرج وكان محتاجا الى الغذاء ولم يحتمل بدنه الاغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم ، خالصاً سائغا ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن ، وانبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه الى التقامها ، وفتح فيها ثقباً ضيقة جداً ، حتى لايخرج اللبن إلا بعد المص تدريجياً ، لأن الطفل

لايطيق منه إلا القليل ، ثم هداه الى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخر خلق الأسنان الى تمام الحولين، لأنه لايحتاج فيهما اليها باللبن ، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل الى بصره او الى غيره من أعضائه فتفسده ، ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن الخفيف وافتقر الى الاغذية الغليظة المحتاجة الى المضغ والطحن أنبت له الاسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزاً عن تدبير نفسه .

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ مابلغ واودع في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها ثواقب الانظار والفهوم . فانظر الى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوي السماء والأرض وتتحرك من المغرب الى المشرق في آن واحد ، والى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة ، وتأخذها من حواق الأشياء ، والى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها : من احاطتها بالبدن كله وتدبيرها له، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الاحاطة على حقائق الأشياء بأسرها ، وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها في الأطوار المختلفة ، وتقلبها في النشآت المتباينة ، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها ، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة الى صيرورتها عالما ربانيا محيطاً بحقائق الاشياء متصلا بالملكوت الاعلى ، ومن اجتماع

عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه(١) ، واطاعة جميع الموجودات له ، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه ، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن ، وعلمه بصناعة الموسيقى ، واستنباطه انواع الصنائع من الارض ، وقد يتعدى الى عالم العجيبة والحرف الغريبة .

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية ، وتأثيره في مواد الأكوان بنزع صورة وإلباس اخرى ، فيؤثر بانقطاعه الى الله في استحالة الهواء الى الغيم ونزول الامطار ، وإزالة انواع الامراض ، واهلاك قوم وانجائهم ، وتمكنه من فعل او تحريك يخرج عن وسع مثله ، وامساكه عن القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد ، واحضاره ما يريده من المطاعم والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم . فانظر ـ يا أخي ـ ان كنت من أهل اليقظة الى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة ، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكا شديد الهمة والبطش مسخراً المربع المسكون ، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله ، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الارض ، وقد يتعدى الى عالم الافلاك ، فينشق القمر ويرد الشمس .

وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً ، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه بمجرد حس وحركة ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب التي عرفتها . وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له مع ان هذا لا يدفع العجب والغرابة لو

(١) تذكير الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الانسان ، وتقدم مثله صفحة(١١) .

نظروا بعين العبرة والبصيرة ، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع، فهما في بلوغ النطفة الى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت ، او دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم ، فلا ريب ايضا في ان دلالة الاول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه ، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، او من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر ، فهذا في امر النطفة أظهر ، وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة الى المراتب المذكورة أشد واحرى من التعجب في احياء ميت او ابراء أكمه او ابرص او تكلم حيوان او نبات اوجماد او غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذي لايقتضى منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يقظان . وبالجملة : الحكم والعجائب المودعة في النشأة الانسانية اكثر من ان تحصى . وإنما اشرنا الى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر ، وتنبيهاً على كيفية التفكر في سائر مجاري الفكر والنظر ، قال الامام أبو عبد الله الصادق (ع) : « إن الصورة الانسانية أكبر حجة لله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده ، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين ، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ ، وهي الشاهد على كل غائب ، وهي الحجة على كل جاحد ، وهي الطريق المستقيم الى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار » .

* * *

وإذ عرفت نبذاً من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الارض التي هي مقرك : بوهادها ، وتلالها ، وسهلها ، وجبالها ، واشجارها ، وانهارها ، وبحارها

وازهارها ، وبرارها ، وعمارها ، ومدنها ، وامصارها ، ومعادنها ، وجمادها، وحيوانها ، ونباتها ، فان كل ما نظرت اليه منها لو تأملته لو جدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد ، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده .

فانظر - أولاً - الى (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الارض واودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية ، واودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس الى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي ، وخلق في الارض معادن يحتاج اليها نوع الانسان ، ولو فقد واحداً منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج اليه أشد واكثر اعم وجوداً واقرب مسافة ، كالملح ومثله .

ثم انظر الى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها في الاشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذي ، وهذا يقوي ، وهذا يقتل ، وهذا يحيى ، وهذا يسخن ، وهذا يبرد ، وهذا يجفف ، وهذا يرطب وهذا يسهر ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح .. . الى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة ، مع اشتراكها في السقي من ماء واحد ، والخروج من أرض واحدة . (فان قلت) : اختلافها لاختلاف بذورها ، (قلنا) : متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؟ وانظر الى كل شجر ونبت اذا انزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائه من الاصول والاغصان والاوراق والاثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا القاسم

العدل في فعل ما ليس له شعور ولا ادراك ؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة الى مالا خبر له بوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته .

ثم انظر الى (انواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم ، كيف هدى الله كل واحد منها الى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل ما لا يتم معاش الانسان بدونه من الانعام والبهائم مأنوساً به غير متوحش عنه، وغيره وحشياً عنه غير آلف به، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول ، فمن ذا الذي يقدر ان يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة ـ بل البقة والنملة ـ وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها الى حوائجها ؟ فاي مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسي ؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب. وبالجملة: كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب مالا يمكن وصفه، وكل أحد انما يدرك قدر مايصل اليه فهمه.

ثم انتقل من عالم الارض الى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الارض ،كما ان سعته أضعاف سعته ، وكل حيوان يوجد في الارض يوجد فيه ، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير في البر اصلاً ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك . ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء وانبات المرجان من صم الصخور تحته، مع كونه على هيئة شجر ثابتة نامية : . . وقس عليه العنبر وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. وبالجملة عجائب البحر اضعاف عجائب البر، وقد صنف

جماعة فيها مجلدات من الكتب ، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير ، ولم يذكروا إلا قليلا من كثير .

ثم انتقل الى (عالم الجو) وعجائبه . من السحب والغيوم والامطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود ، فانظر الى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لايتحرك إلاان يأذن الله سبحانه في إرساله الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء واراد ، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الارض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة لجزء من الارض او قوتاً لحيوان معين ، ولو كنت ـ يا حبيبي ـ ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطاً إلهياً مكتوبا بقلم إلهي : إنه يصيب الجزء الفلاني من الارض ، او رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني .

° ° °

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الاخضر) قائلا : سبحانك ! ماخلقت هذا باطلا . وانظر الى هذه الاجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس واضاءتها عالم الاكوان ، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان ، وسائر الانجم الدائرة ، والكواكب الثابته والسائرة ، واختلاف صورها واشكالها ومقاديرها وأوضاعها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ، وتباين منازلها ومواضعها ، واجتماعها واتصالها ، وتفرقها وانفصالها ، وطلوعها وافولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها واتساق دورانها ، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات : من العقرب والحمل والثور والجدي والانسان والحوت والسرطان ، بل صور

غير الحيوان : من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة في الارض الا ولها تمثال في السماء أيظن عاقل أن وضع هـذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون : ككمودة زحل ، وحمرة المريخ ، وقلب العقرب ، وصفرة عطـارد ، ورصاصية الزهرة والمشترى، بمجرد الاتفاق ، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة فما اشد جهلا وحمقاً من توهم ذلك !

ثم انظر الى حركة (الشمس) بسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير في سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه ، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة ، فلولا سيرها الاول الموجب لغاية قربها الى وسط السماء مدة ، وغاية بعدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغايتين مرتين ، لم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشوء النباتات والثمار ونضجها وبلوغها الى غاياتها المطلوبة ، ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، ولم تعرف المواقيت من الشهور والاعوام والساعات والايام . وتأمل في انه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية ، لم يتم شيء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلي .

ثم انظر الى عظم اقدار هذه الاجرام السماوية ، حتى لاقدر لجميع العوالم السفلية من الارض والبحار وعالم الجو بالنسبة اليها ، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة اليها ، بل بالنسبة الى فلك الشمس فقط - مثلا - كنسبة قطرة الى البحر المحيط ، وقد قال المهندسون : إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الارض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك ، ومع ذلك بينوا ان ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك الشمس ، مع

مافيه من افلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الاربعة ، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الارض ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي الى قريب من مائة وعشرين مثلا للارض .

ثم انظر مع هذا العظم الى سرعـــة حركتها وخفتها ، فان شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها ، إلا انك لاتشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه في غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الارض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والاقل قدراً أن يكون مثلها ثماني مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الارض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الامين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، اذا قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « هل زالت الشمس ؟ » قال : لا . نعم ! فقال له : كيف تقـــول لا . نعم ! » فقال : من حيث قلت : لا ، الى أن قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام .

فتيقظ ـ يا اخي ـ من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذى حرك هذه الاجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة ، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصغرها ، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها ، فقل : (بسم الله مجريها ومرسيها) ، ولو نظرت اليها بعين البصيرة ، لعلمت انها عباد طائعون خاضعون ، وعشاق الهيون والهون ، وبأشارة من ربهم الى يوم القيامة رقاصون دائرون .

وبالجملة : لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لاتجد ذرة من ملكوت السماوات والارض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها ، ولو

كان لك قلب والقيت السمع وأنت شهيد ،لعلمت ان جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الاعلى ، وما من ذرة الا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة ، قائلة لاصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها ، ومنادية لارباب القلوب بنغماتها : أو ما تنظرون الى خلقي وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي في اطواري وتقلباتي ؟أو لا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي ؟أتظنون اني تكونت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي ؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتجزمون أنها صنعة آدمي مريد عالم ومتكلم قادر، ثم تنظرون الى عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ، ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون ؟!

(تتميم)

قد دريت اجمالا أن التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب افعاله ، والتفكر في ما يقرب العبد الى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه . وغير ذلك من الافكار ليس نافعا ولا متعلقاً بالدين . مثال ذلك أن حال السائر الى الله الطالب للقائه ،كحال العاشق المستهتر،فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وافعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه اليه ليتصف بها ، أوالتي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها ، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان يحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه أويبعده عنه ،ولو تفكر في غير ذلك كان كاذباً فيما يدعيه من الشوق والحب

ثم التفكر في ذات الله ، بل في بعض صفاته مما لايجوز ، وقــد منعته الشريعة الحقة الالهية والحكمة المتعالية الحقيقية، لان ذاته أجل من أن تكون مرقى لاقدام الافهام ، أو مرمى لسهام الاوهام ، فطرح النظر اليه يورث اختلاط الذهن والحيرة ، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو اطاقوا اليه مد البصر فانما هو كالبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه . وحال الصديقين في ذلك كحال الانسان في النظر الى الشمس ، فانه وان قدر على مد البصر اليها ، إلا ان ادامته يورث الضعف والعمش ، بل لامشابهة بين الحالين ، وانما هو مجرد تقريب وتفهيم ، فان المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة ، وما من نور الا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فكل نور في مرتبة نوره زائل ، وكل ظهور ف جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل .

ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموماً ، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه ـ وقد تقدم ـ وفي ما يقرب العبد الى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية ، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة . وهذه الملكات والافعال هي المعبر عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غــيره من كتب الاخلاق ، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحــد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ، فان وجد قلبه مستقيما على جادة العدالة متصفاً بجميع الفضائل الخلقية ومجتنبا عن الرذائل الباطنه ، ووجد أعضاءه

ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها، فليشكر الله على عظيم توفيقه ، وإن وجد في قلبه شيئاً من الرذائل أو رآه خالياً عن بعض الفضائل ، فليبادر الى العلاج بالقوانين المقررة ، بعد التفكر في سوء خاتمته واداثه الى مقت الله وهلاكه ، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة .

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته ، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة ، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة : من البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحقد ، والحسد . والجبن ، وشدة الغضب والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه، والنفاق ، وسوء الظن ،والغفلة ، والغرور ... وغيرذلك . وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ، ويتفقد منها هذه الصفات ، فان وجدها بظنه خالية عنها ، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فان النفس قد تلبس الأمر على صاحبها : فان ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء او حزمة حطب في السوق ، فان ادعت البراءة من الغضب فليجرب بايقاعها في معرض اهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه . ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئاً منها في قلبه . فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد او بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة، أوملازمة اولى الاخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى، او بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك . فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة

فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده .

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية : كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والشجاعة والسخاء ، والزهد والورع ، والاخلاص في العمل ، وستر العيوب ، والندم على الذنوب ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله والخشوع له ... وغير ذلك ،فان وجد قلبه متصفاً بالجميع فليجربه بالمعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس ـ كما علمت طريقه ـ وإن وجد قلبه خالياً من شيء منها فليتفكر في طريق تحصيله ـ كما أشير اليه ـ . ثم يتوجه الى كل واحد من اعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به ، مثل ان ينظر في لسانه ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة ، او الكذب ، او الفحش ، او فضول الكلام ، او النميمة ، او الثناء على النفس ، او غير ذلك . ثم ينظر في سمعه ، ويتفكر في انه هل سمع شيئاً من ذلك . ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام او شبهة ، او كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك . . . وهكذا يفعل في كل عضو عضو .

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فان وجد ـ بعد التفكر ـ عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها ، واتيانها بالطاعات المفروضة عليها باسرها وبالنوافل المرغبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وان عثر على صدور شيء من المعاصي او ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر اولا في الأسباب الباعثة على ذلك ، من الاشتغال بفضول الدنيا او مصاحبة اقران السوء او غير ذلك ، فليبادر الى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم ،

لئلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل ديّن معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديدناً لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم او عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤوس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة او الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة ، ويدعون الفكر فيها ، ثم يقبلون على البواقي ، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ، ومن كان اقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة من اكل الحرام ، والشبهة ، واطلاق اللسان ، والكذب ، والغيبة والمزاء ، والنميمة ، والمداهنة مع الخلق بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر .

وبالجملة : كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لاينفكون عن هذا النوع من التفكر ، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب، فاف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقدوة ، وخضنا في غمرات الغفلة ، ولعمري انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب ، كيف واعمالنا لاتشابه اعمال من يؤمن بالجنة والنار . فان من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعى الشوق الى الجنة ونعلم ان الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها .

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين ، واما تفكر الصديقين فاجل من ذلك ، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والانس ، منقطعون بشراشرهم الى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به ، بحيث فنى عن نفسه ونسي صفاته واحواله ، فحالهم ابداً كحال

العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظن أن هذا التفكر ـ بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله ـ يمكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فان حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذي خلى بمحبوبته ، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى ، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس . ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه ولا ريب ان الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له ادنى معرفة وتوجه الى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها، يجد انه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج ، ثم ان لدغ هذه الصفات لايظهر ظهوراً بيناً للمنهمكين في علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد الم لدغها بحيث يزيد على الم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى .

(نصيحة)

تيقظ ـ يا حبيبي ـ من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل ان تنشب مخالب الموت في جسدك ، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في صفاتك واحوالك ، واعلم على سبيل القطع واليقين ان كل مافي نفسك من فضيلة او رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة او معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولو كنت ذا قلب لكفاك ايقاظاً وتنبيهاً ، حيث قال : « ان روح القدس نفث في روعى : احب ما احببت فانك مفارقه ، وعش ماشئت فانك ميت ، واعمل ماشئت فانك مجزى به » . ولعمرى انك ان كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظاً وحائلا بينك وبين الالتفات الى الدنيا واهلها . وبالجملة : ينبغى للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن الفكر

في صفاته وافعاله ، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكر وبرهة اخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتاداً له ، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية ، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول الى ما خلقنا لأجله .

(ومنها) ـ اي ومن رذائل القوة العاقلة ـ استنباط وجوده .

المكر والحيل

للوصول الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة . واعلم ان المكر ، والحيلة ، والخدعة ، والنكر ، والدهاء : الفاظ مترادفة ، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة ، وارباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة ، ولذا جعلوها ضداً للذكاء وسرعة الفهم ، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور اذا كانت موجبة لاصابة مكروه الى الغير من حيث لايعلم ، وربما فسر بذلك في اللغة ايضا ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

ولتركبه من اصابة المكروه الى الغير ومن التلبيس عليه ، يكون ضده استنباط الامور المؤدية الى الخيرية ، والنصيحة لكل مسلم ، واستواء العلانية للسريرية .

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وامثالها، اما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها. اوبتخصيص الأولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها ، ولذا عدت الاولى من رذائل القوة الوهمية او العاقلة للعذر المذكور ، والثانية من رذائل الشهوية ، وربما كان استعمالهما على الترادف ، واطلق كل منهما على ماتطلق عليه الأخرى .

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لاتحصى من حيث الظهور والخفاء ، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له ادنى شعور ، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء . ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل ، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه ، والباعث لظهور الامانة والديانة وتسليم الناس اموالهم ونفائسهم اليه على سبيل الوديعة او المشاركة اوالمعاملة ، ثم أخذها وسرقها على نحوآخر من وجوه المكر ،وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس اياه اماماً او اميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع .

ثم المكر من المهلكات العظيمة ، لأنه اظهر صفات الشيطان ، والمتصف به أعظم جنوده ، ومعصيته اشد من معصية اصابة المكروه الى الغير في العلانية، اذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ،فربمادفع اذيته ، واما الغافل فليس في مقام الاحتياط ، لظنه ان هذا المكار المحيل محب وناصح له ، فيصل اليه ضره وكيده في لباس الصداقة والمحبة . فمن احضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً اهلاكه فهو اخبث نفساً واشد معصية عن شهر سيفه علانية مريداً قتله، اذ الثاني اظهر ماني باطنه واعلم هذا الغير بارادته ، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتمرض لصرف شره ومنع ضره ، فربما تمكن من دفعه ، واما الأول فظاهره في مقام الاحسان وباطنـــه في مقام الايذاء والعدوان ، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه ، فيقطع بأنه يحسن اليه ، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط ، بل في مقام المحبة والوداد ، فيقتله وهو يعلم انه يحسن اليه ، ويهلكه وهوفي مقام التجل منه .

وبالجملة : هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية ، ولذلك قال

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس منا من ماكر مسلماً » . وقال امير المؤمنين (ع) : « لو لا ان المكر والخديعة في النار لكنت امكر الناس » ، وكان (ع) كثيراً مايتنفس الصعداء ويقول : « وا ويلاه يمكرون بي ويعلمون اني بمكرهم عالم واعرف منهم بوجوه المكر ، ولكني اعلم ان المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا » .

وطريق علاجه - بعد اليقظة - ان يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته ، وفي تأديته الى النار ومجاورة الشياطين والاشرار ، ويتذكر ان وبال كل مكر وحيلة يرجع في الدنيا الى صاحبه ، كما نطقت به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة والاعتبار . ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده ، اعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في افعاله واقواله - كما يأتي في محله - وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقاً على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب ، وينبغي ان يقدم التروي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة ، واذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه ، واذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه اصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقام الثاني

(فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

التهور والجبن والشجاعـــة ـ الخوف ـ الخوف المذموم واقسامه ـ الخوف المحمود واقسامه ودرجاته ـ بم يتحقق الخوف ـ الخوف من الله أفضل الفضائل ـ الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً ـ طرق تحصيل الخوف الممدوح ـ خوف سوء الخاتمة وأسبابه ـ الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله ـ التلازم بين الخوف والرجاء ـ مواقع الخوف والرجاء وترجيح احدهما على الأخر ـ العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف ـ مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم ـ صغر النفس وكبرها وصلابتها ـ الثبات ـ دناءة الهمة وعلوها ـ الغيرة والحمية وعدمهما ـ الغيرة على الدين والحريم والأولاد ـ العجلة ـ الاناة والتوقف والوقار والسكينة ـ سوء الظن ـ حسن الظن ـ الغضب ـ الافراط والتفريط والاعتدال في قوته ـ ذم الغضب ـ امكان ازالة الغضب وطرق علاجه ـ فضيلة الحلم وكظم الغيظ ـ الانتقام والعفو ـ العنف والرفق ـ فضيلة الرفق ـ المداراة ـ سوء الخلق بالمعنى الاخص ـ طرق اكتساب حسن الخلق ـ الحقد ـ العداوة الظاهرة ـ الضرب والفحش واللعن والطعن ـ العجب ـ ذمه ـ آفاته ـ علاجه اجمالا وتفصيلا ـ انكسار النفس ـ الكبر ـ ذمه ـ التكبر على الله والناس ـ درجات الكبر ـ علاجه علما وعملا ـ التواضع ـ الذلة ـ الافتخار ـ البغي ـ تزكية النفس ـ العصبية ـ كتمان الحق ـ الانصاف والاستقامة على الحق ـ القساوة .

فنقول : أما جنسا رذائلها (١) « فأحدهما » :

التهور

كما علم ، وهو من طرف الافراط : أي الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في مايمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف . ولا ريب في انه من المهلكات في الدنيا والآخرة . ويدل على ذمه كل ماورد في وجوب محافظة النفس وفي المنع عن القائها في المهالك ، كقوله تعالى :

« وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ » (٢)

وغير ذلك من الآيات والأخبار . والحق ان من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال من شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من القى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة ، أو وقع (٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن القى نفسه فيما يظن به العطب ، فهلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية .

وعلاجه ـ بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة ـ ان يقدم التروى في كل فعل يريد الخوض فيه، فان جوزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه ، والا تركه ولم يقدم عليه . وربما احتاج في معالجته ان يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع في طرف التفريط ، واذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة .

---

(١) أي القوة الغضبية .　　(٢) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

(٣) كذا في النسختين ، ولعل الصحيح (أو اوقع نفسه) .

« وثانيهما » :

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة الى الانتقام أو غيره ، مع كونها اولى . والغضب افراط في تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر . وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة ، ويلزمه من الاعراض الذميمة ، مهانة النفس ، والذلة ، وسوء العيش ، وطمع الناس فيما يملكه ، وقلة ثباته في الامور ، والكسل ، وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه ، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله ، واستماع القبائح من الشتم والقذف ، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار ، وتعطيل مقاصدة ومهماته ، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ماورد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لاينبغي للمؤمن ان يكون بخيلا ولاجباناً » ، وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ . « اللهم اني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، واعوذ بك ان ارد الى أرذل العمر » .

وعلاجه ـ بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها ـ ان يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن ، فان القوة الغضبية موجودة في كل أحد ، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، واذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد ، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر ، وقد نقل عن الحكماء انهم يلقون انفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة . ومما ينفع من المعالجات ان يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله ، تحريكا لقوة الغضب ، واذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الافراط .

وصل

(الشجاعة)

قد عرفت ان ضد هذين الجنسين هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها وشرافتها ، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها ، حتى يصير ماتكلفته طبعاً وملكة ، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية . وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها . ولا ريب في أنها اشرف الملكات النفسية وافضل الصفات الكمالية ، والفاقد لها بريء عن الفحلية والرجولية ، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال ، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله

« أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ » (١)

وامر الله نبيه بها بقوله :

« وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٢)

اذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والاخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها . قال أمير المؤمنين (ع) في وصف المؤمن : « نفسه أصلب من الصلد » . وقال الصادق عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل اذ الجبل يستقل (٣) منه والمؤمن لا يستقل من دينه » .

° ° °

(١) الفتح ، الآية ٢٩ .

(٢) التوبة ، الآية ٧٣ .

(٣) استقل الشيء : أخذ منه أدنى جزء كعشره .

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمنها :

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع ، فلوعلم اوظن حصوله سمى توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه اشد من الخوف ، وكلامنا في كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدهما ظاهر ، فان الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلا من الحركة الى الانتقام او شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف ، مثلا من لايجترىء على الدخول في السفينة او النوم في البيت وحده اوالتعرض لدفع من يظلمه ويتعرض لهيمكن اتصافه بالسكون المذكور مععدم تألم بالفعل ، فمثله جبان وليس بخائف . ومن كان له ملكة الحركة الىالانتقام وغيره منالافعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره ، كما اذا أمر السلطان بقتله ، فمثله خائف وليس بجبان .

ثم الخوف على نوعين : (احدهما) مذموم بجميع أقسامه ، وهو الذي لميكن من الله ولامن صفاته المقتضية للهيبة والرعب ، ولا من معاصي العبد وجناياته ، بل يكون لغير ذلك من الامور التي يأتى تفصيلها . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ، ومن نتائج الجبن . و (ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، اذ العاقلة تأمر به وتحسنه ، فهو حاصل من انقيادها لها . ولنفصل القول في اقسام النوعين ، وبيان العلاج في ازالة اقسام الاول وتحصيل الثاني :

فصل

(الخوف المذموم واقسامه)

للنوع الاول أقسام يقبحها العقل باسرها ولا يجوزها ، فلا ينبغي للعاقل ان يتطرقها الى نفسه . بيان ذلك : ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام

(الاول) ان يكون امراً ضرورياً لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر . ولا ريب في ان الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية . والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل .

(الثاني) ان يكون أمراً ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولا وقوعه . ولا ريب في ان الجزم بوقوع مثله والتألم لاجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم ابقاؤه على امكانه من دون جزم بحصوله ، فـ :

« لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمراً » (١)

وهذا القسم مع مشاركته للاول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

(الثالث) ان يكون امراً ممكناً فاعله هذا الشخص ، وهو ناشيء عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولايقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته، فانه اما فعل غير قبيح من شأنه التأدي الى ما يضره ، ولا ريب في ان

(١) الطلاق ، الآية : ١ .

ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعد ايقاعه فيكون من الثاني، أوفعل قبيح لوظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذة ، وانمافعله ظناً منه أنه لا يظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة ، ولا ريب في ان هذا الظن ناشيء عن الجهل ، اذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر، واذا ظهر يمكن ايجابه للفضيحة والمؤاخذة . والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع ، ولوحكم عليه بما يقتضي ذاته أمن من الخوفين.

(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع ، بلا داع عقلي ولا باعث نفس امري ، كالميت والجن وامثالهما ، (لا) سيما في الليل مع وحدته ، ولاريب في ان هذا ناشيء عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة ، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم . وربما ينفع الزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها ، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج .

ثم لما كان خوف الموت أشد اقسام هذا النوع واعمها ، فلنشر الى علاجه بخصوصه ، فنقول : باعث خوف الموت يحتمل اموراً :

(الاول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت . ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل ، اذ الموت ليس الا قطع علاقة النفس عن بدنه ، وهي باقية ابداً ،كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ،ولعل ماتقدم يكفي لاثبات هذا المطلوب .ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له ادنى بصيرة إن يجتمع عظماء نوع الانسان بحذافيرهم ،كأهل الوحي والالهام واساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل ! فمن تأمل ادنى تأمل يتخلص من هذا الخوف.

(الثاني) تصور ايجابه ألماً جسمانياً عظيما لايتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه . وهذا ايضاً من الخيالات الفاسدة ، فان الالم فرع الحياة ، والالم الجسماني مادامت الحياة لايكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الاوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لامعنى لوجوده ، إذ كل جسماني ادراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لا ادراك ، فلا ألم .

(الثالث) تصور عروض نقصان لاجله . وهو ايضاً غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، اذ من علم حقيقتهما يعلم ان الموت متمم الانسانية وآثارها والمائت جزء لحد الانسان . ولذا قال أوائل الحكماء : (الانسان حي ناطق مائت) ، وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه ، فبالموت تحصل التمامية دون النقصان « نشنيده اى كه هركه بمرد او تمام شد » (١) فالانسان الكامل يشتاق الى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله ، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الاشرار الى عالم الانوار ومرافقة الاخيار من العقول القادسه والنفوس الطاهرة ، واى عاقل لايرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية ، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب !

فياحبيبي ! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك الى النصيحة : حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك الى عالمك الحقيقي ومقرك الاصلي ، وانسلخ عن القشورات الهيولانية ، وانفض عن روحك القدسي مالزقه من الكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور ، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر

(١) هذه الجملة من الكلمات الحكمية القصار ، ومعناها : (أما سمعت بأن كل من مات صار انساناً كاملا) .

بجناح همتك الى وكرك القدسي النوراني، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان الى أوج العزة والعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لاثبات له ولا وفاء ؟!

زد سحر طائر قدسم ز سر سدره صفير كه درا این دا امکه حادثه آرام مگیر (١)

(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والاموال والمناصب والاحباب ومعلوم أن هذا ليس خوفا من الموت في نفسه ، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية . وعلاجه : أن يتذكر أن الامور الفانية مما لا يليق بالعاقل ان يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن اليها مع علمه بأنه عن قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الالم .

(الخامس) تصور سرور الاعداء وشماتتهم بموته . وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم ، إذ مسرة الاعداء او شماتتهم لا توجب ضرراً في

---

(١) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) وهو من أبيات العرفان . وأراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها ، و (بالطائر القدسي) مايرمز اليه العرفاء المسمى عندهم ايضا (البيضاني) ، وهو أحد العقول المجردة الذى بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات ، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات ، و (بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات .

وحاصل معنى البيت المطابقى : قد صفر الطائر القدسى المنسوب الى من على السدرة في السحر ، ويقول في صفيره : لا تستقر في المصيدة المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات) ، والمراد أن يذهب عنها الى عالم المجردات النوراني حراً طليقاً .

إيمانه ودينه ، ولا ألماً في روحه وجسمه ، على أن ذلك لايختص بالموت ، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة ايضاً من البلايا والمحن فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد

(السادس) تصور تضييع الاولاد والعيال[١] وهلاك الاعوان والانصار وهذا أيضا من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته ، ومدخليته في قوته وثروته ، وذلك ناشىء من جهله بالله وبقضائه وقدره ، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم الى مايليق بها وابلاغها الى ما خلقت لأجله ، وليس لأحد أن يغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم اصلا ، وتشاهد غير واحد من الاغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة وتخرج عن ايديهم في مدة قليلة ، وترى كثيراً من أيتام الاطفال لا تربية لهم ولامال ، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدارج الكمال ، أو يحصلون مالا حصر له من الاموال . والغالب أن الايتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبي تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا اكثر من الاولاد الذين نشأوا في حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذى قوة يفوض اليه امورهم ، اعتراهم بعده الفقر والفاقه والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سببا لهلاكهم وانقراضهم . ومن فوض امورهم الى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة. فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا امور الاولاد وغيرهم من الأقارب والانصار الى من خلقهم ورباهم ، ويوكلهم الى موجدهم ومولاهم ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن الخوف من الموت لاجل البواعث المذكورة لاوجه له .

ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة ، كما تقرر في

الحكمة . وهو من الكائنات . والفساد ضروري له . فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له ، فتمني دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقل لايحوم حولها ولا يتمني مثلها . بل يعلم يقيناً أن مايوجد في النظام الكلي هو الاصلح الاكمل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الاعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلا عن غيرها ، فلايلتذ بالاكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولايخلو لحظة عن مرض وألم ، وتتراجع جميع احواله ، فتتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما اشير اليه في الكتاب الالهي بقوله تعالى:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)(١).

ومع ذلك لايخلو كل يوم من مفارقة حبيب أوشفيق ، ومهاجرة قريب أو رفيق . وربما ابتلى بأنواع المصيبات ، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات ، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات . وان كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلاريب في أن تحصيل الكمالات بعد اوان الشيخوخة في غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية الى ان ادركه الشيب ، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره ، فانى يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها ، إذ رفع مارسخ في النفس مع الشيخوخة التي لايقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن . ولذا ورد في الآثار : « ان الرجل إذا بلغ اربعين سنة ولم يرجع الى الخير ، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال : بأبي وجه من لايفلح ابدا » . على ان

(١) يس ، الآية : ٦٨ .

الطالب للسعادة ينبغي ان يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها ، ومن جملتها دفع طول الامل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ، ويكون سعيه ابداً في تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل الى الحياة واللذات الباقية ، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الالهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي الى اوج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الارادي الموجب للحياة الطبيعية، كما قال (معلم الاشراق) : «مت بالارادة تحيى بالطبيعة » ، فينقل الى مقعد صدق هو مستقر الصديقين ، ويصل الى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيره ، ولا يركن الى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الاشقياء والفجار ومسكن الشياطين والاشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية اصلا ، وينطق بلسان الحال :

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم
راحت جان طلبم وزپى جانان بروم
بهواى لب او ذره صفت رقص كنان
تالب چشمهٔ خورشيد درخشان بروم (١)

(السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الاعمال وقبائح الافعال . ولا ريب في ان الخوف من ذلك ممدوح ، وهو

---

(١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي) . ومعنى الاول: «إن سروري يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلباً لراحة نفسي ولقاء الحبيب » . ويقصد بحبيبه : الحق الاول ، وبراحة نفسه : النعيم الابدي ، وبالرحيل عن الدار الخربة : انتقال نفسه من بدنه بالموت .

ومعنى البيت الثاني: « اني لشوقي الى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكي اصل الى لقاء عين الشمس المتوهجة» . ويقصد بعين الشمس : خالق الكائنات .

معدود من اقسام النوع الثاني ، إلا ان البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، إذ هذا الخوف ناشيء من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل واوصياءهم لاستخلاص الناس عنه . فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الاخلاق . ومعلوم ان المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر او النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب في ان إزالة هذا الخوف باختياره ، فليترك المعاصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام اكابر الدين من الانبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم ، فهو في الحقيقة ناشيء منك ومن سوء اختيارك ، فبادر الى تقليله بالمواظبة على صوالح الاعمال وفضائل الافعال . وقد يأتي ان هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفرطاً فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بد ان يكون حتى يبعثه عليه ، على انه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي ان ييأس من روح الله ، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر .

فصل

(الخوف المحمود واقسامه ودرجاته)

وللنوع الثاني من الخوف اقسام : (الاول) ان يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف ارباب القلوب . (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي . (الثالث) ان يكون منهما جميعا . وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب

نفسه وجناياته ، ازداد الخوف ، إذ ادراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة ، يوجب الاضطراب والدهشة ، ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس مايطيقه ويستعد له . وانى لأحد من اولى المدارك ان يحيط بصفاته على ماهي عليه ، فان المدارك عن إدراك غير المتناهى قاصرة. نعم ، لبعض المدارك العالية ان يدركه على الاجمال . مع ان مايظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تتأدى اليه عقولهم ويتصور كمالا ، ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول واعلى المدارك ، لاحترق من سبحات وجهه ، وتفرقت اجزاؤه من نور ربه . ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب فغاية ماللمدارك العاليه من العقول والنفوس القادسة ، ان يتصور عدم تناهيها في الشدة والقوة ، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الامر ، كما هو الشأن في ذاته سبحانه .وادراك هذه الغاية ايضا يختلف باختلاف علو المدارك ، فمن كان فى الدرك اقوى واقدم كان بربه اعرف ، ومن كان به اعرف كان منه اخوف ، ولذا قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (١)

وقال سيد الرسل : « انا اخوفكم من الله » . وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الاولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا امير المؤمنين عليه السلام .

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف ، إذ كمال المعرفة

(١) الفاطر ، الاية : ٢٨ .

يوجب احتراق القلب ، فيفيض أثر الحرقة من القلب الى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء ، والى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط في جنب الله ، ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف ، ولذا قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك مايخاف ان يعاقب عليه . وقال بعض الحكماء : « من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه » ، وقال بعض العرفاء : « لايكون العبد خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى مخافة طول السقام » . والى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه اذا عرف كونه مسموماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات، ويصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالانفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات ، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لامتسع فيه لغيره، كماأن من وقع في مخالب ضاري السبع يكون مشغول الهم به ولاشغل له بغيره . وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحذوهم من السلف الصالحين

فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذى هو حرقة القلب وتألمه ، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وافعاله ، وبعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال .

واقل درجات الخوف مما يظهر اثره في الاعمال ان يكف عن المحظورات ويسمى الكف منها (ورعاً) ، فان زادت قوته كف عن الشبهات ، ويسمي

ذلك (تقوى) إذ التقوى ان يترك مايريبه الى مالا يريبه ، وقد يحمله على ترك مالا بأس به مخافة مابه بأس ، وهو الصدق في التقوى ، فاذا انضم اليه التجرد للخدمة ، وصار ممن لايبني مالا يسكنه ، ولا يجمع مالا يأ كله ، ولا يلتفت الى دنيا يعلم انه يفارقها ، ولا يصرف الى غير الله نفساً عن انفاسه ، فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقاً) ، فيدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، لانها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات .

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والاقدام .

فصل

(بم يتحقق الخوف)

إعلم ان الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما ان يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، او مكروهاً لافضائه الى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية الى المكروه لذاته في الآخرة ، ولابد لكل خائف ان يتمثل في نفسه مكروه من احد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة :

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فاما ان يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته ، اوعذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته ، او من الموقف بين يدى الله وهيبته والحياء من كشف سريرته ، او من الحساب ودقته والصراط وحدته ، او من النار واهوالها والجحيم واغلالها ، او الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله الى الملك

المقيم ، أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين ، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته مايقتضي الهيبة والخوف ، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق ، والمطلعين على سر قوله :

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ »(١) ، وقوله : « اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » (٢) .

وقيل : ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين .

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو نقضها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، أو الى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب الى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، أو من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره ، أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم ، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله مالم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية ، أو من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل ، وتوجهه الى غيره وهو اليه ناظر ، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة ، أو بما سبق له في الازل من السابقة . وهذه كلها مخاوف العارفين. ولكل واحد منها خصوص فائدة ، هو الحذر عما يفضي الى الخوف ،

---

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ . (٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها . ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا في بقية الاقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة ، وهو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الامر فيه مخطر ـ كما يأتي ـ وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لان الخاتمة فرع السابقة ، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الانصاري :« الناس يخافون من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الاول » . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، واليه أشار النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في المنبر ، حيث رفع يده اليمنى قابضاً على كفه ، ثم قال : « أتدرون أيها الناس ما في كفي ؟ » ، قالوا :الله ورسوله أعلم ، قال: « أسماء أهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » . ثم رفع يده اليسرى وقال : « أيها الناس ! أتدرون ما في كفي؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » . ثم قال : « حكم الله وعدل ، حكم الله :

« فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (١) .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يسلك بالسعيد في طريق الاشقياء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم بل هو منهم ، ثم تتداركه السعادة . وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم يتداركه الشقاء . إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة » (٢) .

(١) الشورى ، الآية : ٧ . (٢) هذا الحديث مروى في اصول الكافي في (باب السعادة والشقاوة) عن ابي عبد الله الصادق ـعليه السلام ـ

فصل

(الخوف من الله أفضل الفضائل)

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول اليها إلا بتحصيل محبته والانس به ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ماتنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف ـ كما مر ـ .

وقيل : من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وبلغ مقام الرضا ، وصار مشاهداً لجمال الحق : لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالامن ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

« أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (١)

إذ لا يبقى له التفات الى المستقبل ، ولا كراهية من مكروه ، ولا رغبة الى محبوب ، فلا يبقى له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى منهما . نعم ، لايخلو عن الخشية ـ أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته ـ وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضاً ، لانه من لوازم التكثر ،

---

(١) الانعام الآية : ٨٢ .

وقد زال . ولذا قيل : « الخوف حجاب بين الله وبين العبد » . وقيل ايضاً : « إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء » . وقيل أيضاً : « المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات » .

وأنت خبير بأن هذه الاقوال مما لا التفات لنا اليها ، فلنرجع الى ما كنا بصدده من بيان فضيلة الخوف ، فنقول : الآيات والاخبار الدالة عليه اكثر من أن تحصى ، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، فقال :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١) . وقال : « هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » (٢) . وقال : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » (٣) .

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان ، كقوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » (٤)

وقوله : « وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٥)

ومدح الخائفين بالتذكر في قوله :

---

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (٢) الاعراف ، الآية : ١٥٤ .

(٣) البينة ، الآية : ٨ .

(٤) الانفال ، الآية : ٢ .

(٥) آل عمران ، الآية : ١٧٥ .

« سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ » (١)

ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » (٢) . وقوله : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » (٣) .

وفي الخبر القدسي : « وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له امنين ، فاذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، واذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « رأس الحكمة مخافة الله » ، وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء » (٤) ، وقال لابن مسعود : « إن أردت أن تلقاني فاكثر من الخوف بعدي » ، وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أتمكم عقلا أشدكم الله خوفا » .

وعن ليث بن أبي سليم قال : « سمعت رجلا من الانصار يقول : بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء ، يكوى ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة ، ويقول : يانفس ذوقي ، فما عند الله أعظم مما صنعت بك . ورسول الله ينظر اليه مايصنع . ثم ان الرجل لبس ثيابه ، ثم اقبل ، فأومى اليه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بيده ودعاه ، فقال له : يا عبد الله ! رأيتك صنعت شيئاً

(١) الاعلى ، الآية : ١٠ . (٢) النازعات ، الآية : ٤٠ ـ ٤١

(٣) الرحمن ، الآية : ٤٦ .

(٤) روى الحديث في أصول الكافي في باب الخوف والرجاء عن الصادق (ع)

ما رأيت أحداً من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت ؟ فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله اعظم مما صنعت بك . فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : لقد خفت ربك حق مخافته ، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء ، ثم قال لاصحابه : يامعشر من حضر ! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم . فدنوا منه ، فدعا لهم ، وقال اللهم اجمع امرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا ، والجنة مآبنا » .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة ، وان كانت مثل رأس الذباب ، من خشية الله ، ثم يصيب شيئاً من حر وجهه ، إلا حرمه الله على النار » ، وقال : « اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها » ،وقال : « لايلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع» .وقال سيد الساجدين (ع) في بعض ادعيته :« سبحانك ! عجباً لمن عرفك كيف لايخافك ». وقال الباقر عليه السلام : « صلى امير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق ، فلما انصرف وعظهم ،فبكى وابكاهم من خوف الله ، ثم قال : أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : وانهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً بين اعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين اقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » ، وفي رواية اخرى : « وكان زفير النار في آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر ، كأنما القوم باتوا غافلين » ، ثم قال عليه السلام : « فما رئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض » . وقال الصادق عليه السلام : « من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا » ، وقال عليه السلام : «ان من العبادة

شدة الخوف من الله تعالى يقول : «انما يخشى الله من عباده العلماء». وقال : « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ » (١) . قال : « وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً » (٢) .

وقال : « إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب» وقال عليه السلام : « المؤمن بين مخافتين : ذنب قدمضى ما يدري ماصنع الله فيه ، وعمر قدبقي لايدرى مايكتسب فيه من المهالك ، فهولايصبح الا خائفاً ولايصلحه الاالخوف »،وقال (ع) : « خف الله كأنك تراه ، وان كنت لاتراه فانه يراك ، وان كنت ترى أنه لا يراك ، فقد كفرت ، وان كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك » ،وقال(ع) « لايكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولايكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » ، وقال (ع) : « مماحفظ من خطب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال : أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ألاان المؤمن يعمل بين مخافتين بين أجل قدمضى لايدري ماالله صانع فيه وبين اجل قدبقي لايدرى ماالله قاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار الا الجنة أو النار » .

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف ، لان جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب او تعلق

(١) المائدة ، الآية : ٤٤ . (٢) الطلاق ، الآية : ٢ .

المسبب، اذ العلم سبب الخوف ، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه ـ كما ظهر مما سبق ـ والبكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلازمه ويصاحبه اذ كل من رجا محبوباً فلا بد ان يخاف فوته ، اذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وان جاز غلبة احدهما على الآخر ، اذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك ، لان المعلوم لا يرجى ولا يخاف ، فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهوالرجاء ، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان . نعم ، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ، ويسمى ذلك ظناً ، ومقابله وهماً ، فاذا ظن وجود المحبوب قوي الرجاء وضعف الخوف بالاضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه .

« وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً » (١) . وقال : « يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوفاً وَطَمَعاً » (٢) .

وقد ظهر ان ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ماورد في ذم الامن من مكر الله يدل على فضيلته ، لانه ضده، وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه . ومما يدل على فضيلته ماثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والانبياء وأئمة الهـــدى ـ عليهم السلام ـ كخوف جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وحملة العرش ،وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين .وكخوف نبينا ، وابراهيم، وموسى ، وعيسى ، وداود ، ويحيى . . . وغيرهم . وخوف أمير المؤمنين وسيدالساجدين وسائر الائمة الطاهرين ـ عليهم السلام ـ وحكاية

(١) الانبياء ، الآية : ٩٠ .

(٢) السجدة ، الآية : ١٦ .

خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة ، فليرجع اليها من أراد ، ومن الله العصمة والسداد .

فصل

(الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً)

اعلم ان الخوف ممدوح الى حد ، فان جاوزه كان مذموماً . وبيان ذلك : ان الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب اليه تعالى ولذة المحبة والأنس به ، وكما ان السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي ، له حد في الاعتدال . لو قصر عنه لم يكن نافعاً في السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه في المقدار او الكيفية او المبالغة في الضرب كان مذموماً لأدائه الى اهلاك الدابة والصبي ، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط ، وهو ما يوصل الى المطلوب ، فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى ، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية ، فلا يسوقها الى المقصد . ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء ، وبمجرد انقطاعه يرجعن الى حالهن الاولى ، او مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل ، واذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة. فهذا خوف قاصر قليل الجدوى . فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفاً . ولو كان مفرطاً ربما جاوز الى القنوط وهو ضلال :

(وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ) (١)

---

(١) الحجر ، الآية : ٥٦ .

او الى اليأس وهو كفر :

لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إلاّ القَوْمُ الكافِرُونَ (١)

ولا ريب في ان الخوف المجاوز الى اليأس والقنوط يمنع من العمل ، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل ، وايجابهما كسالة الاعضاء المانعة من العمل . ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقاً ، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه ، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً ، لما مر من ان الخوف هو ما كان مشكوكا فيه ، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالا بالاضافة الى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه الى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الاسباب الموصلة الى قرب الله وأنسه ، ولو لم يؤد اليها كان في نفسه نقصاً لا كمالا ، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز ان يوصف الله تعالى به ، كالعلم والقدرة وامثالهما ، وما لايجوز وصفه به ليس كمالا في ذاته ، وربما صار محموداً بالاضافة الى غيره وبالنظر الى بعض فوائده ، فما لا يفضى الى فوائده المقصودة منه لافراطه فهو مذموم ، وربما أوجب الموت او المرض او فساد العقل ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي او يهلك الدابة او يمرضها او يكسر عضواً من أعضائها . وانما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى اليأس اوالى أحد الامور المذكورة . فالخوف المحمود مايفضى الى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل ، فان تجاوز الى إزالة شي منها فهو مرض يجب علاجه ، وكان بعض مشائخ العرفاء يقول للمرتاضين من

(١) يوسف ، الآية : ٨٧ .

مريديه الملازمين للجوع أياماً كثيرة : احفظوا عقولكم ، فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل ، وما قيل : « إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً، معناه ان موته بالخوف افضل من موته في هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة اليه فضيلة، لا بالنظر الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف اذ للمترق في درجات المعارف والطاعات له في كل لحظة ثواب شهيد اوشهداء فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل ، فكل ما يبطل العمر او العقل والصحة فهو خسران ونقصان .

فصل

(طرق تحصيل الخوف الممدوح)

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق :

(الأول) ان يجتهد في تحصيل اليقين . أي قوة الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والعقاب . ولا ريب في كونه مهيجاً للخوف من النار والرجاء للجنة . ثم الخوف والرجاء يؤديان الى الصبر على المكاره والمشاق ، وهو الى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوى دوام الذكر على الانس ، ودوام الفكر على كمال المعرفة ، ويؤدى الانس وكمال المعرفة الى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطنا ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فاليقين هو سبب الخوف ، فيجب تحصيل

السبب ليؤدي الى المسبب .

(الثاني) ملازمة التفكر في أحوال القيامة ، واصناف العذاب في الآخرة واستماع المواعظ المنذرة ، والنظر الى الخائفين ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم . وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى ، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد أصل الايمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وانما يضعف للغفلة او ضعف الايمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر . واما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال ، وهو خوف أرباب القلوب ، العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف والهيبة ، المطلعين على سر قوله :

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (١) . وقوله : اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (٢) .

فالعلاج في تحصيله الارتقاء الى ذروة المعرفة ، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الاخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله ، كالانبياء والاولياء وزمرة العرفاء ، فانه لا يخلو عن تأثير .

(الثالث) ان يتأمل في ان الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال ، وان الاحاطة بكنه الامور ليس فى مقدرة البشر ، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف . ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم ان الحكم على أمر من الامور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس ، فضلا

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

عن القطع والتحقيق ، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه ، وان كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة . والى الله بشراشرها ملتفتة، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه ، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ، وانه أشد تقلباً من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب :

«إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ» (١)

فانى للناس ان يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر ، ولذا قال بعض العرفاء : « لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب » (٢) .

فصل

(خوف سوء الخاتمة وأسبابه)

قد أشير الى ان أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة ، وله أسباب مختلفة ترجع الى ثلاثة :

(الاول) وهو الاعظم ، وهو ان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، إما الجحود او الشك ، فتقبض الروح في تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود او الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضي البعد الدائم ، والحرمان اللازم ، وخسران الأبد ، والعذاب المخلد .

ثم هذا الجحود او الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية ، كالتوحيد

---

(١) المعارج ، الآية : ٢٨ .

(٢) نقل هذه الكلمة في أحياء العلوم (ج٤ ص١٤٩) عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه ايضاً .

وعلمه تعالى او غير ذلك من صفاته الكمالية ، او بضروريات أمر الآخرة والنبوة . وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة . او يتعلق بجميعها إما إصالة او سراية ، والمراد بالسراية ان الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه ومعقوله ، او بالتقليد ، فاذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته او الشك فيها ، وان كانت صحيحة مطابقة للواقع ، إذ لم يكن عنده اولاً فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة، فاذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي . كما نقل ان (الفخر الرازي) بكى يوماً ، فسألوه عن سبب بكائه ، قال : « اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه، فما ادراني ان لا تكون سائر عقائدي كذلك» وبالجملة : إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل ان ينيب ويعود الى أصل الايمان ، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك ، أعاذنا الله منه ، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله :

« وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » (١) .

ومن قوله : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (٢) .

(١) الزمر ، الآية : ٤٧ .

(٢) الكهف ، الآية : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

والبله: اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً مجملاً راسخاً، بمعزل عن هذا الخطر، ولذلك ورد : ان أكثر أهل الجنة البله . وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام، والأخذ بظواهر الشرع، مع اعتقاد كونه تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال والسر في ذلك : ان البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالتشكيك، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت .

واما الخائضون في غمرات البحث والنظر ، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة، فليس لهم تثبت على عقائدهم، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الاصولية على ما هي عليه قاصرة، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة. وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة. فاذهانهم دائماً محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله، فيحصل لهم فيها طمأنينة، ثم يعرض لهم شك يرفعها او يضعفها، فهم دائماً في غمرات الحيرة والاضطراب . فاذا كان حالهم هذا فاخذتهم سكرات الموت، فاي استبعاد في ان يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم . ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج يرميه موج الى موج، والغالب في مثله الهلاك، وان اتفق نادراً ان يرميه موج الى الساحل : وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) ـ وهو من أعاظم المتكلمين ـ انه قال : « اني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة ، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى، لم يظهر لي منها شيء سوى ان لهذا المصنوع صانعاً، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقيناً مني » . فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحي ، مع تطهير الباطن عن خبائث الاخلاق ، والاشتغال

بالطاعات وصوالح الاعمال ، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف ، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة، واشرق نور الحكمة في قلبه . وشمله خفى الالطاف من ربه ، فله الخوض في غمرات العلوم . واما غيره فينبغي ان يأخذ منه اصول عقائده الواردة من الشرع ، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات انفاسه، فان العاجز عن المجاهدة فى صف القتال ينبغي ان يسقي القوم ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وان كان فاقداً لدرجتهم .

(الثاني) ضعف الايمان في الاصل ، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا في القلب ، واستولى عليه بحيث لايبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر في مخالفة النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويسود ، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يطفيء مافيه من نور الايمان حتى ينطفيء بالكلية ، فاذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً ، وربما عدم بالمرة ، لما يستشعر من فراقه محبوبه الغالب على قلبه وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت ، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى ان موته من الله ، كما ان من يحب ولده حباً ضعيفاً ، إذا أخذ مالاً له هو أحب اليه منه وأتلفه ، انقلب حبه بغضاً . فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء . نعوذ بالله من ذلك .

وقد ظهر ان السبب المفضي الى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر ، وان أحب الدنيا أيضاً ، ومن وجد في قلبه عكس

ذلك فهو قريب من هذا الخطر . والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به ، إذ لايحب الله إلا من عرفه ، والى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير في الكتاب الالهى بقوله :

« قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأبْناؤُكُمْ وإخوانُكُمْ وأزواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وأموالٌ اقتَرَفتُمُوها وتِجارَةٌ تَخْشَونَ كَسادَها ومساكِنُ تَرْضَونَها أحَبَّ اليكُمْ مِنَ اللهِ وَرسولِهِ وَجِهادٍ فى سَبيلِهِ فَتربَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ »(١)

فمن فارقته روحه فى حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوماً على ما ابغضه وفراقاً لما احبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً ، ولا يخفى مايستحق مثله من الخزى والنكال واما الذى يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه ، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور .

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات ، وإن قوى الايمان . وبيان ذلك : ان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة ، وجميع ما الفه الانسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته ، فان كان اكثر ميله الى الطاعات كان اكثر مايحضره عند الموت طاعة الله ، وإن كان اكثر ميله الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عنده، وان كان اكثر

(١) التوبة ، الآية : ٢٤ .

شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وامثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك ، وهكذا الحال فى جميع الاشغال والاعمال الغالبة في عمره ، فانها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيحتقد بها قلبه ، ويصير محجوباً عن الله تعالى . وهو المراد بالختم على السوء . فالذى غلبت عليه المعاصي والشهوات ، وكان قلبه اميل اليها منه الى الطاعة ، فهذا الخطر قريب في حقه ، ولا يميل اليها اصلا ، فهو بعيد منه جداً . ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادراً ، فلعل الراجح في حقه النجاة منه ، وإن امكن حصوله . ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطار الى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه .

والسر في ذلك : ان الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما ان الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره والفها ، حتى انه لايرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى ان المراهق الذى يحتلم لايرى صورة الوقاع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية ، لكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه ، فيقتضى ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب ، فربما يكون غلبة الالف سبباً لان تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وان كان اصل الايمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله . وكما ان مايخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لايعلمه بحقيقته احد إلا الله ، فكذلك مايرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له اسباب عند الله لانعرف بعضها ، وربما نتمكن من معرفة بعضه ، فانا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء الى ماينا سبه ، إما بالمشابهة

بأن ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وإما بالمضادة ، بأن ينظر الى جميل فيتذكر قبيحاً ، وإما بالمقارنة ، بأن ينظر الى فرس قدرآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان ، وقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ، ولا يدرى وجه المناسبة له ، وربما ينتقل الى شيء لايعرف سببه أصلا . وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها اسباب لانعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال الى المعاصى والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره فى فطام نفسه عنها ، وفي قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه الى الله وحبه وانسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، إذ المرء يموت على ماعاش عليه ، ويحشر على مامات عليه ، كما ورد في الخبر (١).

وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره ، حيث يظهر منه عند ذلك ، وانما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كلياً ، وان كان لطول الالف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا إذا أراد الانسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والائمة ـ عليهم السلام ـ وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له ، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه . وبالجملة : اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة مايظهر في النوم لما غلب في

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر ، وجاء ذكرهذا الخبر مرسلا في (الحقائق) ـ ص ٨٨ طبع ايران ـ للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له .

اليقظة . وبذلك يعلم أن اعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وان السلامة مع اضطراب امواج الخواطر مشكلة ولذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة ، فيختم له بما سبق به الكتاب » ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . ومن هنا قيل (١) : « إني لا أعجب عن هلك ، كيف هلك ، ولكني اعجب عن نجا كيف نجا » ، وورد (٢) : « أن الملائكة اذا صعدت بروح المؤمن ، وقد مات على الخير والاسلام ، تعجبت الملائكة منه ، وقالوا : كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا » . ولذلك قيل (٣) : من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة ، وامواج الخواطر أعظم التطاماً من امواج البحر ، ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : « الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » (٤) .

(١) القائل هو (مطرف بن عبدالله) كما في احياء العلوم : ج ٤ ص ١٥٥

(٢) يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث . وفي احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٥ ـ كلام ينقله عن (حامد اللفاف) .

(٣) القائل هو (الغزالي) في احياء العلوم ، في الصفحة المتقدمة .

(٤) جاء نص هذا الكلام في اثناء كلام (الغزالي) في احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٦ ـ وكأنه من كلام نفسه . إلا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠ ، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مرسلا . وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب الى الصادق ـ عليه السلام ـ في الباب ـ

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروهاً ، اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب .

واما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق في القلب غير حب الله ، وخرج حب الدنيا والمال والولد ، فان من هجم على صف القتال بامر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه ، بائعاً دنياه بآخرته ، راضياً بالبيع الذي بايعه الله به في قوله :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ » (١) .

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التى حقيقتها مافسر ، لايفيد الاطمئنان من هذا الخطر ، وإن كان ظلماً ، وإن كان في الجهاد ، إذا لم تكن هجرته فيه الى الله ورسوله ، بل الى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها .

وقد ظهر بما ذكر : ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع الى احوال القلب ، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء ، بل أمره الى الله ، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ، ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة :

« فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا » ، « وخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا »(٢)

ومن زهق روحه على خاطر خير وهو أن يكون قلبه في حالة الموت

ـ٧٧ مايقرب من هذ النص. فماذا نظن أراد المؤلف بقوله: (سرقوله) ، هل أراد الغزالي ياترى ؟

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .　(٢) النساء ، الآية : ١١٦ ، ١١٩ .

متوجهاً الى الله ممتلياً من حبه وانسه « فقد فاز فوزاً عظيماً » . وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية ، واخراج حب الدنيا عنها رأساً ، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها ، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالكلية ، وتخلية السر عما سوى الله ، والانقطاع بشراشره اليه ، واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه ، حتى يصير حبه سبحانه والانس به ملكة راسخة ، ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لايمكن القطع بذلك ،كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لاتجد في قلبك حبا لله وأنسا به وتوجها اليه ، بل لايخطر ببالك أن لك ربا متصفا بالصفات الكمالية ، بل ترى ماكنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فان زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الامور الدنيويه ، ولم يكن متوجها الى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجا بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة أبداً ، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى .

فتيقظ - ياحبيبي - من سنة الغفلة ، وتنبه عن سكر الطبيعة ، واخرج حب الدنيا عن قلبك ، وتوجه بشراشرك الى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولاتطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام مايقيم صلبك ولاتكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك ، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الابصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الامطار ، فان جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك ، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك

في جميع الاوقات ، وإياك أن تهمله لحظة من اللحظات ، واحفظه من ان يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب الى الله والانس به غاية همك ، إذ العاقل انما يميل ويشتاق الى ماهو الاشرف والأكمل ، ويسر ويرتاح بماله احسن وانفع ، ولا ريب في ان اشرف الموجودات واكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي ، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، وله غاية مايتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال ، وإن معرفته وحبه احسن الاشياء وانفعها لكل احد ، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمية ، فلاينبغي للعاقل ان يترك ذلك اشتغالا بفضول الــدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها ان يترك حبلها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها ، ويتوجه بكليته الى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وانسه .

فصل

(الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله)

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة ، ولا ريب في كونه فضيلة وكمالا ، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذرعنه صفة كمال ، ونقيضه نقص ورذيلة.

وأما الخوف الممدوح ، فضده الأمن من مكر الله ، وهو من المهلكات ، وقد ورد به الذم في الآيات والاخبار ، قال الله سبحانه :

« فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إلاَّ القَوْمُ الخاسِرُونَ » (١)

وقد ثبت بالتواتر : أن الملائكة والانبياء كانوا خائفين من مكره ، كما

---

(١) الاعراف ، الآية : ٩٩ .

روي : « انـه لما ظهر على ابليس ماظهر ، طفق جبرئيل وميـكائيل يبكيان ، فأوحى الله اليهما: مالكما تبكيان ؟ فقالا : يارب ! لانأمن مكرك . فقال الله هكذا كونا ، لاتأمنا مكري ». وروي : « أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى، فأوحى الله اليهما : لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ » وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحاناً ، حتى أن سكن خوفهما (١) ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما ، كما ان ابراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة ، فامتحن وعورض بجبرئيل عليه السلام في الهواء حتى قال : ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا . وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فاخبر الله تعالى عنه وقال :

« وَابْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ » (٢)

وبالجملة : ينبغي للمؤمن الا يأمن من مكر ربه ، كما لم يأمن منه الملائكة والانبياء ، واذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً .

تتميم

(التلازم بين الخوف والرجاء)

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب ، وهو يلازم الخوف ، إذ الخوف ـ كما عرفت ـ عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول ، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً ، وما كان حصوله مكروها كان عدم حصوله محبوبا ، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصولـه ايضا ، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمـه الرجاء عدما ، وعنه عـدما يلزمـه الرجاء

(١) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان ، يعني : انهما يخشيان إذا سكن خوفهما ان يظهر انهما قد امنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحانا لهما

(٢) النجم ، الآية : ٣٧ .

وجوداً . وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وان أمكن غلبة أحدهما نظراً الى كثرة حصول اسبابه . وان تيقن الحصول او عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاء ، بل سمي انتظار مكروه او انتظار محبوب .

ثم كما ان الخوف من متعلقات قوة الغضب ، وان الممدوح منه من فضائلها ، لكونه مقتضى العقل والشرع ، وباعثاً للعمل من حيث الرهبة ، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها ، لكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة. إلا ان الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون أقرب الى طرف التفريط ، والرجاء لترتبه على قوته يكون أقرب الى طرف الافراط ، وان كان كلاهما ممدوحين .·ثم لابد ان يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره ، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيداً في أرض طيبة يصلها الماء . واما انتظار مالم يحصل شيء من اسبابه فيسمى غروراً وحماقة، كتوقع من القى بذراً في ارض سبخة لا يصلها الماء ؛ وانتظار ما كان اسبابه مشكوكة يسمى تمنياً ، كما اذا صلحت الارض ولا ماء .

وتفصيل ذلك : ان الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالارض ، والايمان كالبذر ، والطاعات هي الماء الذي تسقى به الارض ، وتطهير القلب من المعاصي والاخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الارض من الشوك والاحجار والنباتات الخبيثة، ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغي ان يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية) ، وكما ان من الق البذر في ارض طيبة،وساق اليها الماء في وقته ، ونقاها الشوك والاحجار ، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً ان يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً ، سمى انتظاره رجاء ممدوحا ، فكذلك العبد اذا طهر ارض قلبه عن شوك الاخلاق الردية وبث فيه بذر الايمان بماء

الطاعات ، ثم انتظر من فضل الله تثبيته الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه . وكما ان من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، او ألقى البذر في ارض سبخة مرتفعة لا ينصب اليها ماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر واصلاح الارض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظراً الى ان ينبت له زرع يحصده ، سمي انتظاره حمقاً وغروراً . كذلك من لم يلق بذر الايمان في أرض قلبه ، او ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الاخلاق منهمكاً في خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق اليها ماء الطاعات ، ثم انتظر المغفرة ، كان انتظاره حمقاً وغروراً. وكما ان من بث البذر في ارض طيبة لا ماء لها ، وجلس ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ، وان لم يمتنع ايضاً ، سمي انتظاره تمنياً . كذلك من ألقى بذر الايمان في ارض قلبه ، ولكنه لم يسق اليه ماء الطاعات ، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله ، كان انتظاره تمنياً .

فاذن ، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالاحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته ، إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما ، وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد . فاحذر ان يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل . وانظر الى حال الانبياء والاولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلاً ونهاراً ، اما كان يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله ! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد ، ولكن علموا ان رجاء الرحمة من دون العمل

غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم .

ونحن نشير (أولا) الى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والاخبار ، ثم نورد نبذاً مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم ان اطلاق الاول محمول على الثاني . فنقول : الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من ان تحصى ، وهي على أقسام :

(الاول) ما ورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى :

« يا عِبادِيَ الَّذِينَ أسرفُوا عَلىٰ أنفُسِهِمْ لاٰ تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ » (١) ؛

وقول علي (ع) لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه : « أيا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » . وما روى : « انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم . فهبط جبرئيل (ع) فقال : ان ربك يقول : لم تقنط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » . وما ورد : « ان رجلاً من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها » .

(الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة ، كما ورد في اخبار يعقوب من « انه تعالى أوحى اليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك :

وَأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذِّئبُ وَأنتُمْ عَنهُ غافِلُونَ » (٢) .

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ . (٢) يوسف ، الآية : ١٣ .

لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي؟» وقول أمير المؤمنين(ع) لرجل قال عند النزع : أجدني اخاف ذنوبي وارجو رحمة ربي : « ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه عما يخاف » (١) ، وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك اذ رأيت المنكر ان تنكره ؟ فان لقنه الله حجته ، قال : رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله : قد غفرته لك » . وماروي عنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان ، فيقول الله لجبرئيل : اذهب فأتني بعبدي ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت مكانك؟ فيقول : شر مكان ، فيقول : رده الى مكانه . قال : فيمشي ويلتفت الى ورائه ، فيقول الله عز وجل : الى أى شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت إلا تعيدني اليها بعد اذ اخرجتني منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به الى الجنة». وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على اعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فانهم لو اجتهدوا واتعبوا انفسهم اعمارهم في عبادتي ، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي ، فيما يطلبون عندي من كرامتي ، والنعيم فى جناتي ، ورفيع الدرجات العلى فى جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا ، والى حسن الظن بي فليطمئنوا ، وفضلي فليرجوا (٢) ، فان رحمتي عند ذلك تدركهم ، ومني يبلغهم رضواني ، ومغفرتي تلبسهم عفوي ، فاني انا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت » . وعن ابي جعفر (ع) قال :

(١) روى (احياء العلوم : ج٤ ص١٢٥) هـذا الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ .

(٢) فى الكافى فى(باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا، فقد جاء فيه : « وفضلى فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا » .

« وجدنا في كتاب علي (ع) ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لان الله كريم بيده الخيرات يستحيي (١) ان يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه ، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه » .

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والانبياء للمؤمنين كقوله تعالى :

« وَالملائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ في الأَرْضِ (٢) .

وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، اما حياتي فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع ، واما موتي فان أعمالكم تعرض علي ، فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم » .

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب الى ان يستغفر ، كقول الباقر ـ عليه السلام : « ان العبد اذا اذنب أجل من غدوة الى الليل ، فان استغفر لم يكتب عليه » (٣) . وقول الصادق (ع) : « من عمل سيئة أجل فيها

---

(١) في الكافي في (باب حسن الظن) : (يستحي) .

(٢) الشورى ، الآية : ٥ .

(٣) روى الكافي في (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق ـ عليه السلام ـ .

سبع ساعات من النهار ، فان قال : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم واتوب اليه ثلاث مرات ، لم تكتب عليه » .

(الخامس) ما ورد في شفاعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كقوله تعالى :

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » (١) .

وقد ورد في تفسيره انه لا يرضى محمد وواحد من امته في النار ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، وكذا ما ورد في شفاعة الائمة والمؤمنين .

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار ، ومن أن حب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب ، وان فعلوا ما فعلوا .

(السابع) ما دل على ان النار انما اعدها الله لاعدائه من الكافرين ، وانما يخوف بها أولياءه ، كقوله تعالى .

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ » (٢) ، وقوله : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » (٣) وقوله : لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ » (٤) .

---

(١) الضحى ، الآية : ٥ .

(٢) الزمر ، الآية : ١٦ .

(٣) آل عمران ، الآية : ١٣١ .

(٤) الليل ، الآية : ١٥ ـ ١٦ .

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته ، كقوله :

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » (١)

وما روى في تفسير قوله تعالى :

يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٢)

« ان الله أوحى الى نبيه : اني اجعل حساب أمتك اليك ، فقال : لا يارب ! أنت خير لهم مني (٣) ، فقال اذن لا أخزيك فيهم » وما روى : » انه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال يوماً : ياكريم العفو ! فقال جبرئيل : أتدري ماتفسير ياكريم العفو ؟ هو : انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه » (٤) . وما ورد : ان العبد اذا أذنب فاستغفر ، يقول الله للملائكته : انظروا الى عبدي أذنب ذنباً ، فعلم انه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم اني قد غفرت له . وما ورد في الخبر القدسي : انما خلقت الخلق ليربحوا علي ، ولم أخلقهم لأربح عليهم » . وما ورد من « انه لو لم يذنبوا ، لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم - : « والذى نفسي بيده . الله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » وما ورد من « انه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب احد حتى ان ابليس يتطاول لها رجاء ان تصيبه » . والآيات والاخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر .

(١) الرعد ، الآية ٦ .

(٢) التحريم ، الآية ٨ .

(٣) في (احياء العلوم : ج٤ ص١٢٨) هكذا : « انت ارحم بهم مني » ، وكذا بدل لا اخزيك : « لا نخزيك » .

(٤) في (احياء العلوم : ص١٢٩ من ج٤) هكذا : « هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه » .

(التاسع) ما دل على ان ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والامراض كفارة لذنوبه ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الحمى من فيح جهنم، وهي حظ المؤمن من النار » .

(العاشر) ـ ما ورد في ان الايمان لا يضر معه عمل ، كما ان الكفر لا ينفع معه عمل ، وفي انه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لاجل مثقال ذرة من الايمان او عمل جزئي من الاعمال الصالحة .

(الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ . « لايموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله» وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يقول الله تعالى : انا عند ظن عبدى بي فليظن بي ما شاء » . وقول الرضا (ع) : « احسن الظن بالله ، فان الله عز وجل يقول : انا عند ظن عبدي لي ، ان خيراً فخير وان شراً فشر » . وقول الصادق (ع) : « حسن الظن بالله : ألا ترجو إلا الله ، ولا تخاف الا ذنبك » وقد تقدم بعض اخبار اخر في هذا المعنى . ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له بما لا ريب فيه .

(الثاني عشر) ما دل على ان الكفار او النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين او الشيعة ، كما روى انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « امتي امة مرحومة لاعذاب عليها في الآخرة ، وعجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن ، فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من امتي رجل من اهل الكتاب ، فقيل هذا فداؤك من النار » . وعن اهل البيت ـ عليهم السلام ـ : « ان النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم اياهم ووقيعتهم فيهم » . وعن الصادق (ع) : « سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في اعماله ، بعد ان صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة واكثر من ذلك الى مائة الف من النصاب ، فيقال

له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الى الجنة وأولئك النصاب الى النار ، وذلك ماقال الله تعالى :

« رُبَّما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمينَ » (١)

في الدنيا منقادين للامامة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم » .

وأما (الثاني) ـ اعني مايدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل ـ فأكثر من أن يحصى ، كقوله تعالى :

« إنَّ الَّذين آمَنُوا والَّذين هاجَرُوا وَجاهَدُوا في سَبيلِ اللهِ أُولئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ » (٢) . وقوله : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الادْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا » (٣) .

وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » . وماروي عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجوا فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال : « هؤلاء قوم يترجحون في الاماني كذبوا ليسوا براجين ، « إن » (٤) من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه » وعن علي بن محمد ، قال : قلت له عليه السلام : إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجوا ، فقال : « كذبوا ، ليسوا لنا بموال

(١) الحجر ، الآية : ٢ . (٢) البقرة ، الآية : ٢١٨ .

(٣) الاعراف ، الآية : ١٦٩ .

(٤) روى الحديث في الكافي (باب الرجاء) وليس فيه كلمة « إن » .

أولئك قوم ترجحت بهم الاماني . من رجا شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه » . وعنه قال: « لايكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفا راجيا ، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » .

فصل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان ، لكونهما باعثين على العمل ، ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منهما إنما هو بحسب مايترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض .

وهذا يختلف باختلاف الاشخاص : فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل اكثر من تأثير الرجاء فيه ، فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن كان بالعكس فبالعكس ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به ، فالخوف له اصلح . ومن غلب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء له اصلح . ومن انهمك في المعاصي ، فالخوف له اصلح . ومن ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه ، فالاصلح له ان يعتدل خوفه ورجاؤه .

والوجه في ذلك : ان كل مايراد به المقصود ، ففضله إنما يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه ، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات ، فالاصلح اعتدالهما ، كما قال امير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده : « يابني ! خف الله خوفا ترى انك إن اتيته بحسنات اهل الارض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء كأنك لو اتيته بسيئات اهل الارض غفرها لك » . وقال الباقر عليه السلام : « ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من اثنى عليهم ، فقال : يدعون ربهم خوفا وطمعا

وقال : يدعوننا رغبا ورهبا » . وعن الحارث بن المغيرة قال : قلت للصادق عليه السلام : ماكان في وصية لقمان ؟ قال : « كان فيها الاعاجيب ، وكان اعجب ماكان فيها انقال لابنه : خف الله عزوجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاء لوجئته بذنوب الثقلين لرحمك » ، ثم قال عليه السلام : « كان ابي عليه السلام يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران ، نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا » .

وقال عليه السلام : « الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً واليه راجياً ، وهما جناحا الايمان ، يطير العبد المحقق بهما الى رضوان الله ، وعينا عقله ، يبصر بهما الى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله وناهي وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس ... ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لايضل ، ويصل الى مأموله ، وكيف لايخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً ، ولا قدرة له على شيء ولا مفر ، وكيف لايرجو وهو يعرف نفسه بالعجز ، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه من حيث لاتحصى ولا تعد ، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة احواله بعين سهر (١) ، والزاهد يعبد على الخوف » (٢).

---

(١) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار ، ولم نعثر على استعمال (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة .

(٢) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأى صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقتنا وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من اسلوب كلام الامام ـ عليه السلام ـ .

وقد ظهر مما ذكر : ان الرجاء اصلح وافضل في موضعين : (احدهما) في حق من تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات ، ومثله ينبغي ان يرجي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العبادة.(وثانيهما) في حق العاصى المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ، ويقول له : كيف تقبل التوبة من مثلك ؟ فعند هذا يجب عليه ان يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ماورد فيه ، كقوله تعالى :

« لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » (١) وقوله: « وَإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ » (٢).

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لابدونها ، إذ لو توقع المغفرة مع الاصرار كان مغروراً . والرجاء الاول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل

(العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف ، لان اقرب العباد احبهم اليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك عير الله اقواماً يظنون السوء بالله ، قال :

« وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أرْداكُم » (٣).

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .　(٢) طه ، الآية : ٨٢ .

(٣) فصلت ، الآية : ٢٣ .

وقال :

« وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً » (١)

وورد في الرجاء وحسن الظن ماورد ـ كما تقدم ـ وفي الخبر : « ان الله تعالى اوحى الى داود : احبني واحب من يحبني وحببني الى خلقي ، فقال : يارب ! كيف احببك الى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آلائي واحساني ، وذكرهم ذلك ، فانهم لايعرفون مني إلا الجميل » . ورأى بعض الاكابر في النوم ـ وكان يكثر ذكر ابواب الرجاء ـ فقال : « اوقفني الله بين يديه ، فقال : ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت : اردت ان احببك الى خلقك . فقال : قد غفرت لك » .

هذا مع ان الرجاء افضل من الخوف للعبد بالنظر الى مطلعهما ، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله مايقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التي تقتضى الغضب فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء . نعم ، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب ، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان ، فالأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم الى اليأس وقطع العمل ، بل يحثهم على العمل ، ويكدر شهواتهم ، ويزعج قلوبهم عن الركون الى دار الغرور ، ويدعوهم الى التجافي عن عالم الزور ، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لاريب في أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية : من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في اكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوى في بواطنهم كامنة ، وأهوال سكرات الموت واضطراب

(١) الفتح ، الآية : ١٢ .

الاعتقاد عنده ممكنة ، ومناقشات الحساب ورداءعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة ، فمن عرف حقائق هذه الامور ، فان كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه ، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه . وأما أن يغلب رجاؤه فلا ، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما في غالب الناس ، بل الأصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الاشراف على الموت ، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته وهو لايطيق هنا أسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فيقوي قلبه ويحبب اليه ربه الذى اليه رجاؤه .

وينبغي ان لايفارق أحد الدنيا إلا محباً لله ، ليكون محباً للقائه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه ، وعلم انه تعالى ايضاً يحب لقاءه ، اشتاق اليه تعالى ، وكان فرحاناً بالقدوم عليه ، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدعذابه ومحنته ، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين مايشتهيه . وهذا أول مايلقاه كل محب للدنيا ، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزى والنكال والسلاسل والأغلال . وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا أول سجنه ، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول الى محابه ، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلي بينه وبين محبوبه ، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها ، فضلا عما

اعده الله بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت أن المحتاج الى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله . وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخسوف - كأكثر أبناء زماننا - فأدوية الرجاء بالنسبه اليهم سموم مهلكة ، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تماديا في طغيانهم وفساداً في فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف أمراضهم وينظر الى مواقع عللهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها ، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ في ذكر اسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل الى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم .

وبالجملة ؛ الطريق الى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه : ان يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته - كما تقدم شطر منها - ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا ، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود ، بل لم يترك لهم شيئا جزئيا يحتاجون اليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الاولى لهم من الزينة والجمال . فاذا لم تقصر العناية الالهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا - وهي حقيقة دار البلية والمحنة

لادار النعمة والراحة - ولم يرض ان يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم الى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع انه تعالى اخبر بأن رحمته سابقة على غضبه ؟! واقوى مايجلب به الرجاء ان يعلم ان الله تعالى خير محض لا شرية فيه اصلا ، وفياض على الاطلاق ، وإنما اوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم ، فلابد ان يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم .

از خير محض جز نكوئى نآيد　　خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد (١)

ومنها :

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ، ومن خبائث الصفات . وتلزمه الذلة والمهانة ، وعدم الاقتحام في معالى الامور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والامر بالمعروف ، والاضطراب بعروض ادنى شيء من البلايا والمخاوف . وقد ورد في الاخبار بأن المؤمن بريء عن ذلة النفس ، قال الصادق عليه السلام : « ان الله عزوجل فوض الى المؤمن اموره كلها ولم يفوض اليه ان يكون ذليلا : اما تسمع الله تعالى يقول :

« وَلِلّٰهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » (٢)

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلا ، ان المؤمن اعز من الجبل ،

---

(١) وحاصل معنى هذا البيت : (ان الخير المحض لايصدر عنه إلا الجميل فكن مطمئنا ان عاقبتك ستكون الى الجميل) .

(٢) المنافقون ، الآية : ٨ .

الجبل يستقل منه (١) بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » . وقال (ع) « ان الله فوض الى المؤمن كل شيء إلا اذلال نفسه » . وقد وردت بهذا المضمون اخبار اخر . وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن .

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت انه ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان . وقد دلت الاخبار على ان المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة، وكل ذلك فرع كبر النفس . قال الباقر (ع) : « المؤمن أصلب من الجبل »، وقال (ع) : « ان الله اعطى المؤمن ثلاث خصال : العز في الدنيا والآخرة ، والفلح في الدنيا والآخرة ، والمهابة في صدور الظالمين » . وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان ، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر بتقلب الامور والاحوال. وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد ، ولا يصل اليها إلا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها إلا او حدي من أفاضل الحكماء ، او المعي قوى القلب من اماثل العرفاء . وطريق تحصيلها ـ بعد تذكر شرافتها ـ ان يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

---

(١) تقدم في صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث ، ورجحنا فيه كلمة (يستفل) بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في اصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) ـ بالقاف ـ وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك . وجاء في البحار (الجزء الاول من المجلد ١٥ ـ باب علامات المؤمن وصفاته ص٥٩٦) في شرح هذا الحديث هكذا : « الجبل يستقل منه : من القلة ، اي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما »

تتميم

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت ان الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض في الاهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وان زادت وكثرت . وضده الاضطراب في الاهوال والشدائد ، ومن جملة الثبات الثبات في الايمان ، وهو اطمئنان النفس في عقائدها ، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى :

« يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيٰوةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرةِ »(١).

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الاعمال ، اذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شيء من الاعمال الفاضلة ، بل هو :

« كالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرانَ »(٢).

والمتصف بـه مواظب لها دائماً من غير فتور . وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة اوالضعف في النفس. فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب، وعدمه من رذائل إحداهما او كليهما.

(١) ابراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٢) الانعام ، الآية : ٧١ .

ومنها :

دناءة الهمــة

وهو قصور النفس عن طلب معالي الامور وقناعتها بادانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها . وضده (علو الهمة) . وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الامور ، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وامثالهما . وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت ، والموت تحفة له ، واعظم سرور يصل اليه ، كما ورد في الاخبار . وهو الذي يقول :

آن مرد نيم كز عدمم بيم آيد
كان بيم مرا خوشتر از اين بيم آيد
جاني است مرا بعاريت داده خدا
تسليم كنم چو وقت تسليم آيد (١)

ويقول :

مرگ اگر مرداست گو نزد من آى
تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ

(١) الابيات كلها لـ (حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره . ومعنى البيتين : (لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه ، فان ما اخشى منه ـ وهو الموت ـ احسن عندي من نفس الخوف منه ، لان نفسي قد اعارنيها الله تعالى ، فعلي ان اسلمها عندما يطالب تسليم العارية) .

من از آن عمري ستانم جاودان
آن زمن دلقي ستاند رنگ رنگ (١)

ويقول :

اين جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست
روزي رخش ببينم وتسليم وى كنم (٢)

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي اعظم الفضائل النفسانية ، إذ كل من وصل الى المراتب العظيمة والامور العالية فانما وصل اليها لأجلها ، اذ صاحبها لايرضى بالمراتب الدنية ، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والامور المتعالية ، وفي جوهر الانسان وجبلته ان يصل الى كل ما يجتهد في طلبه :

« وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا » (٣) .

من طلب الشيء وجد، وجد . ومن افراد علو الهمة الشهامة ، وهو الحرص على اقتناء عظائم الامور توقعاً لجميل الذكر على مر الدهور .

ومنها :

عدم الغيرة والحمية

وهو الاهمال في محافظة ما يلزم محافظته : من الدين ، والعرض ، والأولاد ، والاموال . وهو من نتائج صغر النفس وضعفها ، ومن المهلكات العظيمة ، وربما يؤدي الى الدياثة والقيادة . قال رسول الله ـ صلى الله عليه

(١) معنى البيتين : (لو ان الموت رجل ، فقل له : يأتيني حتى احتضنه شوقاً اليه، وألزه لزاً ، وذلك لاني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه الزخارف الفانية للوارث) .

(٢) معنى البيت : (ان هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ ـ ويعني نفسه ـ لابد ان أسلمها في يوم من الايام عندما أرى وجه الحبيب ـ يعني بالحبيب : الله تعالى)

(٣) العنكبوت ، الآية ٦٩ .

وآله وسلم ـ اذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا غير الرجل في اهله او بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله اليه طائراً يقاله (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم يمهله اربعين يوماً ، ثم يهتف به : ان الله غيور يحب كل غيور ، . فان هو غار وغير وانكر ذلك فاكبره ، والا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان ، وتسميه الملائكة : الديوث » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « كان ابراهيم غيوراً وانا اغير منه ، وجدع الله انف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين » . وقال امير المؤمنين (ع) : « يا اهل العراق انبئت ان نساءكم يدافعن الرجال في الطريق، اما تستحيون ؟ » . وقال (ع) : « اما تستحيون ولا تغارون ، نساؤكم يخرجن الى الاسواق ويزاحمن العلوج ؟ » .

وصل
(الغيرة والحمية)

وضده (الغير والحمية) ، وهو السعي في محافظة مايلزم محافظته ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها . وهي شرائف الملكات ، وبها تتحقق الرجولية والفحلية ، والفاقد لها غير معدود من الرجال . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان سعداً لغيور ، وانا اغير من سعد، والله اغير مني » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الله لغيور ، ولاجل غيرته حرم الفواحش » وقال : « ان الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله ان يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » . وقال الصادق (ع) : « ان الله تعالى غيور ويحب الغيرة ، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها » .

فصـــل

(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) ان يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين ، وانتحال المبطلين ، وقصاص المرتدين ، واهانة من يستخف به من المخالفين ، ورد شبه الجاحدين ، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه ، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه ، ولا يتسامح في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مباديء الامور التي تخشى غوائلها ، فيحفظهن عن اجانب الرجال ، ويمنعهن عن الدخول في الاسواق . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لفاطمة (ع) : « اى شيء خير للمرأة ؟ قالت : ان لا ترى رجلاً ولا يراها رجل . فضمها اليه ، وقال : ذرية بعضها من بعض » . وكان اصحاب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يسدون الثقب والكوى في الحيطان ، لئلا تطلع النساء على الرجال . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من اطاع امرأته اكبه الله على وجهه في النار» وما روى انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : اذن للنساء في حضور المساجد ، وقال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ، فالظاهر انه كان مختصاً بنساء عصره ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها . والصواب اليوم ان يمنعن من حضور المساجد والذهاب الى المشاهد إلا العجائز منهن ، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر الى أي موضع كان . وسئل الصادق (ع) عن خروج النساء في العيدين ، فقال : « لا ! إلا العجوز عليها منقلاها » ، يعني الخفين : وفي رواية اخرى انه (ع) : « سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة ، فقال : لا ! إلا امرأة مسنة » .

وبالجملة: من اطلع على احوال نساء امثال عصرنا يعلم ان مقتضى الغيرة ان يبالغ في حفظهن عن جميع مايحتمل ان يؤدي الى فتنة وفساد ، سواء كان في نفسه محرماً كالنظر الى الرجال الاجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة ، اولا ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي او ضروري ، ولو الى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا ابي عبد الله الحسين (ع) ، اذ ذلك وان كان في نفسه راجحاً الا ان الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا ، فان اقل ماقي الباب انه لا ينفك عن نظرهن الى الاجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن ، وهذا خروج للطرفين الى الانحراف عن قانون العفة مع انا نعلم قطعاً ان خروج اكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد او مرجوح ، وما اقل فيهن ان يكون خروجها الى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب . فالصواب ان يمنعن في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، الا الى سفر واجب ، كالحج ، او الى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل ، اذا لم يتمكن ازواجهن من اخذها وايصالها اليهن . نعم ، لوفرض خروجها الى احد المشاهد او الى مجمع تعزية من مجامع النساء بل الى مجمع العرس على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ماينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه . وجميع ذلك انما هو في الشواب من النساء ، واما العجائز فلا بأس بخروجهن الى المواضع المذكورة ! ومقتضى الغيرة ان يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم لانهن ناقصات العقل والايمان ، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة ، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة

وهيجانها فيهن فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك الى فساد عظيم . ولذلك ورد فى الاخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف (ع) ، إذ استماعهن لامثال القصة المذكورة فيها ربما أدى الى انحرافهن عن طريق العفة . قال أمير المؤمنين (ع) « لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فان فيها الفتن ، وعلموهن سورة النور فان فيها المواعظ » . وقال (ع): « لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور » .

وبالجملة : مقتضى العقل والنقل ان يمنعن عن جميع ما يمكن ان يؤدي الى فساد وريبة ، وعن مباديء الامور التي تخاف غوائلها ، وينبغي لصاحب الغيرة ان يجعل نفسه مهيباً في نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وان يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور ، كتدبير المنزل وإصلاح امر المعيشة ، او بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الاوقات ، اذ لو خلت عن الاشغال وتعطلت عن المهمات اوقعها الشيطان في أودية الافكار الردية ، فتميل الى الزينة والخروج والتفرج ، والنظر الى اجانب الرجال ، والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر امرها الى الفساد ، وينبغي ايضا لصاحب الغيرة ان يعطى امرأته ما تحتاج اليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر الى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والافعال توصلاً الى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها .

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في اساءة الظن والعنت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« ان يتبع عورات النساء وان يتعنت بهن » . وفي الخبر المشهور : ان المرأة كالضلع ، ان اردت ان تقيمه كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » وقال أمير المؤمنين (ع) : « لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك » . وقال (ع) في رسالته الى الحسن (ع) : « إياك والتغاير في غير موضع الغيرة ، فان ذلك يدعوهن الى السقم ، ولكن احكم امرهن ، فان رأيت عيباً فعجل النكير على الصغير والكبير ، بان تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب » . وبالجملة : لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش ، اذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فان بعض الظن اثم .

* * *

واما مقتضى الغيرة على (الاولاد) : ان تراقبهم من أول أمرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال ، اذ الصبي الذي تتكون اعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه الى الخبائث ، لان طينته انعجنت من الخبث .

واذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي ان يؤدب بآداب الاخيار . ولما كان اول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي ان يؤدب فيه بأن يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه ، ويقول (باسم الله) عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يبادر الى الطعام قبل غيره ، ولا يحدق الى الطعام ولا الى من يأكل ، ولا يسرع في الاكل ، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ، ولا يلطخ ثوبه ولا يده . ويقبح عنده كثرة الاكل بأن يذم كثير الاكل ويشبه بالبهائم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به

والقناعة بأي طعام اتفق . ثم يؤدب في امر اللباس ، حتى لا يخرج فيه عن زي الابرار واهل الورع ، فيحبب اليه ثياب القطن والبيض ، دون الابريسم الملون ، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين ، والرجال يستنكفون منه ، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة . ثم يؤدب في الاخلاق والافعال ويبالغ في ذلك ، لان الصبي اذا اهمل في اول نشوه خرج في الاكثر ردى الاخلاق والافعال ، فيكون كذاباً ، حسوداً ، لجوجاً ، عنوداً ، سارقاً ، خائناً ، ذا ضحك وفضول ، وربما صار مخنثاً مائلا الى الفسوق والفجور . فينبغي ان يحفظ من قرناء السوء ، وهو الاصل في تأديبه . ويسلم الى معلم دين صالح ، يعلمه القرآن واحاديث الاخيار وحكايات الابرار ، لينغرس في نفسه حب الصالحين . ويحفظ عن الاشعار التي فيها ذكر الفسوق واهله . اذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد . وينبغي ان يعود الصبر والسكوت اذا ضربه المعلم ، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ ، ويذكر له ان ذلك دأب الرجال والشجعان ، وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان . وينبغي ان يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل حتى يستريح من تعب الادب ، ولا يموت قلبه ، ولا ينقص ذكاه . ويعلم محاسن الاخلاق والأفعال ، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الاعمال . فيخوف من الحسد ، والعداوة ، والجبن ، والبخل ، والكبر ، والعجب . ويحذر من السرقة ، واكل الحرام ، والكذب ، والغيبة ، والخيانة ، والفحش ، واللعن ، والسب ، ولغو الكلام . . . وغير ذلك . ويرغب في الصبر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، والشجاعة ، والسخاء ، والصدق ، والنصيحة . . . وغير ذلك من محاسن الاخلاق وفضائلها . ويمدح عنده الاخيار ويذم الاشرار ، حتى يصير الخير عنده محبوباً ، ويصير الشر عنده مبغوضاً .

واذا بلغ سن التمييز ، يؤمر بالطهارة والصلاة والصوم في بعض الايام من شهر رمضان ، ويعلم اصول العقائد وكل ما يحتاج اليه من حدود الشرع . ومهما ظهر منه خلق جميل او فعل محمود ، فينبغي ان يكرم عليه ويجازى لاجله بما يفرح به ، ويمدح بين اظهر الناس . وان ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يظهر له انه يتصور ان يتجاسر احد على مثله ، (لا) سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه ، فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك ، فان عاد ثانياً الى مثله ، فينبغي ان يعاتب عليه سراً ويعظم الامر فيه ، ويقال له : إياك ان يطلع على فعلك هذا احد فتفتضح عند الناس . ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الاب حافظاً هيبته في الكلام والحركات معه . وينبغي للام ان تخوفه بالاب . وينبغي ان يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد انه قبيح ، فاذا ترك يعود فعل القبيح . ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والافعال ، وعدم كشف اطرافه ، والتواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف معه في الكلام . ويعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو اكبر سناً منه ، من قريب وبعيد ، ويعود النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم ويمنع من الفخر على اقرانه بشيء مما تملكه نفسه او والده . ويخوف من اخذ شيء من الصبيان او الرجال ، او يذكر له ان الرفعة في العطاء ، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، فانه دأب الكلب ، اذ هو يتبصبص في انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويحذر منهما اكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، اذ آفة حبهما اكثر من آفة السموم ، وقد هلك لاجله كل من هلك العالم . ويعود ألا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتمطط ، ولا

يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه ، لانه دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون . ويمنع من النوم في النهار ، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه ، ولا يستخف بدنه ، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة ، وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله ، وان الدنيا كلها لا اصل لها ولا بقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار ممر لا دار مقر . وان الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات ، والكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة . وينبغي ان يمنع من كثرة الكلام ، ومن الكذب ، واليمين ولو كان صدقاً ، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن ان يبتدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم الا جواباً وبقدر السؤال ، وان يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سناً منه ، وان يقوم لمن هو اكبر منه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه .

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ، فيكون خيراً صالحاً . وان نشأ على خلاف ذلك ، حتى الف اللعب، والفحش ، والوقاحة، والخرق ، وشره الطعام . واللباس ، والتزين والتفاخر بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر ، وكان وبالاً لوالديه ، وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار . فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا ، لانه امانة الله عنده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر ، وابواه يميلان به الى احدهما ، فان عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم ومؤدب، وان عود الشر واهمل شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة ابيه

او من كان قيما ووليآ له .

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر ، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية ، فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت ، والحجاب ، والوقار ، والعفة والحياء ، وسائر الخصال التي ينبغي ان تتصف بها النساء .

ثم ينبغي ان يتفرس من حال الصبي انه مستعد لأي علم وصناعة ، فيجعل مشغولاً باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره ، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، اذ كل أحد ليس مستعداً لكل صناعة ، والا لاشتغل الجميع باشراف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه .

° ° °

واما الغيرة على (المال) ، فلا تظن انها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار ، اذ كل إنسان مادام في دار الدنيا محتاج اليه ، وتحصيل الآخرة ايضاً يتوقف عليه ، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن ، وهو موقوف على بدل عما يتحلل عنه من الاغذية والأقوات . فلابد لكل عاقل ان يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه ، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة ، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته او دنياه ، كانفاقه للرياء والمفاخرة والتضيف ، او بذله على غير المستحقين بلا داع ديني او دنيوي او عادي ، او تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية او سراً ، او عدم مبالاته بتضييعه من غير ان يصل نفعه الى أحد ، او اسرافه في بذله ، او غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ولا يعود اليه عوض فى الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه ان يصرف

جميع امواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها الى نفسه ، ولا يترك شيئاً منها لوارثه إلا للأخيار من أولاده ، إذ بقائهم بمنزلة بقائه ، ويترتب على وجودهم ـ مع حسن حالهم وعيشهم ـ جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة، لزوج امرأته، فيأكله ويجامعها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال ، ان يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها ، وهذا محنة لايتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة . فضلاً عن صاحب الغيرة والحمية، وقس على ذلك تخليف الاموال لسائر الوراث الذين لايعرفون الحقوق ، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء ، من أولاد السوء وأزواج البنات ، وسائر الاقارب من الاخوان والاخوات والاعمام والعمات والاخوال والخالات . وهؤلاء وان لم يكونوا بمثابة زوج امرأته ، إلا ان ترك الاموال لهم اذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد في زماننا هذا .

ومنها :

العجلة

وهي المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الاقدام على الامور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها . وقد عرفت انه من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الابواب العظيمة للشيطان ، قد اهلك به كثيراً من الناس ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « العجلة من الشيطان . والتأني من الله » . وقد خاطب الله تعالى نبيه ـ صلى الله

عليه وآله وسلم ـ بقوله :

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (١) ،

وقد روي : « انه لما ولد عيسى (ع) أتت الشياطين ابليس ، فقالت : اصبحت الاصنام قد نكست رؤسها . فقال : هذا حادث قد حدث ، مكانكم . فطار حتى جاء خافقي الارض ، فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى(ع) قد ولد ، واذا الملائكة قد حفت حوله ، فرجع اليهم ، فقال : ان نبياً قد ولد البارحة ، ما حملت انثى قط ولا وضعت الا وانا بحضرتها ، إلا هذا ، فايأسوا ان تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة » .

والظواهر في ذم العجلة اكثر من ان تحصى ، ولذلك افتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة . والسر في شدة ذمها : ان الاعمال ينبغي ان تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك ، فمن يستعجل في امر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدري . والتجربة شاهدة بأن كل امر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل مايصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضياً ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ، ولا وقع له عند القلوب . والمتأمل في الامور يعلم ان العجلة هو السبب الاعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الابد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها .

وبيان ذلك : انه لاريب في ان احب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لانها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة .

(١) طه ، الآية : ١١٤ .

والسر فيه : ان كل معلول من سنخ علته ، ويناسبها في صفاتها وآثارها، وغاية ابتهاجه ان يتصف بمثل كمالاتها ، ولذا قيل : «كل مايصدر عن شيء لايمكن ان يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا ان يكون من جميع الجهات ليس هو بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو» . وهذا معنى كلام قدماء الحكمة : (الممكن زوج تركيبي) . ولا ريب في ان جميع الموجودات معلومة للواجب سبحانه ، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه ووجوده ، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته ، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور اليه اقرب والواسطة بينهما اقل ، تكون مناسبة له اتم وشوقه الى الاتصاف بكماله أشد ولا ريب فى أن الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الامر مقتبسة من مشكاة نوره ، فلها غاية القرب اليه في سلسلة الصدور ، فتكون شديدة الشوق الى الاتصاف بنحو كماله . والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الامر ـ كما قال الله تعالى ـ :

«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (١)

تكون مثلها في القرب اليه تعالى او في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك مذموماً ، إذ ينبغي لكل عبد ان يطلب ملكا عظيماً لا آخر له ، وسعادة دائمية لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل معه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر معه ، وكمالا لانقصان فيه . وهذه كلها من اوصاف الربوبية، وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء انما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الامر ، اذ حسدها على كونها من عالم الامر ،

(١) الاسراء ، الآية : ٨٥ .

فأضلها واغواها من طريق العجلة ، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بانواع الآلام ، لكونه عاجلا ، وصده عن الملك المخلد الدائم الذى لايشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لكونه آجلا . والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغباً في العاجلة ، لماجاءه المطرود من عالم الامر ، وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه ، واستغواه بالعاجلة ، وأمال قلبه الى عدم الاعتناء بالآجلة ، وزين له الحاضرة ، ووعده بالغرور وبالتمنى على الله في باب الآخرة ، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علواً واستيلاء في الحقيقة ، بل موصفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية . مثال ذلك : أنه لاريب في أن الحب والعشق صفة كمال، ولكن اذا وقع في موقعه ، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كامـــلا في ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكماليـــة ، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره ، ويختار الملك العاجل الفاني على السلطنة الآجلة الباقية ، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة .

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق ، أرسل الله اليهم الانبياء ، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازى الذى لا أصل له ولا دوام ان سلم الى الملك الحقيقي الذى لا زوال له اصلا ، فنادوا فيهم :

(يا أيُّها الَّذين آمَنوا مالَكُمْ اذا قيلَ لكُمْ انْفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقلْتُمْ إلىٰ الارضِ أرَضيتُمْ بالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ

الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة إلا قليل (١)

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية ، كما قال سبحانه :

« إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » (٢) وقال : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » (٣)

فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق الى الملك المخلد، ليكونوا ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى ، ودرك بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل معه ، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد . والشيطان يدعوهم من طريق العجلة الى ملك الدنيا الفاني ، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا ، مع انه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، يفوت به ملك الآخرة ، اذ الدنيا والآخرة ضرتان ، بل يفوت به الملك الحاضر الذى هو الزهد في الدنيا ، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان . وهذا ملك بالاستحقاق ، إذ به يصير صاحبه حراً وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة ، مملوكا يسخره زمام الشهوة ، أخذ المخنقة الى حيث يريد ويهوى فما اعظم اغترار الانسان ، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا ، وينال الربوبية بأن يصير عبداً . ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة ؟ . فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا والآخرة هو العجلة .

(١) التوبة ، الآية : ٣٨ .

(٢) الدهر ، الاية : ٢٧ .

(٣) القيامة ، الاية : ٢٠ ـ ٢١ .

والطريق في علاجها : أن يتذكر فسادها ، وسوء عاقبتها ، وايجابها للخفة والمهانة عندالناس ، وتأديتها الى الندامة والخسران . ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده ، وكونه صفة الانبياء والأخيار ، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل والمهلة ، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطناً وظاهراً في جميع أفعاله وسكناته ، فاذا فعل ذلك مدة ، ولو بالتكلف والتعمل ، يصير ذلك عادة له ، فتزول عنه هذه الصفة ، وتحدث صفة الوقار والسكينة .

وصــل

(الاناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة (الاناة) (١) ، وهو المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الاحتياط في الامور والنظر فيها ، والتأني في اتباعها والعمل بها .

ثم (التوقف) قريب من التأني والأناة ، والفرق بينهما : أن التوقف هو السكون قبل الدخول في الامور حتى يستبين له رشدها ، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه ، وضد التوقف والتعسف .

و (الوقار) يتناول الأناة والتوقف كليهما ، فهو طمأنينـــة النفس وسكونها في الأقوال والافعال والحركات قبل الدخول فيها وبعدها . وهو من نتائج قوة النفس وكبرها . وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة ، ولذا يمدح به الانبياء والاصفياء ، وورد في الاخبار : « ان المؤمن متصف به ألبتة » فينبغي لكل مؤمن أن يتكلف آثاره في الحركات

(١) في النسخ (الاناءة) ، فصححناه كما هنا .

والافعال، حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكلف الطمأنينة في الافعال والحركات قبل ان تصير ملكة يختص باسم الوقار ، واذا صارت ملكة سميت سكينة ، إذ هي طمأنينة الباطن ، والوقار اطمئنان الظاهر .

ومنها :

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس ، اذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه :

« يأيُّها الَّذِين امَنُوا اجتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِ إنَّ بَعضَ الظَّنِ إثمٌ » (١) . وقال تعالى : « وَذلِكُمْ ظَنُّكُمْ الذي ظَنَنتُمْ بِربِّكُمْ » (٢) . وقال : « وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً » (٣).

وقال امير المؤمنين عليه السلام : « ضع امر اخيك على احسنه حتى يأتيك مايغلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من اخيك سوءاً وانت تجد لها في الخير محملاً » . ولاريب في ان من حكم بظنه على غيره بالشر ، بعثه الشيطان على ان يغتابه او يتوانى في تعظيمه وإكرامه ، او يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، اوينظر اليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه وكل ذلك من

(١) الحجرات ، الاية : ١٢ .

(٢) فصلت ، الاية : ٢٣ .

(٣) الفتح ، الاية : ١٢ .

المهلكات . على ان سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته ، كما ان حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد ، وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ، فالمؤمن يظهر محاسن اخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل اناء يترشح بما فيه .

والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان : ان اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لأحد ان يعتقد في حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل ، اذ حينئذ لا يمكنه الا يعتقد ما شاهده وعلمه ، واما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه ، فالشيطان القاه اليه ، فينبغي ان يكذبه ، لأنه افسق الفسقة ، وقد قال الله :

« إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ (١).

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه ، وإن حف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رايت عالما في بيت امير ظالم لا تظنن ان الباعث طلب الحطام المحرمة ، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم . ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجزمن بشرب الخمر ووجوب الحد ، إذ يمكن انه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه ، اوشربه اكراها وقهراً . فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال ، وهو صريح المشاهدة ، او قيام بينة فاضلة .

ولو اخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك ان تتوقف في

---

(١) الحجرات ، الآية : ٦ .

إخباره من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبته لكنت خائناً على هـذا العدل ، إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، وكذا إن ظننت به العـداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمـة ، فترد شهادته ، ولو صدقته لكنت خائنا على المسلم المخبر عنه ، إذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهيا ، او التباس الامر عليه بحيث لا يكون في اخباره بخلاف الواقع آثما وفاسقاً . وبالجملة : لاينبغي أن تحسن الظن بالواحـد وتسيء بالآخر ، فتذكر المذكور حاله على ماكان في الستر والحجاب ، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجة شرعية يجب قبولها ، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة مجوزة للاخبار ، وإن لم يكن مطابقا للواقع

ثم المراد بسوء الظن هو عقـد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس ، بل الشك ايضا ، إذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو ان يظن ، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس اليه . والامارات التي بها يمتاز المعقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس ، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة الى الكراهة والنفرة ، والجوارح عما كانت عليه من الافعال اللازمة في المعاشرات الى خلافها . والدليل على ان المراد هو ماذكر ، قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج ، فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه » ، أي لايحقق في نفسه بعقد ولا فعل ، لافي القلب ولا في الجوارح .

ثم لـكون سوء الظن من المهلكات ، منع الشرع من التعرض للتهمـة ، صيانة لنفوس الناس عنه ، فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « إتقوا مواقع التهم ». وقال امير المؤمنين عليه السلام : « من عرض نفسه للتهمة فلايلومن من أساء به الظن ». وروى: « انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يكلم زوجته

صفية بنت حي ابن أخطب ، فمر به رجل من الأنصار ، فدعاه رسول الله ، وقال : يافلان ! هذه زوجتي صفية . فقال : يارسول الله أفنظن بك إلاخيراً؟ قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم،فخشيت أن يدخل عليك » فانظر كيف أشفق رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على دينه فحرسه وكيف علم الامة طريق الاحتراز عن التهمـــة ، حتى لايظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لايظنون به إلا خيراً ، اعجابا منه بنفسه ، فان مالاجزم بتحققه في حق سيد الرسل واشرفهم ، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره ، وإن بلغ من العلم والورع مابلغ . والسر في ذلك : أن أورع الناس وافضلهم لاينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل إن نظر اليه بعضهم بعين الرضا ينظر اليه بعض آخر بعين السخط :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فكل عدو وحاسد لاينظر إلا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ويطلب المساوى ، وكل شرير لايظن بالناس كلهم الا شراً ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب ان يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لأن البلية اذا عمت هانت ، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول السنتهم فيه . فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكا في معصيتهم ، اذ كل من كان سببا لمعصية غيره يكون شريكا له في هذه المعصية . ولذا قال الله تعالى :

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ » (١).

(١) الانعام ، الآية : ١٠٨ .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « كيف ترون من يسب ابويه ؟ فقالوا : هل من احد يسب ابويه ؟ فقال : نعم ! يسب ابوي غيره فيسبون ابويه » .

ثم طريق المعالجة في ازالته ـ بعد تذكر ماتقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده ـ انه اذا خطر لك خاطر سوء على مسلم ، لاتتبعه ، ولا تحققه ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه ، من المراعاة والتفقد والإكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير ، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى اليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام . ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر الى اغتيابه ، واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه ، لتنظر اليه بعين الحقارة ، مع أنه ينظر اليك بعين التعظيم ، بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الاثم ، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان ، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب اليك من تركه بنصيحتك ، واذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته .

وصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما) ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها ، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من ان تحصى ، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه ، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله ، ولا يظن أنه لا يرحمه

ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب، وان ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغي ان يعلم انه أرحم وأرأف به من والديه ، وانما خلقه لاجل الفيض والجود ، فلابد ان يرحمه في دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله الى نعيم السرمد ، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح ، وذخيرة له في يوم المعاد .

وكذا لايظن السوء والشر بالمسلمين ، ولا يحملن ماله وجه صحيح من اعمالهم واقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب ان يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ، مالم يجزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب اليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكلف نفسه على ذلك ، حتى يصير ذلك ملكة له، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية . نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع ، لو كان باعثاً لضرر مالي او فساد ديني او عرضي ، لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه ، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار .

ومنها :

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الافراط ، واذا اشتد يوجب حركة عنيفة،يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر فى صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة . قال بعض علماء الاخلاق : « الغضب شعلة نار اقتبست من نار

الله الموقدة ، الا أنها لاتطلع الا على الافئدة ، وانها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، او حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التي لها عرق الى الشيطان اللعين ، حيث قال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١).

فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظي والاستعار ».

ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها اما الى دفع المؤذيات ان كان قبل وقوعها او الى التشفي والانتقام ان كان بعد وقوعها ، فشهوتها الى أحد هذين الامرين ولذتها فيه ، ولا تسكن الا به . فان صدر الغضب على من يقدر ان ينتقم منه ، واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن الى الظاهر ، واحمر اللون ، وهو الغضب الحقيقي . وان صدر على من لا يتمكن ان ينتقم منه لكونه فوقه ، واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من الظاهر الى الباطن ، وصار حزناً . وان صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة او انقبض اخرى ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

فصل

(الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال . فالافراط : ان تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولاتبقى له فكرة وبصيرة . والتفريط : ان يفقد هذه القوة او تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعا وعقلا . والاعتدال : ان يصدر غضبه فيماينبغي

(١) الاعراف ، الآية ١٢ . وص ، الآية : ٧٦ .

ولا يصدر في ما لا ينبغي ، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل ، بل يكون تابعاً لهما في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بامرهما . ولا ريب في ان الاعتدال ليس مذموماً ، ولا معدوداً من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، اذ الفاقد لهذه القوة لاحمية له ، وهو ناقص جداً . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس . والجور ، وتحمل الذل من الاخساء ، والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء . ولذا قيل : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (١) . وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة ، فقال :

« أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » (٢) .

وخاطب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله :

« وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٣)

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه القوة بالكلية اوضعفها مذموم . وقد ظهر ان الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وان كان رذيلة الا انه ليس غضباً ، بل هو ضد له معدود من الجبن ، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فانحصر الغضب بالاول .

ثم الناس كما هم مختلفون في اصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ ، فيكونان في بعضهم سريعين ، وفي بعضهم بطيئين وفي بعضهم يكون احدهما سريعاً والآخر بطيئاً ، وفي بعضهم يكون كلاهما

(١) هذه الكلمة منسوبة للشافعي ـ على ما في احياء العلوم : ج٣ ص١٤٥ و١٥٦ ـ

(٢) الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٣) التوبة ، الآية : ٧٣ .

اوأحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء . وما كان من ذلك باشارة العقل فهو ممدوح معدود من اوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب او الجبن .

فصل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى الى الشقاوة الابدية ، من القتل والقطع ، ولذا قيل : (انه جنون دفعي) . قال أمير المؤمنين(ع): « الحدة ضرب من الجنون ، لان صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحكم» وربما أدى الى اختناق الحرارة ، ويورث الموت فجأة . وقال بعض الحكماء : « السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة ، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الامواج الهائلة أرجى الى الخلاص من الغضبان الملتهب » . وقد ورد به الذم الشديدة في الاخبار ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل » ، وقال الباقر (ع) : ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وان أحدكم اذا غضب احمرت عيناه وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض ، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك » . وقال الصادق (ع) : « وكان أبي (ع) يقول : أي شيء أشد من الغضب؟ ان الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة » وقال (ع) (١) : « ان الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار » . وقال الصادق (ع) :

---

(١) أي : الباقر ـ عليه السلام وقد روى هذه الاخبار المذكورة هنا الكافي في باب الغضب ، فروى هذا الخبر عنه ـ عليه السلام ـ لا عن الصادق ـ عليه السلام ـ .

« الغضب مفتاح كل شر » . وقال (ع) : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم » . وقال (ع) : من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والاغراض المضرة القبيحة : انطلاق اللسان بالشتم والسب ، واظهار السوء والشماتة بالمساءة وافشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء ، وتوثب الاعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه الندامة بعد زواله ، وعداوة الاصدقاء ، واستهزاء الاراذل ، وشماتة الاعداء ، وتغير المزاج ، وتألم الروح وسقم البدن ، ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل .

والعجب ممن توهم ان شدة الغضب من فرط الرجولية ، مع ان ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة انما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة ، من الشتم والسب بالنسبة الى الشمس ، والقمر ، والسحاب ، والمطر ، والريح ، والشجر ، والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الارض ، ويكسر المائدة ، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، واذا عجز عن التشفي ، ربما مزق ثوبه ، ولطم وجهه ، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية ، او سقط على الارض لا يطيق النهوض والعدو . وكيف يكون مثل هذه الافعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الشجاع من يملك نفسه عند غضبه » .

فصل

(امكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

ج١

قد اختلف علماء الاخلاق في إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه ، فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن ، لانه مقتضى الطبع ، انما الممكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لايشتد هيجانه ، وانت خبير بان الغضب الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم ، اذ غيره مما يكون باشارة العقل والشرع ليس غضباً فيه كلامنا ، بل هو من آثار الشجاعة ، والاتصاف به من اللوازم ، وان أطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة او مجازاً ، كما روي عن أمير المؤمنين (ع) انه قال : « كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لايغضب للدنيا ، واذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » . ولا ريب ان الغضب الذي يحصل لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يكن غضباً مذموماً ، بل كان غضباً ممدوحاً يقتضيه منصب النبوة ، وتوجيه الشجاعة النبوية . ثم الغضب المذموم ممكن الزوال ، ولولا امكانه لزم وجوده للانبياء والاوصياء ، ولا ريب في بطلانه .

ثم علاجه يتوقف على أمور ، وربما حصل ببعضها :

(الاول) إزالة أسبابه المهيجة له ، إذ علاج كل علة بحسم مادتها ، وهي : العجب ، والفخر ، والكبر ، والغدر ، واللجاج ، والمراء ، والمزاح ، والاستهزاء ، والتعيير ، والمخاصمة ، وشدة الحرص على فضول الجاه والاموال الفانية ، وهي باجمعها أخلاق ردية مهلكة ، ولا خلاص من الغضب مع بقائها ، فلابد من ازالتها حتى تسهل ازالته .

(الثاني) ان يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته ، وما ورد في الشريعة

من الذم عليه ، كما تقدم .

(الثالث) ان يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده ، ويتأمل فيما ورد من فوائد عدم الغضب ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة » . وقول الباقر (ع) : « مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى : أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي » . وقول الصادق (ع) : « أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه : يابن آدم ! اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي ، ولا أمحقك فيمن أمحق ، واذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك ، فان انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك » . وقوله (ع) : « سمعت أبي يقول : أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رجل بدوي ، فقال : اني اسكن البادية ، فعلمني جوامع الكلم . فقال : آمرك ألا تغضب . فأعاد الاعرابي عليه المسألة ثلاث مرات ، حتى رجع الرجل الى نفسه ، فقال : لا أسألك عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إلا بالخير » . وقوله (ع) : « ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أتاه رجل ، فقال : يارسول الله ! علمني عظة أتعظ بها ، فقال له : انطلق ولاتغضب ، ثم عاد عليه ، فقال له : انطلق ولاتغضب . . . ثلاث مرات» وقوله (ع) : « من كف غضبه ستر الله عورته » . . . الى غير ذلك من الاخبار .

(الرابع) ان يتذكر فوائد ضد الغضب ، أعني الحلم وكظم الغيظ ، وما ورد من المدح عليهما في الاخبار ـ كما يأتي ـ ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف ، فيتحلم وان كان في الباطن غضباناً ، واذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس ، فتنقطع عنها أصول الغضب .

(الخامس) ان يقدم الفكر والروية على كل فعل او قول يصدر عنه ،

ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه .

(السادس) ان يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب ، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون : نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من أحد أمراً . ويختار مجالسة أهل الحلم ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس .

(السابع) ان يعلم ان ما يقع انما هو بقضاء الله وقدره ، وان الاشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته ، وان كل ما في الوجود من الله ، وان الامر كله لله ، وان الله لا يقدر له ما فيه الخيرة ، وربما كان صلاحه في جوعه ، او مرضه ، او فقره ، او جرحه او قتله ، او غير ذلك . فاذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يغتاظ عما يرد عليه ، اذ يرى ـ حينئذ ـ ان كل شيء في قبضة قدرته اسير ، كالقلم في يد الكاتب . فكما ان من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم ان هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الاصلحية ، لا يغضب على أحد ، إلا ان غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول اليه من الله الاكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعاً طبيعياً ، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الانبياء ، مع ان التفاتهم في الجملة الى الوسائط مما لا يمكن انكاره .

(الثامن) ان يتذكر ان الغضب مرض قلب ونقصان عقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل ، والمريض أسرع غضباً من الصحيح . والشيخ الهرم أسرع

غضباً من الشاب ، والمرأة اسرع غضباً من الرجل ، وصاحب الاخلاق السيئة والرذائل القبيحة اسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، والبخيل يغاظ لبخله إذا فقد الحبة ، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على اعزة اهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة اجل شأناً من ان تتغير وتضطرب لمثل هذه الامور ، بل هي كالطود الشاهق لاتحركه العواصف ، ولذا قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر الى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع الى كتب السير والتواريخ ، واستمع الى حكايات الماضين ، حتى تعلم: ان الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الانبياء والحكماء واكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الجهلة والاغبياء .

(التاسع) ان يتذكر ان قدرة الله عليه اقوى واشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو اضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن اذا امضى غضبه عليه ان يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روي : « انه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب اعطاه صحيفة فيها : (ارحم المساكين ، واخش الموت ، واذكر الاخرة) ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه» وفي بعض الكتب الالهية : « يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ، فلا امحقك فيمن أمحق » (١).

---

(١) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق ـ عليه السلام ـ بهذه العبارة : « إن في التوراة مكتوبا : يابن آدم : اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي ، فلا امحقك فيمن أمحق . . » وقد تقدم مثله ص ٢٩١.

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوي وتشمر لمقابلته وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشماتة بمصائبه ، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه .

(الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الغيظ والغضب فان كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس ، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة ، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها واضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لايخرجه من كبر النفس في الواقع ، ولوفرض خروجه به منه في اعين جهلة الناس فلا يبالي بذلك ، ويتذكر ان الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر اولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر ، وإن كان السبب خوف ان يفوت منه شيء مما يحبه فليعلم ان مايحبه ويغضب لفقده اما ضروري لكل احد ، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذى اشار اليه سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله : « من اصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وله قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . او غير ضروري لأحد ، كالجاه والمنصب وفضول الاموال . او ضروري لبعض الناس دون بعض ، كالكتاب للعالم ، وادوات الصناعات لأربابها . ولا ريب ان كل ماليس من هذه الاقسام ضروريا فلا يليق ان يكون محبوبا عند اهل البصيرة وذوى المروات ، اذ مالا يحتاج اليه الانسان في العاجل لابد له من تركه في الآجل ، فما بال العاقل ان يحبه ويغضب لفقده واذا علم ذلك لم يغضب على فقدهذا القسم البتة . واما ماهو ضروري للكل او البعض ، وان كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج

اليه ، إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن مافقد عنه من الاشياء الضرورية ان امكن رده والوصول اليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب ايضاً ، وان لم يمكن لم يمكن معهما أيضاً . وعلى اى حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لاثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل ، وحينئذ لايغضب ، وان غضب يدفعه عن نفسه بسهولة .

(الثاني عشر) أن يعلم ان الله يحب منه ألا يغضب ، والحبيب يختار ألبتة مايحب محبوبه ، فان كان محباً لله فليطفىء شدة حبه له غضبه .

(الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب .

(تتميم)

اعلم ان بعض المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده ، حتى لايهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه اذا صدر وهاج . ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائماً ، والاضطجاع ان كان جالساً ، والوضوء او الغسل بالماء البارد ، وان كان غضبه على ذى رحم فليدن منه وليمسه ، فان الرحم اذا مست سكنت ، كما ورد في الأخبار (١).

وصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت ان الحلم هوطمأنينة النفس ، بحيث لايحركها الغضب بسهولة ولايزعجه المكروه بسرعة . فهو الضدالحقيقي للغضب ، لأنه المانع من حدوثه

---

(١) روى ذلك في الكافي في باب الغضب عن الباقر - عليه السلام - .

و بعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضداً له . فنحن نشير الى فضيلة الحلم وشرافته ، ثم الى فوائد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب ازالة الغضب في الاتصاف بالاول فلا يحدث فيه أصلا ، وبالثاني ، فيدفعه عند هيجانه . فنقول :

اما (الحلم) - فهو اشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لا ينفع العلم بدونه أصلا ، ولذا كلما يمدح العلم اويسأل عنه يقارن به ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: « أللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم ». وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « خمس من سنن المرسلين . وعد منها الحلم. وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: « ابتغوا الرفعة عند الله » . قالوا : وماهي يارسول الله ؟! قال : « تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان الله يحب الحي الحليم ، ويبغض الفاحش البذى » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به في الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: « إذا جمع الخلائق يوم القيامة نادى مناد : اين اهل الفضل ؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعاً الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : انا نراكم سراعا الى الجنة ؟ فيقولون نحن اهل الفضل . فيقولون : ماكان فضلكم ؟ فيقولون : كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا اسيء الينا عفونا ، واذا جهل علينا حلمنا . فقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين». وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: « ماعز الله بجهل قط ، ولا اذل بحلم قط » . وقال امير المؤمنين عليه السلام: « ليس الخير ان يكثر مالك

وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك » . وقال علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ : « إنه ليعجبني الرجل ان يدركه حلمه عند غضبه » وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « كفى بالحلم ناصراً » . وقال عليه السلام : « واذا لم تكن حليماً فتحلم » . وقال عليه السلام : « اذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان ، فيقولان للسفيه منهما : قلت وقلت وانت اهل لما قلت ، وستجزى بما قلت ، ويقولان للحليم منهما : صبرت وحلمت سيغفر لك إن اتممت ذلك . قال عليه السلام : فان رد الحليم عليه ارتفع الملكان » . وبعث عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج على اثره فوجده نائماً ، فجلس عند راسه يروحه حتى انتبه ، فقال له : « يافلان ! والله ماذلك لك ! تنام الليل والنهار لك الليل ولنا منك النهار » . وقال الرضا ـ عليه السلام ـ : « لايكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً » .

واما (كظم الغيظ) ـ فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ، لأنه التحلم : اى تكلف الحلم ، إلا انه اذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لايهيج الغيظ حتى يحتاج الى كظمه ، ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » فمن لم يكن حليماً بالطبع لابد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه ، حتى تحصل له صفة الحلم . وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه ، وتواترت الأخبار على شرافته وعظم اجره ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه امضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً » (١) وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ماجرع عبد جرعة اعظم اجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » : وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان لجهنم باباً لايدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » .

---

(١) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن ابي عبدالله ـ عليه السلام ـ

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظا وهو يقدر على ان ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، حتى يخيره من اى الحور شاء » (١) وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من احب السبيل (٢) الى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ يردها بحلم . وجرعة مصيبة يردها بصبر » . وقال سيد الساجدين عليه السلام : « وما تجرعت جرعة احب الى من جرعة غيظ لا اكافي بها صاحبها » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « من كظم غيظا وهو يقدر على امضائه ، حشا الله تعالى قلبه امنا وايمانا يوم القيامة » . وقال ـ عليه السلام ـ لبعض ولده (٣) : « يابنى ! مامن شيء اقر لعين ابيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر وما يسرني ان لي بذل نفسي حمر النعم » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فان عظيم الأجر لمن عظيم البلاء . وما احب الله قوما الا ابتلاهم » . وقال ـ عليه السلام ـ : « مامن عبد كظم غيظا الا زاده الله ـ عز وجل ـ عزاً في الدنيا والآخرة . وقد قال الله ـ عز وجل ـ :

« وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٤)

---

(١) صححنا هذا الحديث على مافي البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ ـ في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات .

(٢) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات . والظاهر ان الاصح (السبل) .

(٣) في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا : « عن ابي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : قال لي ابي : يابنى ! مامن شيء .. » الى آخر الحديث فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر ـ عليهما السلام ـ .

(٤) آل عمران . الآية : ١٣٤

واثابه الله مكان غيظه ذلك » . وقال ابو الحسن الاول ـ عليه السلام ـ : « اصبر على اعداء النعم ، فانك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من ان تطيع الله فيه » .

ومنها :

الانتقـام

بمثل مافعل به ، او بالأزيد منه ـ وان كان محرما ممنوعا من الشريعة ـ وهو من نتائج الغضب ، اذ كل انتقام ليس جائزاً ، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، والفحش بالفحش ، والبهتان بالبهتان ، والسعاية الى الظلمة بمثلها، وهكذا في سائر المحرمات . قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المستبان شيطانان يتهاتران » . وقد ورد : ان رجلاً شتم ابا بكر بحضرة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو ساكت ، فلما ابتدأ لينتصر منه ، قام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال مخاطبا له : « ان الملك كان يجيب عنك ، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان ، فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » .

فكل فعل او قول يصدر من شخص بالنسبة الى غيره ظلما ، ان كان له في الشرع قصاص وغرامة ، فيجب ألا يتعدى عنه ، وان كان العفو عن الجائر ايضا أفضل واولى واقرب الى الورع والتقوى ، وان لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة ، وجب ان يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ماليس فيه حرمة ولا كذب ، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الاذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة ، بقوله : ياقليل الحياء ويا سيء الخلق ! ويا صفيق الوجه ! .. وامثال ذلك ، اذا كان متصفا بها ومثل

قوله : جزاك الله وانتقم منك ! ومن انت ؟ وهل انت الا من بني فلان ؟ ومثل قوله : ياجاهل ! ويا احمق ! . وهذا ليس فيه كذب مطلقا ، اذ مامن احد الا وفيه جهل وحمق ، (اما الاول) فظاهر ، (وأما الثانى) فلما ورد من ان الناس كلهم حمقى في ذات الله .

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام ، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ « المستبان ماقالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم » (١).
وقول الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان : « البادىء منهما اظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد المظلوم » (٢) . وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر مالم يتعد ، ومعلوم ان المراد بالسب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولا ريب في ان الاقتصار على مجردماوردت به الرخصة بعدالشروع في الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن اصل الجواب وحوالة الانتقام الى رب الأرباب ايسر وافضل . مالم يؤد الى فتور الحمية والغيرة ، اذ اكثر الناس لايقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب . لاختلاف حالهم في حدوث الغضب وزواله . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى : منهم بطىء الغضب سريع الفىء . ومنهم سريع الغضب سريع الفىء فتلك بتلك . ومنهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ومنهم بطىء الغضب بطىء الفىء . ألاوان خيرهم البطىء الغضب السريـــع الفىء ، وشرهم السريع الغضب البطىء الفىء » وقد ورد في خبر آخر : « إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ، فهذه بتلك »

(١) صححنا الحديث على مافي احياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية وفي المطبوعة : « حتى يعتذر الى المظلوم » .

(٢) صححنا الحديث على مافي اصول الكافي في باب السفه وفي نسختنا الخطية والمطبوعة : « مالم يعتذر الى المظلوم » .

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام : ان يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم ان الحوالة الى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى ، وان انتقامه أشد وأقوى ، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته ، كما يأتي :

وصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو) ، وهو اسقاط ما يستحقه من قصاص او غرامة ، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والاخبار في مدحه وحسنه اكثر من ان تحصى ، قال الله تعالى سبحانه :

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » (١) وقال : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا » (٢) وقال : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ » (٣)

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاث والذي نفسي بيده ان كنت حالفاً لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا ، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعقبة : « ألا أخبرك بافضل أخلاق أهل

(١) الاعراف ، الآية : ١٩٩ .

(٢) النور ، الآية : ٢٢ .

(٣) البقرة ، الآية : ٢٣٧ .

الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطي من حرمك. وتعفو عمن ظلمك »(١) وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال موسى : يا رب ! أى عبادك أعز عليك ؟ قال : الذي اذا قدر عفى » . وقال سيد الساجدين (ع) « اذا كان يوم القيامة ، جمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد ، ثم ينادي مناد : أين أهل الفضل ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فتلقاهم الملائكة ، فيقولون: وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا نصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، ونعفو عمن ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ، ادخلوا الجنة» . وقال الباقر (ع): «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة » . وقال الصادق (ع) : « ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة : تعفو عمن ظلمك . . . الى آخر الحديث . وقال ابو الحسن (ع) « ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً » . وكفى للعفو فضلاً وشرافة انه من اجمل الصفات الالهية ، وقد يمدح الله تعالى به في مقام الخضوع والتذلل ، قال سيد الساجدين (ع) : أنت الذي سميت نفسك بالعفو ، فاعف عني » . وقال (ع) : « أنت الذي عفوه أعلى من عقابه » .

ومنها :

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الاقوال او الحركات ايضاً ، وهو من نتائج الغضب ، وضده (الرفق) ، أي اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم . ولاريب في ان الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي الى اختلال أمر المعاش والمعاد ، ولذلك نهى الله - سبحانه - نبيه عنه في مقام الارشاد ، وقال :

(١) في اصول الكافي في باب العفو : « ألا أدلكم على خير اخلاق الدنيا والآخرة تصل من قطعك . . . » الى آخر الحديث .

« وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (١) .

وروي عن سلمان : « انه قال : اذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء ، فاذا نزع منه الحياء ، لم يلقه إلا خائناً مخوناً ، واذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الامانة ، فاذا نزعت منه الامانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً ، فاذا كان فظاً غليظاً نزعت منه ربقة الايمان ، فاذا نزعت منه ربقة الايمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً » .

ويظهر من هذا الكلام ان من كان من اهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة ، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب ، ويقدم التروي على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق ، ويرتكبه في حركاته ، ولو بالتكلف ، الى ان يصير ملكة ، وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية .

وصل

(فضيلة الرفق)

الاخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من ان تحصى ، ونحن نشير الى شطر منها هنا ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لو كان الرفق خلقاً يرى ، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ، ولاينزع من شيء إلا شانه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لكل شيء قفل ، وقفل الايمان الرفق » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الله رفيق يحب

(١) آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

الرفيق ، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف » (١). وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً واحبهما الى الله تعالى ، أرفقهما بصاحبه» . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الرفق يمن، والخرق شؤم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من كان رفيقاً في امره نال ما يريده من الناس » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا أحب الله اهل بيت ادخل عليهم الرفق » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من اعطي حظه من الرفق اعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا أحب الله عبداً اعطاه الرفق ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اتدرون من يحرم على النار ؟ كل هين لين سهل قريب » . وقال الكاظم (ع) : « الرفق نصف العيش » . وقال (ع) لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام : « إرفق بهم ، فان كفر احدكم في غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه » .

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الامور وانجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم امره ودام ملكه ، وان كان فظاً غليظاً اختل امره وانفض الناس من حوله ، وزال ملكه وسلطانه في اسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما ، من ذوي المناصب الجليلة ، وارباب المعاملة والمكاسبة ، واصحاب الصنايع والحرف .

---

(١) روى هذان الحديثان في اصول الكافي ، في باب الرفق ، عن أبي جعفر الباقر ـ عليهما السلام ـ .

تكملة

(المداراة)

(المداراة) : قريب من الرفق معنى ، لأنها ملائمة الناس ، وحسن صحبتهم ، واحتمال أذاهم ، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الاذى في المداراة دون الرفق ، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والاخروية اخبار كثيرة كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المداراة نصف الايمان » ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وخلق يداري به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني باداء الفرائض » . وقول الباقر (ع) : « في التوراة مكتوب : فيما ناجى الله عز وجل - به موسى بن عمران (ع) : يا موسى ! اكتم مكتوم سري في سريرتك واظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي . . . الى آخر الحديث » (١) . وقول الصادق (ع) : « جاء جبرئيل الى النبي (ص) فقال : يا محمد ! ربك يقرئك السلام ، ويقول : دار خلقي » . وقوله (ع) : « ان قوما من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا (٢) من قريش ، وأيم الله ما كان

(١) وتمام الحديث في اصول الكافي في باب المداراة : « ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سري ، فتشرك عدوي وعدوك في سبي » . قال في الوافي : «ولا تستسب لي : أي لا تطلب سبي ، فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به ، فتشرك : أي تكون شريكا له ، لانك أنت الباعث له عليه .

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي بعض نسخ الكافي المصححة « فانفوا » ، وفي بعضها « فالقوا » . قال في الوافي : « فانفوا » ، كانه صيغة مجهول من الانفة بمعنى الاستنكاف ، اذا لم يأت الانفاء بمعنى النفي . وفي بعض النسخ : فالقوا من الالقاء ، ولعله الاصح » .

باحسابهم بأس ، وان قوماً من غير قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع . . . ثم قال : من كف يده عن الناس ، فانما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة » .

ومنها :

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام ، وامثال ذلك . وهو ايضاً من نتائج الغضب ، كما ان ضده ـ اعني (حسن الخلق بالمعنى الاخص) وهو ان تلين جناحك ، وتطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن ـ من نتائج الحلم ، واكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الاخبار يراد به هذا المعنى ولا ريب في ان سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ، والتجربة شاهدة بان الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق ، ويكون دائماً اضحوكة للناس ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم ، ولذا قال الصادق (ع) : « من ساء خلقه عذب نفسه » ، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وادائه الى العذاب الابدي ، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لما خلق الله الايمان قال : اللهم قوني ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قوني ، فقواه بالبخل وسوء الخلق » . وروي انه قيل له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها ! هي من أهل النار » . وعنه ـ صلى الله

عليه وآله وسلم ـ « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل (١) ». وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » . وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة ، قيل فكيف ذاك يارسول الله ! ؟ قال : « لانه اذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سوء الخلق ذنب لا يغفر » . وقال الإمام جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ : « اذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله اليه الشر ، فيقرب منه . فابتلاه بالكبر والجبروت ، فقسى قلبه ، وساء خلقه ، وغلظ وجهه ، وظهر فحشه ، وقل حياؤه ، وكشف الله تعالى سره ، وركب المحارم ولم ينزع عنها ، ثم ركب معاصي الله ، وابغض طاعته ، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات ، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه » . وقال بعض الاكابر : « لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلى من ان يصحبني عابد سيء الخلق » .

وطرق العلاج في ازالته : ان يتذكر اولاً انه يفسد آخرته ودنياه ، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق ، فيعد نفسه لازالته ، ثم يقدم التروى والتفكر عند كل حركة وتكلم ، فيحفظ نفسه عنده ـ ولو بالتحمل والتكلف ـ من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده ـ كما يأتي ـ ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالكلية .

وصل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت ان ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الاخص) ، فمن

---

(١) روى هذا الحديث اصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق ـ عليه السلام ـ ولكن جاء فيه « ليفسد العمل » بدل « يفسد العمل » .

معالجاتها ان يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية . واقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه ان يتذكر مايدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا : اماحكم العقل على مدحه فظاهر لايحتاج الى بيان ، واما النقل فالاخبار التي وردت به اكثر من ان تحصى . ونحن نورد شطراً منها تذكرة لمن أراد ان يتذكر ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق » وقال : « يابني عبد المطلب ! إنكم لن تسعوا الناس باموالكم . فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم بهما » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « حسن الخلق خلق الله الاعظم » . وقيل له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : أي المؤمنين أفضلهم ايماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « ان أحبكم الي واقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن محارم الله وحلم يكف به السيئة ، وخلق يعيش به في الناس » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «ان الخلق الحسن يميت الخطيئة ، كما تميت الشمس الجليد(١) وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة واشرف المنازل ، وانه يضعف العبادة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأم حبيبة : « ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة

(١) روى هذا الحديث في الكافي في باب حسن الخلق عن ابى عبد الله الصادق ـ عليه السلام ، وفي نهاية ابن الاثير : في الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » ، ويذيب بمعنى يميت .

وقال لها - بعد ما سألته ان المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لايهما هي ؟ - : « انها لاحسنهما خلقاً » . وقال صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم » (١). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أكثر ما يلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً ، الموطؤن أكنافاً (٢) الذين يألفون ويؤلفون » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . ولا ريب في ان سيء الخلق تتنفر عنه الطباع ، فلا يكون مألوفاً . وقال الامام ابو جعفر الباقر - عليهما السلام - : « ان اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً » ، وقال (ع) : « اتى رجل رسول الله ، فقال: يا رسول الله ! اوصني فكان فيما أوصاه ان قال : (الق اخاك بوجه منبسط) » وقال الصادق (ع) : « ما يقدم المؤمن على الله - عز وجل - بعمل بعد الفرائض احب الى الله تعالى من ان يسع الناس بخلقه » وقال (ع) : « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الاعمار » . وقال (ع) : « ان الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح » . وقال (ع): « ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الانفاق من اقتار ، والبشر لجميع العالم ، والانصاف من نفسه » . وقال (ع): « صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

---

(١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن ابي عبد الله - عليه السلام -

(٢) قال المبرد في الكامل ص٣ : « قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : الموطؤن اكنافاً ، مثل ، وحقيقته: ان التوطئة هي التذليل والتمهيد . . . فاراد القائل بقوله: موطأ الاكناف، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا ناب به موضعه

ومن تأمل في هذه الاخبار ، ورجع الى الوجدان والتجربة ، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه ، يجد ان كل سيء الخلق بعيد من الله ومن رحمته ، والناس يبغضونه ويشمئزون منه ، ولذا يحرم من برهم وصلتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعاً للمؤمنين بايصال نفعه وخيره اليهم ، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين واشرف اعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١)

ولعظم شرافته بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيه ما بلغ من غايته ، وتمكن على ذروته ونهايته ، حتى ورد : بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ذات يوم جالس في المسجد ، اذ جاءت جارية لبعض الانصار وهو قائم (٢) فأخذت بطرف ثوبه ، فقام لها النبي (ص) فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي (ص) شيئاً ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي (ص) في الرابعة ، وهي خلفه ، فاخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت . فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل ! (٣) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولاهو يقول لك شيئاً ! ما كانت حاجتك اليه ؟ قالت : ان لنا مريضاً فارسلني

---

(١) القلم ، الآية : ٤ .

(٢) قال في البحار ـ ج١٥ في باب حسن الخلق ص٢٠٧ ـ : « حال عن بعض الانصار » أي ان القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبي ـ صلى الله عليه وآله

(٣) قال في البحار ـ في الموضع المتقدم ـ : « كناية عن كثرة الدعاء عليها بايذائها النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وهذا شائع في عرف العرب والعجم » .

أهلي لآخذ هدبه من ثوبة يستشفي (١) بها . فلما أردت أخذها رآني فقام ، استحييت ان آخذها وهو يراني، واكره ان استأمره في أخذها ، فاخذتها»(٢).

ومنها :

الحقد

وقد عرفت انه اضمار العداوة في القلب ، وهو من ثمرة الغضب ، لأن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، وهو من المهلكات العظيمة . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المؤمن ليس بحقود » . والغالب ان الحقد يلزمه من الآفات: الحسد ، والهجرة ، والانقطاع عن المحقود ، وايذاؤه بالضرب، والتكلم فيه بما لا يحل : من الكذب، والغيبة ، والبهتان ، وافشاء السر ، وهتك الستر، واظهار العيوب ، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به ، والانبساط بظهور عثراته وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ، والاعراض عنه استصغاراً له ، ومنع حقوقه من دين او رد مظلمة او صلة رحم . وكل ذلك حرام يؤدي الى فساد الدين والدنيا . واضعف مراتبه ان يحترز عن الآفات المذكورة ، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به ، ولكن يستثقله بالباطن ، ولا ينتهي قلبه عن بغضه .

---

(١) قال في البحار ـ في الموضع المذكور ص ٢٠٨ ـ : « في بعض النسخ ـ بل اكثرها ـ : ليستشفي » .

(٢) صححنا الحديث على اصول الكافي في باب حسن الخلق، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما اثبتناه ، وقد جاء في اصول الكافي في صدر الحديث :« قال ابو عبد الله ـ عليه السلام ـ يا بحر حسن الخلق يسر ... ثم قال: ألا اخبرك بحديث ماهو في يدى أحد من اهل المدينة ؟ قلت بلى ! قال : بينا رسول الله ... الى آخر الحديث » .

وهو ايضاً من الامراض المؤلمة للنفس ، المانعة لها عن القرب الى الله والوصول الى الملأ الاعلى . ويمنع صاحبه عما ينبغي ان يصدر عنه بالنسبة الى اهل الايمان : من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة الى إعانتهم ومواساتهم . . . وغير ذلك . وهذا كله مما ينقص درجته في الدين ، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين .

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة ، فجميع الاخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمــــه ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما كان جبرئيل يأتيني إلا قال : يا محمد ! اتق شحناء الرجال وعداوتهم » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما عهد الي جبرئيل قط في شيء ماعهد الي في معاداة الرجال » . وقول الصادق (ع) : « من زرع العداوة حصد ما بذر » . . . وقس عليها غيرها .

وطريق العلاج في إزالته : ان يتذكر ان هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل ، إذ الحقود المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة ، ويعذبه في الأجل ومع ذلك لا يضر المحقود أصلاً ، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة لنفسه ونافعة لعدوه . وبعد هذا التذكر ، فليجتهد في ان يعامله معاملة احبائه : من مصاحبته بالانبساط والرفق ، والقيام بحوائجه ، وغير ذلك ، بل يخصه بزيادة البر والاحسان ، مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية . ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة ، وحقيقتها اضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر ، لا المحبة ـ كما يتراءى في بادى الرأي ـ إذ هي ضد الكراهة دون العداوة ـ كما يأتي في محله ـ فمن معالجات الحقد ان يتذكر فوائد النصيحة ومدحها ـ كما يأتي ـ ليعين على إزالته .

ومنها :

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد ، لأنه اذا قوى قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة . والأخبار الواردة في ذمها كثيرة ، وقد تقدم بعضها . وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما ، فليكلف نفسه عليها ، حتى تصير ملكة له ويزيل ضدها .

ومنها :

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد ، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة ، إلا ان الفاعل المباشر لهذه الامور هي القوة الغضبية ، او النفس لهيجان قوة الغضب . وان كان الهيجان حاصلاً بوساطة فعل قوة الشهوة . وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا ، ولذا أدرجناها تحتها فقط .

ثم لا ريب في كون هذه الامور مذمومة محرمة فى الشريعة ، موجبة لحبط الأعمال وخسران المال . وجميع ما يدل على ذم الايذاء والاضرار يدل على ذمها ، لكونها بعض أفرادهما . والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وايجابه للهلاك !

اما (الضرب) - فلأنه لا ريب في ان ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل ، ويذمه جميع طوائف العالم ، حتى نفاة الاديان ، والاخبار الواردة في ذمه كثيرة ، وفي عدة منها : « ان من ضرب رجلاً سوطاً لضربه الله سوطاً من النار » .

واما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) - فلا ريب في كونه صادراً عن خباثة النفس . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذى » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إياكم والفحش ، فان الله لايحب الفحش والتفحش » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الجنة حرام على كل فاحش ان يدخلها » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء » - وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » وروي : ان المراد بالبيان : كشف ما لا يجوز كشفه . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الاذى » . . . وعد منهم : رجلاً يسيل فوه قيحاً ، وهو من كان في الدنيا فاحشاً . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لاتسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم » (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذى قليل الحياء لا يبالى ما قال ولا ما قيل له ، فانك إن فتشته لم تجده إلا لغية (٢) او شرك شيطان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اذا رأيتم الرجل لايبالي ما قال ولا ما قيل فيه فانه - لغية او شرك شيطان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف » . وقال

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب : (بينهم) بدل (منهم) .

(٢) قال في القاموس في مادة (غوى) : « ولد غية - ويكسر - أى زنية - فيكون معنى (لغية) أى (لزنية) .

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ، وحرمة ماله كحرمة دمه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المتسابان شيطانان متعاديان ومتهاتران » . وقال الصادق (ع) : « من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه ان يكون فحاشاً لا يبالي ما (١) قال ولا ما (١) قيل فيه » . وقال (ع) : « البذاء من الجفاء ، والجفاء في النار » . وقال (ع) : « من خاف الناس لسانه فهو في النار » ، وقال : « ان أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » . وعن الكاظم (ع) في رجلين يتسابان : « فقال : البادي منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد المظلوم » (٢) .

(تنبيه) اعلم ان حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة . ويجري أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها ، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز . قال بعض الصحابة : « ان الله حي كريم يعف ويكني ، كنى باللمس عن الجماع » . فالمس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع ، وليست بفاحشة وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها . وليس هـــذا يختص بالوقاع ، بل

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب البذاء (بما) في الموضعين .

(٢) قد مضى في الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما في اصول الكافي في باب السفه . فصححناه هنا أيضاً .

الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما ، وكذا التعبير عن المرأة ، فهذا أيضاً مما يخفى ويستحيي منه ، فلا ينبغي ان تذكر ألفاظه الصريحة باللسان ، بل يكنى عنها ، فلا يقال : قالت زوجك او امرأتك ، بل يقال : قيل في الحجرة ، او قيل من وراء الستر ، وقالت أم الاولاد ، وأمثال ذلك ، وكذلك من به عيوب يستحي منها ، فلا ينبغي ان يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص ، والقرع ، والبهق ، وامثال ذلك بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة ، مثل العارض الذي عرض وما يجرى مجراه ، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش .

ثم ألفاظ الفحش لاريب ـ حينئذ ـ في كونها محظورة باسرها مذمومة ، وان كان بعضها أفحش من بعض ، فيكون أثمه أشد ، سواء استعمل في الشتم والايذاء او لايستعمل فيه ، بل في المزاح والهزل وغيرهما . وحينئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف بعادة البلاد ، فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً ، فان من قال لغيره مزاحاً او اعتياداً حاصلاً من مخالطة الفساق : (فرج امرأتك ضيق أم لا ؟) لاريب في كونه فحشاً محرماً مذموماً ، مع أنه لم يستعمل في الشتم. وبالجملة : أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة .

وأما (اللعن) ـ فلا ريب في كونه مذموماً ، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى ، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة . وقد ورد عليه الذم الشديد في الاخبار ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « المؤمن ليس بلعان » . وعن الباقر (ع) قال : « خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الناس ، فقال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا

بلى يارسول الله ! قال : الذى يمنع رفده ، ويضرب عبده ، ويتزدد وحده .
فظنوا ان الله لم يخلق خلقا هو شر من ذلك ، ثم قال : الا اخبركم بمن هو
شر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله ! قال. المتفحش اللعان الذى إذا
ذكر عنده المؤمنون لعنهم ، وإذا ذكروه لعنوه » . وقال الباقر عليه السلام:
« إن اللعنة إذاخرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فان وجدت مساغا وإلا
رجعت الى صاحبها » .

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد او طلب الابعاد من الله . (والاول)
غيب لايطلع عليه الا الله . (والثاني) لايجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده
منه ، فينبغى الا يلعن احداً الا من جوز صاحب الشرع لعنه ، والمجوز من
الشرع انما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين ، كما ورد في القران
ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الاعم . كقولك : لعنة الله على الكافرين .
او بوصف يخص بعض الاصناف . كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى.

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر او الظلم
او الفسق . (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع
كفرعون وابي جهل . لان كل شخص معين كان على احدى الصفات الثلاثة
ربما رجع عنها ، فيموت مسلماً أو تائباً ، فيكون مقرباً عند الله لامبعداً عنه
(كلام ينبغي) أن يطوى ولايروى ، إذا المستفاد من كلام الله تعالى وكلام
رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكلام أئمتنا الراشدين : جواز نسبته الى
الشخص المعين ، بل المستفاد منها ان اللعن على بعض أهل الجحود والعناد
من أحب العبادات واقرب القربات ، قال الله سبحانه :

« أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاس

أجْمَعِينَ (١) . وقال : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ » (٢) .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في جواب ابى سفيان حين هجاه بألف بيت. « اللهم إنى لاأحسن الشعر ولاينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف الف لعنة » . وقد لعن امير المؤمنين عليه السلام جماعة . وروى انه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وابى موسى الاشعرى وابى اعور الاسلمى ، مع أنه احلم الناس وأشدهم صفحاً عمن يسوء به ، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات . وروى الشيخ الطوسي : « ان الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن اربعة رجال » . ومن نظر الى ماوقع للحسن عليه السلام مع معاوية واصحابه وكيف لعنهم ، وتتبع ماورد من الائمة في الكافي وغيره من كتب الاخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم يعلم ان ذلك من شعائر الدين ، بحيث لايعتريه شك ومرية . وما ورد من قوله ـ عليه السلام ـ « لاتكونوا لعانين » ، ومثله ، نهى عن اللعن على غير المستحقين ، وما روى : ان امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ نهى عن لعن اهل الشام ، فان صح ، فلعله كان يرجو اسلامهم ورجوعهم اليه ، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية .

وبالجملة : اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز ، بل مستحب ، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز ، إلا ان يتيقن

(١) البقرة ، الآية : ١٦١ . (٢) البقرة ، الآية : ١٥٩

باتصافه باحدى الصفات الموجبة له . وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، اذ لايجوز ان يرم مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يرم رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق الا ارتد عليه ان لم يكن كذلك » .

ثم اللعن على الأموات اشد وزراً واعظم اثماً ، لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لاتسبوا الأموات ، فانهم قد افضوا الى ماقدموا » . ولا ينبغي ان يلعن الجماد والحيوان ايضا . لما روى : « انه مالعن احد الارض الا قالت: اللعن على اعصانا لله » ، وما روى : « ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم انكر على امراة لعنت ناقة ، وعلى رجل لعن بعيراً » . ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، الا اذا اضطر اليه لشره واضراره ، وقد ورد ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ « ان الملائكة اذا سمعوا المؤمن يذكر اخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا : بئس الاخ انت لاخيك ! كف ايها المستر على ذنوبه وعورته ، واربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عليك ! (١)

ثم ضد ذلك ـ اعني الدعاء للاخ المسلم بما يحب لنفسه ـ من احب الطاعات واقرب القربات ، وفوائده اكثر من ان تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا دعا الرجل لاخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يستجاب للرجل في اخيه مالا يستجاب له في نفسه » . وقال علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ : « ان الملائكة اذا

(١) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين عليهما السلام

سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير ، قالوا : نعم الأخ انت لأخيك ! تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير . قد أعطاك الله ـ عز وجل ـ مثلي ما سألت له ، واثنى عليك مثلي ما اثنيت عليه، ولك الفضل عليه ». ومثله ورد عن الباقر ـ عليه السلام ـ أيضاً . والاخبار في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصى ، واى كرامة اعظم لك من أن تصل منك الى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية ، وهل تدرى كيف تسر روحه منك بهذا العمل ؟ فان اهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف، وانت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل ، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد اوأخ اوقريب ، وانه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال ، وهو للاموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور ، فيقول : هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان فيفرح كما يفرح الحي بالهدية (١) .

وأما (الطعن) ـ فهو ايضاً من ذمائم الافعال ، ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الاخرى . قال الباقر ـ عليه السلام ـ : « إياكم والطعن على المؤمنين » . وقال ـ عليه السلام ـ : « ما من انسان يطعن في عين مؤمن الا مات شر ميتة ، وكان قمناً ألا يرجع الى خير » .

واعلم ان هذه الامور ـ اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتى

(١) هذا الكلام من بعد الحديث الذى وضعناه بين قوسين رواه في احياء العلوم ـ ج٢ ص ١٦٤ ـ عن بعض السلف ، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت (ع) . روى منها في الوسائل في أبواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج) .

في موضعه : من الغيبة . والكذب ، والبهتان ، والاستهزاء ، والمزاح ، والخوض في الباطل ، والتكلم بالفضول وما لايعني : من آفات اللسان ، ويأتي أن لجميع آفات اللسان ضداً عاماً هو الصمت ، ويأتي بيان فضيلته وكثرة فوائده . ويأتي أيضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان ـ اعني ما ورد في ذم اللسان ، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء ـ فانه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور .

ومنها ـ أي ومن رذائل القوة الغضبية ـ :

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا . وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر ام لا ، وقيل : « هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان إضافتها الى المنعم » وهو قريب مما ذكر ، ولايعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزية على غيره في صفة كمال ، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به .

والعجب لايستدعي غير المعجب ، بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً ، ولايتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ولايكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فانه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى في غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وليس متكبراً ولا يكفي أن يستحقر غيره ، فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل

نفسه لم يكن متكبراً ، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره

والحاصل : أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة ، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما الى الله . فان لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكدرها أو سلبها بالمرة ، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها الى نفسه لم يكن معجباً، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها، بل يكون فرحاً بها مطمئناً اليها . فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه ، لا من حيث انها عطية منسوبة الى الله تعالى . ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب.

ثم لو انضاف الى العجب ـ اى غلب على نفس المعجب ـ أن له عند الله حقاً ، وانه منه بمكان ، واستبعد ان يجري عليه مكروه ، وكان متوقعاً منه كرامة لعمله ، سمي ذلك (ادلالاً) بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة فهو وراء العجب وفوقه إذ كل مدل معجب ، ورب معجب لا يكون مدلا ، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الاضافة الى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله ، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه ، فالادلال عجب مع شيء زائد .

وعلى هذا ، فمن أعطى غيره شيئاً ، فان استعظمه ومن عليه كان معجباً ، وان استخدمه مع ذلك او اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه . وكما ان العجب قد يكون بما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطىء فيه ويراه حسناً ، كما قال سبحانه:

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً » (١)

(١) الفاطر ، الآية : ٨ .

وقال ابو الحسن - عليهما السلام - : « العجب درجات : ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً ، فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً . ومنها ان يؤمن العبد بربه ، فيمن على الله - عز وجل - ولله عليه فيه المن » .

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو اكبر من ذلك : العجب العجب » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « بينما موسى (ع) جالس (١) ، إذ اقبل عليه ابليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنى منه خلع البرنس ، وقام الى موسى (ع) فسلم عليه ، فقال له موسى : من أنت ؟ فقال : انا ابليس ، قال أنت : فلاقرب الله دارك ، قال : إنى انما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله ، فقال له موسى (ع) : فما هذا البرنس قال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال موسى : فاخبرني بالذنب الذى اذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال : اذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال الله - عز وجل - يا داود ! بشر المذنبين وانذر الصديقين ، قال : كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين انى اقبل التوبة وأعفو عن الذنب ، وانذر الصديقين ألا يعجبوا باعمالهم ، فانه ليس عبد انصبه للحساب إلا هلك » .

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا : (جالساً) - بالنصب -

وقال الباقر (ع) : « دخل رجلان المسجد ، احدهما عابد والآخر فاسق ، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب » . وقال الصادق (ع) « إن الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب ابداً » . وقال (ع) : « من دخله العجب هلك » . وقال (ع) : « ان الرجل ليذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسره ذلك ، فيتراخى عن حاله تلك ، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه » . وقال (ع) : « اتى عالم عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته وانا اعبد الله منذ كذا وكذا ، قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : ابكي حتى تجرى دموعى ، فقال له العالم : فان ضحكك وانت خائف افضل من بكائك وانت مدل ، ان المدل لايصعد من عمله شيء » . وقال (ع) : « العجب ممن يعجب بعمله وهو لايدري بمايختم له ، فمن اعجب بنفسه وفعله ، فقدضل عن نهج الرشاد وادعى ماليس له ، والمدعى من غير حق كاذب وان اخفى دعواه وطال دهره . وان اول ما يفعل بالمعجب نزع مااعجب به ليعلم انه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه او كد ، كما فعل بابليس . والعجب نبات حبها الكفر ، وارضها النفاق وماؤها البغى ، واغصانها الجهل ، وورقها الضلالة ، وثمرها اللعنة والخلود في النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد ان يثمر »(١) وقيل له (ع) : الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ، ثم يعمل شيئاً من البر

---

(١) صححنا هذه الرواية على ماني البحار - الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب - وقد نقلها عن مصباح الشريعة ، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات .

فيدخله شبه العجب به ، فقال : « هو في حالة الاولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه » . وقال (ع) : « ان عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ كان من شرائعه السيح في البلاد ، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من اصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء . فقال الرجل القصير حين نظر الى عيسى جازه بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على الماء ، ولحق بعيسى ـ صلى الله عليه ـ ، فدخله العجب بنفسه ، فقال : هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وانا أمشي على الماء ، فما فضله علي ؟! قال : فرمس في الماء ، فاستغاث بعيسى (ع) ، فتناوله من الماء فاخرجه ، ثم قال له : ماقلت ياقصير؟! قال قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وانا أمشي ، فدخلني من ذلك عجب ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذى وضعك الله ، فمقتك الله على ماقلت ، فتب الى الله ـ عز وجل ـ مما قلت ، قال : فتاب الرجل ، وعاد الى مرتبته التي وضعه الله فيها » (١) .

فصل

(آفات العجب)

العجب آفاته كثيرة : (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما يأتي ـ (ومنها) أنه يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها ، فلا يتذكر شيئاً منها ، وان تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها ، بل يظن انها تغفر له . واما العبادات ، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، واذا اعجب بها عمي عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الاعمال ضل سعيه ، إذ الاعمال الظاهرة اذا

(١) صححنا أكثر هذه الاحاديث على الكافي في باب العجب والحسد .

لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وانما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب ، لانه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن انه عند الله بمكان ، وان له عند الله حقاً باعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه ، وربما يخرجه العجب الى تزكية نفسه والثناء عليها . وان أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الاعلم ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتني بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر الى غيره بعين الاستحقار والاستجهال ، فان كان رأيه الفاسد متعلقاً بأمر دنيوى أضره وفضحه ، وان كان متعلقاً بأمر ديني ـ (لا) سيما في أصول العقائد ـ أضله وأهلكه . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة ، لكان خيراً له وأحسن ، وموصلا له الى الحق المتيقن . ومن آفاته انه يفتر في الجد والسعي ، لظنه انه قد استغنى وفاز بما ينجيه ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه .

فصل

(علاج العجب اجمالاً وتفصيلاً)

إعلم ان للعجب علاجين : اجمالياً وتفصيلياً (١)

اما العلاج الاجمالي ـ فهو ان يعرف ربه ، وانه لا تليق العظمة والعزة إلا به ، وان يعرف نفسه حق المعرفة ، ليعلم انه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة ، فما له والعجب

(١) وفي النسخ : (اجمالي وتفصيلي) .

واستعظام نفسه ، فانه لاريب فى كونه ممكناً ، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشيء ، كما ثبت في الحكمة المتعالية ، ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعاً من الواجب الحق ، فالعظمة والكبرياء انما تليق بمفيض وجوده وكمالاته ، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس ، فان شاء ان يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحق يراها صرف العدم ومحض اللاشيء . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان .

واما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبنى نوعه ، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة ، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة ،وقد مرّ على مجرى البول ثلاث مرات . وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهي قوله :

« قُتِلَ الإِنْسَانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ » (١) .

فقد أشارت الآية الى انه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي ، ثم خلقه من أقذر الاشياء الذي هو نطفة مهينة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة .

واى شيء اخس وارذل ممن بدايته محض العدم ، وخلقته من انتن الاشياء واقذرها ، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة . وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل ، لم يفوض اليه أمره ، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا لغيره ، إذ سلطت عليه الامراض الهائلة ، والاسقام العظيمة ، والآفات

(١) عبس الآية : ١٧ ـ ٢٢ .

المختلفة ، والطبائع المتضادة ، من المرة والدم والريح والبلغم ، فيهدم بعض أجزائه بعضاً ، شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرهاً ، ويعطش كرهاً ، ويمرض كرهاً ، ويموت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً وضراً ولا خيراً وشراً. يريد ان يعلم الشيء فيجهله ، ويريد ان يذكر الشيء فينساه ، ويريد ان ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد ان ينصرف قلبه الى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار . فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه . يشتهي الشيء وفيه هلاكه ويكره الشيء وفيه حياته ، يستلذ مايهلكه ويرديه ويستبشع ماينفعه وينجيه، ولا يأمن في لحظة من ليله او نهاره ان يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتختطف روحه ، ويسلب جميع مايهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل ، ان ترك فنى ، وان خلى ما بقى ، عبد مملوك ، لايقدر على شيء من نفسه ولا من غيره ، فأي شيء أذل منه لوعرف نفسه ؟ وأنى يليق العجب به لولا جهله ؟ . وهذا وسط أحواله.

واما آخره ، فهو الموت ـ كما عرفت ـ فيصير جيفة منتنة قذرة ، ثم تضمحل صورته ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، وتتفتت أجزاؤه ، فيصير رميماً رفاتاً ، ثم يصير روثاً في أجواف الديدان ، يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل انسان ، واحسن أحواله ان يعود الى ما كان ، فيصير تراباً تعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فما أحسنه لو ترك تراباً ، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع اجزائه المتفرقة ، ويساق الى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ، وارضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً منكسفة ، وجحيماً مسعرة ، وجنة مزينة ، وموازين منصوبة ، وصحائف منشورة ، فاذا هو في معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه إما بيمينه او شماله ،

فيرى فيه جميع اعماله وافعاله ، من قليل وكثير ونقير وقطمير . فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار، تمنى ان يكون كلباً اوخنزيراً لصير مع البهائم تراباً ولا يلقى عقابا ولا عذاباً . ولا ريب في ان الكلب والخنزير احسن واطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار ، إذ أولهما وآخرهما التراب، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق ، ولورأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقاه في بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة .

فما لمن هذه حاله والعجب واستعضام نفسه ! وما اغفله من التدبر في احوال يومه وامسه ! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به الى النار فانما ذلك للعفو ، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنباً ، وكل من اذنب ذنباً استحق عقوبة ، فلو لم يعاقب فانما ذلك للعفو . ولا ريب في ان العفو ليس يقيناً، بل هو مشكوك فيه ، فمن استحق عقوبة ولا يدري ايعفى عنها ام لا ، يجب ان يكون ابداً محزوناً خائفاً ذليلاً ، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى ان من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلاً ، فأخذ وحبس في السجن . وهو منتظر ان يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدري ايعفى عنه ام لا ، كيف يكون ذله في السجن ؟ افترى انه مع هذه الحالة يكون مُعجباً بنفسه ؟ ! ولا اظنك ان تظن ذلك . فما من عبد مذنب ، ولو اذنب ذنباً واحداً ، إلا وقد استحق عقوبة من الله، والدنيا سجنه ، ولا يدري كيف يكون امره ، فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة . فلا يجوز له ان يعجب ويستعظم نفسه .

هذا هو العلاج الاجمالي للعجب .

واما التفصيلي - فهو ان يقطع اسبابه - اعني ما به العجب - وهي العلم، والمعرفة ، والعبادة ، والطاعة ، وغير ذلك من الكمالات النفسية ، كالورع، والشجاعة ، والسخاوة ، والنسب ، والحسب ، والجمال ، والمال ، والقوة ، والبطش ، والجاه ، والاقتدار ، وكثرة الاعوان والانصار ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الامور ، والراي الخطأ .

اما (العجب بالعلم) : فعلاجه ان يعلم ان العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة ، وان من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله سبحانه، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات . وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة ، والاعتراف بالقصور والتقصير فى اداء حقوق الله، والشكر بازاء نعمه، ولذا قيل: « من ازداد علماً ازداد وجعاً » . فالعلم الذي لايوجب ذلك ويورث العجب ، اما ليس علماً حقيقياً، بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي ان تسمى صناعات لاعلوماً ، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردى الأخلاق لم يهذب نفسه اولاً ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها فى عبادة ربه ، فيبقى خبيث الجوهر ، فاذا خاض في العلم وان كان علماً حقيقياً صادف من قلبه منزلا خبيثاً ، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره ، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافياً ، فاذا شربته الأشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة ، كذلك العلم اذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة ، والطيب الصافي طيباً وصفاء

واذا علم ذلك ، يعرف انه لا ينبغي العجب بالعلم ، ويجب ايضاً ان يعلم انه اذا اعجب بنفسه صار ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه ، لما تقدم من الاخبار وقد احب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه . وقال بواسطة سفرائه : « ان لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً ، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك

عندي » (١) . وقال : « صغروا انفسكم ليعظم عندي محلكم » . فلابد ان يكلف نفسه مايحب مولاه ، وان يعلم ان حجة الله على اهل العلم اوكد ، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم ، لأن العالم اذا زل زل بزلته كثير من الناس ، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته افحش اذالم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ، ولذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق اقتابه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به اهل النار ، فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه » . وقد مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار (٢) ، وبلعم بن باعوراء بالكلب (٣) ، لعدم عملهم بما علموه .وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن اعلم منا » ثم التفت الى اصحابه فقال : « اولئك منكم ايها الأمة ، اولئك هم وقود النار » .وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان اهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه وان اشد اهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فادخله الله الجنة ، وادخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل » وقال روح الله (ع) : « ويل لعلماء السوء (٤) كيف

---

(١) هذا كلام بنصه مذكور في احياء العلوم ـ ج٣ ص٣١٢ ـ ويظهر منه انه من كلامه هو او مقتبس من مضامين الاخبار ، لا انه نص حديث ، وكذا ما بعده وهو قوله : « صغروا . . . » .

(٢) اشارة الى قوله تعالى ـ في سورة الجمعة الآية ٥ ـ : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً » .

(٣) اشارة الى قوله تعالى ـ في سورة الاعراف الآية ١٧٦ ـ : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث » .

(٤) في النسخ المصححة للكافي ـ باب لزوم الحجة على العالم ـ هكذا : « للعلماء

تتلظى عليهم النار » . وقال الصادق (ع) : يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد » .

ولا ريب في ان كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها ، وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر ، يكون من علماء السوء ، وممن لم يعمل بعلمه ، فيكون داخلا تحت هذه الاخبار . واي عالم يتصور في امثال هذه الازمنة ان يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وامر به ، ولم يضع شيئاً من اوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما امر به من التكاليف العامة والخاصة به؟ فخطره اعظم من خطر غيره ، كيف وقد روى : « ان حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم قال : لتلتمسن إماماً غيري او لتصلن وحدانا ، فاني رأيت في نفسي انه ليس في القوم افضل مني » . فاذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الامة ، فما أعز على بسيط الارض في هذه الاعصار علماء الآخرة الذين اقبلوا على شأنهم ، واستوحشوا من أوثق اخوانهم ، وشغلهم عظيم الامر عن الالتفات الى الدنيا وزهرتها ، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها ، ولا يشتهون من نعيم الدنيا حاراً ولا بارداً ، وصارت همومهم هماً واحداً ، هيهات! فاني يسمح آخر الزمان بمثلهم ، فهم ارباب الاقبال واصحاب الدول ، وقد انقرضوا في القرون الأول ، بل يعز ان يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء ، ولم يكن متكبراً على الفقراء ، ومتواضعاً للاغنياء . فينبغي لكل

ـ السوء بتعريف العلماء ـ ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فاثبتناه بلا تعريف قال صاحب مجمع البحرين ـ مادة (سوء) ـ : « تقول هذا رجل سوء بالاضافة ثم تدخل عليه الالف واللام ، فتقول هذا رجل السوء . ولا يقال الرجل السوء . كذا قاله الجوهري » .

عالم ان يتفكر في احواله واعماله وما اريد منه ، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه .

واما (العجب بالعبادة والطاعة) : فعلاجه ان يعلم ان الغرض من العبادة هو اظهار الذل والانكسار ، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها ، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التي لايصح بدونها كثيرة ، فيمكن ان تدخلها بعض الآفات ، او تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عند الله ، ومع امكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات ؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الامور. على ان فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً ، ومن جوز ان يكون عند الله شقياً ، وقد سبق القضاء الآلهي بشقوته ، فأى نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب في انه لا يخلو عبد عن هــذا التجويز ، فما لأحد الى العجب والتكبر في حال من الاحوال سبيل .

واما (العجب بالورع ، والتقوى ، والصبر ، والشكر ، والسخاوة ، والشجاعة، وغيرها من الفضائل النفسية) : فعلاجه ان يعلم ان هذه الفضائل انما تكون نافعة ومنجية اذا لم يدخلها العجب، واذا دخلها العجب ابطلها وافسدها، فما للعاقل ان يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل ، وأنى له لايظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير ، وتصير عاقبته محمودة ، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة . وينبغي ان يعلم ان كل واحد من الفضائل التي يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه، واذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال اعجابه بها . وقد نقل ان

واحداً من مشاهير الشجعان اذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه ، فقيل له : ما هذه الحالة وانت اشجع الناس واقواهم؟ فقال اني لم امتحن خصمي ، فلعله أشجع مني . وايضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة ، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة ، فان الله عند المنكسرة قلوبهم .

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية : ان يقابل سببه بضده ، اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ، فنقول :

الكمال الذي به يعجب إما ان يكون يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه ، او من حيث انه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته ، فان كان (الأول) ، فهو محض الجهل ، لأن المحل مسخر ، وانما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره ، ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له . وان كان (الثاني) ، فينبغي ان يتأمل في قدرته وارادته واعضائه، وسائر الاسباب التي بها يتم كماله وعمله، انها من اين كانت له؛ فان كان علم ان جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له، فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فان ظن انه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة ، كحبه له تعالى او مثله ، فيقال له الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ، إبتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك .

فاذاً لا معنى لعجب العالم بعلمه ، وعجب العابد بعبادته، وعجب الشجاع

بشجاعته، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بماله، لأن كل ذلك من فضل الله، وانما هو محل لفيضان فضل الله وجوده . والمحل ايضاً من فضله وجوده، فانه هو الذي خلقك، وخلق اعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم والارادة ، ولو أردت ان تنفي شيئاً من ذلك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في اعضائك مستبدأ باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاختراع ، إلا انه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوة وفي القلب ارادة ، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الذي هو محله، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل اليك انك مستقل بإيجاد عملك ، وقد غلطت ، فان تحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الاسباب كلها من الله، ليس شيء منها اليك .

ومن العجائب ان تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن اليه الامر كله ، ولا تعجب بجوده وكرمه ، وفضله في ايثاره إياك على الفساق من عباده ، اذ مكنهم من اسباب الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك ، حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك .

روي : « ان أيوب (ع) قال : (إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء ، وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي) . فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت : ياأيوب! انى لك ذلك؟ قال : فاخذ رماداً فوضعه على رأسه ، وقال منك يا رب ! فرجع عن نسيانه ، واضاف ذلك الى الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى :

« وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً » (١) .

(١) النور ، الآية : ٢١ .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « ما منكم من أحد ينجيه عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : « ولا انا إلا ان يتغمدني الله برحمته » .

(فان قيل) : ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال وعللها جميعاً الى الله تعالى ، يؤدي الى الجبر ونفى التكليف ، وبطلان الثواب والعقاب ، (قلنا) : هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر ، ولا يليق بيانها هنا (١) . ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف ـ اعني افعاله المرضية ـ بل نفينا استقلاله فيها . نعم ، في غيرها من المحال والاسباب والصفات اللازمة ، والتوفيق ، وتحريك البواعث ، وصرف الموانع ، لا قدرة له فيها اصلاً ، ولا يلزم منه فساد .

واما (العجب بالحسب والنسب) : فعلاجه يتم بمعرفة امور :

الأول ـ ان يعلم ان التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل ، فانه لو كان خسيساً في صفات ذاته ، فمن اين يجبر خسته كمال غيره ، ولو كان أباه أو جده ، بل لو كان الذي يعجب به بالانتساب حياً لكان له ان يقول : الفضل لي لا لك وانت دودة خلقت من فضلتي ، أفترى ان الدودة التي خلقت من فضلة الانسان اشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار ؟ ! هيهات ! فانهما متساويان في الخسة ، ان الشرف للانسان لا للدودة ، ولذا قال أمير المؤمنين (ع) :

انا ابن نفسي وكنيتي أدبي   من عجم كنت او من العرب
إن الفتى من يقول ها أنذا   ليس الفتى من يقول كان ابي

وقيل :

---

(١) تقدم ذكر هذا الامر ص ١٤١ .

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روي : « ان اباذر قال بحضرة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لرجل : (يا ابن السوداء !) ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : (يا اباذر ! طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل). فاضطجع ابو ذر وقال للرجل : قم فطأ على خدي » . وروى : « ان بلالاً لما أذن يوم الفتح على الكعبة ، قال جماعة : هذا العبد الاسود يؤذن ! فنزل قوله تعالى :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »(١) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الله قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ اي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » . ونقل : ان واحداً من رؤساء اليونان افتخر على غلام ، فقال له : إن كان منشأ افتخارك آباءك فالتفوق لهم لالك ، وان كان لباسك فالشرافة له دونك ، وان كان مركوب فالفضيلة له لالك . فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة ولذا قال متمم مكارم الاخلاق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا تأتوني بأنسابكم وائتوني باعمالكم » .

الثاني ـ ان يعرف نسبه الحقيقي ، فان أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله نسبه فقال :

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ

(١) الحجرات ، الآية : ١٣

نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ»(١).

والاصل الذي يوطأ بالاقدام او تغسل منه الاجسام اي رفعة يكون لفرعه !

الثالث ـ ان يعلم ان من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه ، ان كانوا من اهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر انه ما كان من اخلاقهم العجب ، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فان اقتدى بهم في اخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز ، وإلا كان طاعناً في نسبه بلسان حاله . وان لم يكونوا من اهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظلمة واعوانهم ، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم ! إذ الانتساب الى الكلاب والخنازير احسن من الانتساب اليهم ، كيف وانهم ممقوتون عند الله معذبون في النار ، بحيث لو نظر الى صورهم في النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة ، لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم ، ولذلك قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم ، او ليكونن اهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر » وروى : انه افتخر رجلان عند موسى (ع) ، فقال احدهما : انا فلان بن فلان ، حتى عد تسعة ، فاوحى الله تعالى الى موسى: « قل للذي افتخر : بل التسعة من اهل النار وانت عاشرهم ! ».

واما (العجب بالجمال) : فعلاجه ان يعلم انه في معرض الزوال بالعلل والآلام والامراض والاسقام ، وأي عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم او قرحة او جدري !

---

(١) السجدة ، الآية ٧ ـ ٨ .

بر مال وجمال خويشتن غره مشو

كآن را بشي برندواين را به تبي (١)

ولو لم يرتفع بها ، فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومجيء الشيب وبالموت الذي لابد ان تذوقه كل نفس ؟ فانظر الى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور ، بحيث استقذرتها الطباع

على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله ، لرأى من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به ، فانه وكلت اليه (٢) الاقذار في جميع اجزائه : (البصاق) في فمه ، (والمخاط) في انفه ، (والوسخ) في اذنه ، (والنتن) تحت ابطه ، (والصديد) تحت بشرته ، (والفضلات) في معدته ، (والرجيع) في امعائه ، (والديدان) في احشائه ، (والبول) في مثانته ، (والصفراء) في مرارته ، يتردد الى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا ان يمسه او يشمه . وفي اول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور : من النطفة ودم الحيض ، وخرج من مجاري الاقذار ، اعني الصلب والذكر والرحم والفرج. ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالغسل والتنظيف ، لثارت منه الانتان والاقذار ، وصار اقذر وانتن من الدواب المهملة . هذا اوله ووسطه ، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار . فما للعاقل ان يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته .

واما (العجب بالمال) : فهو عجب بامر خارج عن ذات الانسان ، فهو اقبح انواع العجب . وعلاجه ان يتفكر في آفات المال ، وكونه في معرض

(١) معنى البيت : (لا تغتر بمالك وجمالك ، فان ذاك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة) .

(٢) وفي النسخ : « وكل به » ، ورجحنا ما اثبتناه .

الفناء والزوال ، من الغضب والنهب والحرق والغرق ، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية ، ويتذكر ان في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال . واف لشرف يسبقه اليهود والهندو ! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلساً !! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء ، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء ، وسبقهم الى الجنة في القيامة ، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه ، إذ امر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » (١) ، اشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وكيف يتصور المؤمن العاقل ان يعجب بالمال ويفرح به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله ، وايجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة ، والعقوبة والنكال ان كان حراماً ، وانحطاط المرتبة والدرجة ان كان حلالا ، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره ، في القيام بحقوقه ، واخذه من حله ، ووضعه في حقه .

واما (العجب بالقوة وشدة البطش) : فعلاجه ان يتذكر ما سلط عليه من العلل والامراض ، وان حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها مالا ينجبر في مدة ، وانه لو وجع عرق واحد من بدنه صار اعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وانه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه . وان بقة لو دخلت في انفه او نملة دخلت في اذنه لقتلته ، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . ثم أقوى إنسان لايكون اقوى من حمار او جمل او فيل او بقر ، واي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهائم فيها ، هذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه .

(١) هذا الحديث صححناه على مافي احياء العلوم ـ ٣ : ٣٢٢ ـ .

واما (العجب بالجاه ، والمنصب ، وولاية السلاطين ، وكثرة الأتباع والانصار : من الاولاد والاقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) : فعلاجه ان يعلم ان كل ذلك في معرض الانقطاع ، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة ، اما بفنائه وموته او بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة ، وانما هي خيالات تظن شيئاً وليست بشيء ، وستفترق عنه اذا مات ودفن في قبره ذليلا مهيناً وحده ، لايرافقه اهل واولاد ولا أعوان وأتباع ، فيسلمونه الى البلاء والى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئاً ، وهو في أحوج اوقاته اليهم ، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد احواله ! على انهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه مايشتهونه من البذل والاعطاء فلابد له من ايقاع نفسه في المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته ، لتحصيل الاموال من الوجوه المحرمة وصرفها اليهم ، ليستمروا على متابعته واعانته ، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته ، فضلا عن بقائهم على حمايته واطاعته . ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر ، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق .

واما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الامور) : فعلاجه ان يعلم ان ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه ، وربما زال عقله دفعة . مع انه ان كان في الواقع فطناً كيساً في الأمور يلزم عليه ان يشكر الله تعالى على ذلك ، ويستصغر (١) عقله وفطانته ، ليبقي الله تعالى عليه تلك النعمة ولا يسلبها عنه لأجل عجبه .

واما (العجب بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله) : فهو أقبح أنواع العجب ، إذ جميع اهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة

(١) في النسخ : « يستغفر » ، فرجحنا ما اثبتناه .

وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم ، وبذلك هلكت الامم إذا افترقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، و :

«كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »(١).

فكل من استحسن مايسوقه اليه الهوى والشبهة ـ مع ظن كونه حقاً ـ يكون له هذا العجب ، وقد أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « ان ذلك يغلب على آخر هذه الامة » . وعلاجه اشد من علاج غيره ، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه ، ولو عرفه لتركه. ولا يعالج الداء الذي لايعرف إذ العارف يقدر على ان يبين للجاهل جهله ويزيله عنه اذا لم يكن معجباً برأيه وجهله ، واذا كان معجباً به يتهمه ولا يصغى اليه حتى يعالجه ، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن انها نعمة . وكيف يطلب الهرب عما يعتقد انه سبب سعادته! وانما علاجه في الجملة ان يكون متهما لرأيه لايغتر به ، إلاان يشهد له قاطع عقلي او نقلي لايعتريه ريب وشبهة .

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت ، وقريحة تامة مستقيمة ، مع جد وتشمير في الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة أهل العلم ومدارسة العلوم طول العمر ،ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط . فالصواب للكل ـ إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم ـ ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولايصغي اليها ، ويتبع أهل الوحي فيما جاؤا به من عند الله في الاصول والفروع .

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٥٣ .

وصل

(انكسار النفس)

ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة . وكما ان العجب بمجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، فكذا ضده بمجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه ، إذ الاول مع اعتبار الثاني تكبر ، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع ، وهما ضدان .

ثم لاريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فانما بلغ بهذه الصفة ، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة (١) يمسكانها ، فان هو رفع نفسه جبذاها (٢) ثم قالا : اللهم ضعه ، وان وضع نفسه قالا : اللهم ارفعه » (٣) . وروي : « انه اوحى الله تعالى الى موسى (ع) : ان يا موسى ! أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال : يارب ! ولم ذلك ؟ فاوحى الله تبارك وتعالى اليه : اني قلبت عبادي ظهراً لبطن ، فلم أجد فيهم أحداً أذل نفساً لي منك ، ياموسى! إنك اذا صليت وضعت خدك على التراب » . وروى : « انه لما أوحى الله تعالى الى الجبال. أني واضع سفينة نوح عندي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودي ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل ، فقال نوح عند ذلك : (يا ماری اتقن) وهو بالسريانية : رب اصلح » (٤)

(١) الحكمة بالتحريك : ما احاط بحنكي الفرس من لجامه .

(٢) بمعنى جذباها .

(٣) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم ـ ج٢ ص٣٢٩ ـ .

(٤) هذا الحديث وماقبله رواهما الكافي في باب التواضع . فصححناهما عليه

ومنها :

الكبر

وقد عرفت : انه الركون الى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه ، فهو يستدعي متكبراً عليه . وبه ينفصل عن العجب ، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير ، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه .

ثم الكبر ـ أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير ـ هو خلق الباطن يقتضي اعمالا في الظاهر هي ثمراته ، وتسمى تلك الاعمال الظاهرة الصادرة منه تكبراً ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطناً فوق الغير ، من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) . واذا ظهرت الاعمال يقال له (تكبر) وهذه الاعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به ، كالترفع عن مواكلته ومجالسته ، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وابعاده عن نفسه ، وابائه عن الجلوس بجنبه ، وانتظاره ان يسلم عليه ، وتوقعه ان يقوم ماثلا بين يديه ، والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه في ارشاده ونصحه ، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات ، وعدم الالتفات اليه في المحاورات ، وتوقع التقديم عليه في كل ما يدل على التعظيم عرفاً . وبالجملة : الاعمال الصادرة عن الكبر كثيرة ، ولاحاجة الى احصائها ، لكونها مشهورة معروفة ، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب ، إذ فاعلهما يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقارهم ، فهما يقتضيان متكبراً عليه ، فيكونان من انواع التكبر ، وما ورد في ذمهما يدل

أيضاً على ذمه ، كما يأتي . وهذه الافعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد او الحسد او الرياء ، وان لم تكن في النفس عزة وتعظم .

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفة عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الانام فضلا من غيرهم من العوام ، وهو الحجاب الاعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين ، إذ فيه عز يمنع عن التواضع ، وكظم الغيظ ، وقبول النصح ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس ، وغير ذلك . فما من خلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر اليه ، ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه . خوفاً من فوات عزه . ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والاخبار ، قال الله سبحانه :

« كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » (١) . وقال : « سأَصْرِفُ عَنْ آياتي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ » (٢) . وقال : « وَالمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ . . . الى قوله : وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » (٣) . وقال : « ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ » (٤) . وقال : « فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ

(١) غافر ، الآية : ٣٥ .
(٢) الاعراف ، الآية : ١٤٦ .
(٣) الانعام ، الاية ٩٣ .
(٤) الزمر ، الآية : ٧٢ .

مُسْتَكْبِرُونَ » (١). وقال : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٢). وقال: إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ (٣).

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » (٤)، وقال : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته ، لقي الله وهو عليه غضبان » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطراً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قال الله . الكبرياء ردائي والعظمة ازاري ، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ، يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يدخل الجنة جبار ، ولا بخيل ، ولا سيء الملكة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك جبار ، ومقل مختال » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي

(١) النحل ، الآية : ٢٣

(٢) غافر ، الآية : ٦٠ .

(٣) غافر ، الآية : ٥٦ .

(٤) روى الحديث في الكافي عن أحد الصادقين ـ عليهما السلام ـ في باب الكبر ، وجاء فيه هكذا : « الكبر » بتعريف كبر .

الجبار الاعلى ، بئس العبد عبد تبختر واختال ونسى الكبير المتعال ، وبئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ جعظرى متكبر » (١) . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ان أبغضكم الينا وابعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » : أي المتكبرون . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذرآ في مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون الى سجن في جهنم يقال له (بولس) ، تعلوهم نار شر أنيار (٢) ، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى » ، وقال « ان في جهنم وادياً يقال له (هبهب) ، حق على الله ان يسكنه كل جبار » ، وقال: « ان في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » ، وقال: « اذا مشت امتي المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) سلط الله بعضهم على بعض » ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال . وقال عيسى بن مريم : «كما ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ، ألا ترون انه من يتشمخ برأسه الى السقف شجه ، ومن يطأطىء أظله وأكنه » . ولما حضرت نوحا الوفاة ، دعا ابنيه فقال :

(١) صححنا الحديث على كنز العمال ـ ج٢ ص١٠٧ ـ . والجواظ: المتكبر الجافي ، والجعظري : الفظ الغليظ .

(٢) كذا في النسخ . وفي نسخة احياء العلوم ـ ج٢ ص٢٩٠ ـ : (نار الانيار) ، ولم نعثر على جمع نار على انيار ، وانما من جملة جموعها(نيار).

«إني آمر كما باثنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر وآمر كما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده» . وقال سليمان بن داود يوماً للطير والجن والانس والبهائم : «اخرجوا ، فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر ، فسمع صوتاً يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته .

وقال الباقر (ع) : «الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه» ، وقال : «العز رداء الله والكبر إزاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم وقال الصادق (ع) : «إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى الى الله شدة حره وسأله ان يأذن له ان يتنفس ، فتنفس فاحرق جهنم» . وقال (ع) : «ان المتكبرين يجعلون في صور الذر ، يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب» . وقال (ع) : «ما من رجل تكبر او تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه ، وقال (ع) : «ان في السماء ملائكة موكلين بالعباد ، فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبر وضعاه» . وقال (ع) : «الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق» ، قال الراوى : اما الحق فلا أجهله ، والغمص لا أدري ما هو قال : «من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار» . وقال (ع) : «ما من عبد إلا وفى رأسه حكمة وملك يمسكها ، فاذا تكبر قال له : اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس ، واذا تواضع رفعها الله - عز وجل - ثم قال له : انتعش نعشك الله ، فلا يزال اصغر الناس فى نفسه وارفع الناس في أعين الناس» .

فصل

(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله ، كما كان لنمرود وفرعون ، وسببه الطغيان ومحض الجهل ، وهو أفحش انواع الكبر ، إذ هو اعظم افراد الكفر ، ولذا تكررت في ذمه الآيات ، كقوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »(١). وقوله : « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »(٢). وقوله : تعالى : : « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا »(٣) وقوله : « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ »(٤).

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول :

« أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا »(٥). ولمن يقول : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا »(٦) . « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

(١) غافر ، الآية : ٦٠ .

(٢) النساء ، الآية : ١٧٢ .

(٣) مريم ، الآية : ٦٩ .

(٤) النحل ، الآية : ٢٣ .

(٥) الانعام ، الآية : ٥٣ .

(٦) المؤمنون ، الآية : ٤٧ .

مِثْلُنا (۱) . « وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ » (۲) . ولمن قال : « لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنا المَلائِكَةُ أو نَرى رَبَّنا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوا عُتُوّاً كَبِيراً »(٣).

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله ، وان كان دونه .

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم ، وهذا وان كان دون الاولين ، إلا انه من المهلكات العظيمة ، من حيث انه يؤدي الى مخالفة الله سبحانه ، إذ صاحبه اذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده ، ومن حيث ان العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلي الأعلى ، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته ، ولذا قال الله سبحانه : « العظمة إزاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته » .

فصل

(درجات الكبر)

للكبر درجات ثلاث :

(الاولى) ان يكون مستقراً في قلبه ، يرى نفسه خيراً من غيره ، ويظهره في أفعاله : بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وان يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطب جبينه . وفي أقواله :

(۱) ابراهيم ، الآية ١٠ .

(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٤ .

(٣) الفرقان ، الآية : ٢١ .

باظهار الانكار على من يقصر فيما يتوقعه ، من التعظيم ، وابداء الدعوى ، والمفاخرة والمباهاة ، وتزكية النفس ، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل، وهذه الدرجة اقبح الدرجات واشدها ، اذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت اغصانها وفروعها ، بحيث احاطت على جميع جوارحه .

(الثانية) كالأولى ، إلا في إظهاره على اللسان ، وهي دون الأولى ، لكونها أقل اغصاناً منها .

(الثالثة) ان يكون مستقراً في قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد في التواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه . وهذا وان رسخت في قلبه شجرة الكبر ، إلا انه قطع اغصانها بالكلية ، فان كان مع ذلك منكراً على نفسه فيما رسخ فيها ، ومغضباً عليها ومتشمراً لازالتها إلا انه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة ، وتميل النفس الى ما تشتهيه في بعض الاحيان بدون اختيار ، ولكنه كان في مقام المجاهدة ، فلعله لم يكن عليه كثير إثم ، ومثله يوفقه الله للوصول الى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل

(علاج الكبر علماً وعملا)

الكبر كالعجب في كيفية العلاج اجمالا وتفصيلا ، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب ـ أي استعظام النفس ـ وكان العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر ايضاً . ولكن ما به الكبر ـ اعنى بواعثه ـ هي بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما .

ومن المعالجات المختصة بالكبر : ان يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات

والاخبار المذكورة وغيرها ، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده ـ اعني التواضع كما يأتي . ولكون الكبر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغي ان يعلم ان الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة ، فلعل في الغير من خفايا الاخلاق الكريمة ما ينجيه ، وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه . وكيف يجتريء صاحب البصيرة ان يرجح نفسه على الغير ، مع ابهام الخاتمة وخفاء الاخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب الى الله تعالى ، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له ، فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة و الهلاك بالواطن لايرى لنفسه مزية على غيره ، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر الى احد بنظر السوء والعداوة ، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

اشكال وحل

(فان قيل) : كيف يحسن ان يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيرا من نفسه ، مع ظهور جهله وفسقه ، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ؟ وكيف يجوز له ان يحب فاسقاً او كافراً او مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه ، مع انه مبغوض عند الله ، فيكون مأموراً ببغضه ، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين ؟

(أجبنا) عن (الاول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها ، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الاموال المحرمة وغير ذلك ، إذ العالم يبغض

العلوم لايمكنه ان يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامي غير عالم بها . لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الامرية إنما هو بالتقرب الى الله والوصول الى السعادة الدائمية ، ولا شك فى ان ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات او غير ذلك من الصفات المحمودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة ، وهو أمر مبهم ، إذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن ان يسلم الكافر ويختم له بالايمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر ، فعلى كل عبد ان رأى من هو شراً منه ظاهراً ان يقول : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا يراه شراً من نفسه في الواقع خائفاً من العاقبة ويقول : لعل بر هذا باطن ، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرّى ظاهر لا آمن ان تدخله الآفات فتحبطه . وبالجملة : ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الاعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد .

وعن (الثاني) إن الحب ينبغي ان يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق . واي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد ، وبين عدم الكبر والاذلال ؟ إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك ، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر الى نفسك ، بألا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً في حال غضبك عليه لأمر الله ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه ، وترى قدرك فوق قدره .

ومثال ذلك ـ ان يكون للملك غلام وولد ، وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لايليق به ، فان كان الغلام مطيعاً محباً لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالالأمر مولاه ، ومع ذلك يحبه لانتسابه الى مولاه بالولاده ، ولايتكبر عليه ويتواضع له ، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لامحالة من الغلام.

تذنيب

(العلاج العملي للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمي ، واما (العلاج العملي) فهو ان يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق ، ويواظب على اخلاق المتواضعين ، ويكلف نفسه على ذلك الى ان تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها ، ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها ، فلابد ان يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر ، فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها :

(الأول) ان يناظر مع أقرانه في بعض المسائل ، فاذا ظهر شيء من الحق على لسانهم ، فان اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ماغفل عنه فهو علامة التواضع ، وان ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانه فهو دليل بقاء الكبر بعد . فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها ، من حيث ان قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على مايثقل عليها من الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالثناء والشكر ، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول : ما أحسن فطانتك ! لقد أرشدتني الى الحق ، فجزاك الله خيراً ، فاذا

واظب على ذلك مراتب متوالية ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، وان لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ ، فليس فيه كبر ، بل فيه رياء ، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء .

(الثاني) ان يقدم الاقران والامثال على نفسه في المحافل ، ويمشي خلفهم في الطرق ، فان لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع ، وإلا فمتكبر ، فليقدمهم بالتكلف ، ويجلس تحتهم ، ويظهر السرور والارتياح بذلك ، حتى يسقط عنه ثقله . قال ابو عبد الله الصادق (ع) : « إن من التواضع ان يجلس الرجل دون شرفه » . وقال (ع) : « من التواضع ان ترضى بالمجلس دون المجلس ، وان تسلم على من تلقى ، وان تترك المراء وان كنت محقاً ، ولا تحب ان تحمد على التقوى » . ومن المتكبرين من اذا لم يجد مكاناً في الصدر يجلس في صف النعال ، او يجعل بينه وبين الاقران بعض الاراذل ولا يجلس تحتهم ، وغرضهم من ذلك استحقار الاقران او إيهام ان تركهم للصدر انما هو بالتفضل ، فهو أشد أنواع التكبر .

(الثالث) ان يجيب دعوة الفقير ، ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب ، ويحمل حاجتهم وحاجة نفسه منه الى البيت ، فان لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر . قال أمير المؤمنين(ع) : « لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء الى عياله » . وروي : « انه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته ، فقال له بعضهم احمل عنك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : لا ! ابو العيال أحق ان يحمل» . وروي : « ان الصادق (ع) : نظر الى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحيى منه ، فقال له ابو عبد الله (ع) : اشتريته

لعيالك وحملته اليهم ، اما والله لو لا أهل المدينة لأحببت ان اشتري لعيالي الشيء ثم أحمله اليهم » .

(الرابع) ان يلبس ثياباً بذلة ، فان لم يثقل عليه ذلك أصلا فليس فيه كبر ورياء، وإلا كان متكبراً او مرائياً ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « انما انا عبد آكل في الارض ، وألبس الصوف ، وأعقل البعير ، وألعق أصابعي ، واجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » وقيل لسلمان : لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : « إنما انا عبد ، فاذا اعتقت يوماً لبست جديداً » : اشار به الى العتق فى الآخرة . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : البذاذة ـ أي الدون من اللباس ـ من الايمان » . وعوتب امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في ازار مرقوع ، فقال : « يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب » .

(الخامس) ان يأكل مع خدامه وغلمانه ، فان لم يثقل عليه فهو متواضع وإلا فمتكبر . وروى رجل من اهل بلخ ، قال : كنت مع الرضا (ع) في سفره الى خراسان ، فدعا يوماً بمائدة ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك ! لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال (ع) : ان الرب تعالى واحد ، والدين واحد ، والأم واحدة ، والاب واحد ، والجزاء بالأعمال » .

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هي كثيرة :

كان يحب قيام الناس له او بين يديه ، قال امير المؤمنين (ع) : « من اراد ان ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام » . وقال بعض الصحابة : « لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله ،

وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك » .

وان يحب ان يمشي خلفه غيره ، وقد روي « انه لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه » . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الاصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشى في غمارهم .

وألا يزور غيره ، وان كان في زيارته فائدة دينية . وان يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى . روي انه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر ، وعنده ناس من اصحابه يأكلون ، فما جلس عند احد إلا قام من جنبه. فاجلسه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الى جنبه. وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في نفر من اصحابه يأكلون في بيته ، إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له : « أطعم » ، وكان رجلا من قريش اشمأز منه وتكره ، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . ومر سيد الساجدين ـ عليه السلام ـ على المجذومين (١) وهو راكب حماره ، وهم يتغدون ، فدعوه الى الغداء ، فقال : « اما اني لو لا اني صائم لفعلت » ، فلما صار الى منزله امر بطعام فصنع ، وامر ان يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم ، فتغدوا عنده وتغدى معهم . . . وقس على هذه غيرها من الامتحانات .

ولقد كانت سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع ، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الافعال والحركات ، فينبغي لكل مؤمن ان يقتدي به . وقد روى ابو سعيد الخدري : « انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم

(١) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا : (المجذمين).

البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه اذا أعيى ، ويشري الشيء من السوق، ولايمنعه الحياء ان يعلقه بيده او يجعله في طرف ثوبه وينقلب الى اهله . يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير او كبير اسود او احمر حر او عبد من اهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه ، لا يستحيي من ان يجيب اذا دعي ، وان كان اشعث اغبر ، ولا يحقر مادعي اليه وان لم يجد إلا حشف الرّقل (١) ، لا يدفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساماً من غير ضحك محزوناً من غير عبوس ، شديداً في غير عنف . متواضعاً في غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رحيماً لكل ذي قربى ، قريباً من كل ذمي ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الاطراق ، لم يبسم قط من شبع ، ولا يمد يده الى طمع » . هذا وقال ابو الحسن ـ عليهما السلام ـ : « التواضع : ان تعطى الناس ماتحب ان تعطاه » . وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً ، فقال : « التواضع درجات : منها ان يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب ان يأتي الى احد إلا مثل مايؤتى اليه ، ان رأى سيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عاف عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

وصل

(التواضع ومدحه)

قد اشير الى ان ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس يمنعها من ان يرى لذاتها مزية على الغير ، وتلزمه افعال واقوال موجبة لاستعظام

---

(١) في احياء العلوم ـ ج٣ ص٣٠٦ ـ هكذا : (الدقل) ، وكل من النسختين يصح به المعنى .

الغير وإكرامه ، والمواظبة عليها اقوى معالجة لازالة الكبر . ولابد من الاشارة الى الاخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده ، تحريكا للطالبين الى السعي في تحصيله الموجب لازالة ضده ، وهذه الاخبار كثيرة خارجة عن حد الاحصاء ، فنكتفي بايراد بعض منها :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وانفق مالاً جمعه من غير معصية ، ورحم اهل الذلة والمسكنة ، وخالط اهل الفقه والحكمة » . وروي : « ان الله سبحانه اوحى الى موسى : إنما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من اجلي » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لاصحابه : « مالي لا ارى عليكم حلاوة العبادة ! قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا هدى الله عبداً الاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً ، فذلك من صفوة الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « اربع لا يعطيهن الله الا من يحبه : الصمت وهو اول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليعجبني ان يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله ، ومن بذر حرمه الله ، ومن اكثر ذكر الموت احبه الله ، ومن اكثر ذكر الله اظله الله في جنته » . وروي : « انه أتى رسول الله ـ صلى الله عليه

وآله وسلم ـ ملك، فقال : ان الله تعالى يخيرك ان تكون عبداً رسولا متواضعاً او ملكا رسولا . فنظر الى جبرئيل (ع) وأومى بيده ان تواضع ، فقال : عبداً متواضعاً رسولا ، فقال الرسول ـ يعني الملك ـ : مع انه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً » . وقال عيسى بن مريم (ع) : « طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة : طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله » . واوحى الله تعالى الى داود (ع) : « ياداود ! كما ان اقرب الناس الى الله المتواضعين كذلك ابعد الناس من الله المتكبرون » . وروي : « ان سليمان بن داود اذا اصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء الى المساكين فيقعد معهم ، ويقول مسكين مع مساكين » . وروي : « انه ورد على امير المؤمنين (ع) اخوان له مؤمنان ، اب وابن ، فقام اليهما واكرمهما واجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين ايديهما ، ثم امر بطعام فأحضر فأكلا منه ، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل ، وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الابريق ليصب على يد الرجل ، فتمرغ الرجل في التراب ، وقال يا امير المؤمنين ! الله يراني وانت تصب على يدي ! قال : اقعد واغسل ، فان الله ـ عز وجل ـ يراك واخوك الذي لايتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك ، يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة اضعاف عدد اهل الدنيا . فقعد الرجل . وقال له علي (ع) : أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الابريق محمد بن الحنفية ، وقال : يابني ! لو كان هذا الابن حضرني دون ابيه لصببت على يده ، ولكن الله ـ عز وجل ـ يأبى ان يسوى بين ابن وابيه اذا جمعهما مكان ،

لكن قد صب الاب على الاب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن » (١) .

وقال الصادق (ع) : « التواضع اصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب . والتواضع مايكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده . ولاهل التواضع سيماء يعرفها اهل السماوات من الملائكة واهل الارض من العارفين . قال الله عز وجل ،

« وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ » (٢).

واصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته . وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع . ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته ، قال الله عز وجل :

« وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً » (٣) .

وقد امر الله ـ عز وجل ـ اعز خلقه وسيد بريته محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ بالتواضع ، فقال عز وجل :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (٤).

(١) روي هذا الحديث في البحار ـ في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص١٤٩ باب التواضع ـ عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام العسكري (ع).

(٢) الاعراف ، الآية : ٤٦ .

(٣) الفرقان ، الاية ٦٣ .

(٤) الشعراء ، الآية : ٢١٥ .

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء ، وانهن لا يأتين الا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي الا للمتواضع في ذات الله تعالى (١) . وقال الامام ابو محمد الحسن بن علي العسكري عليهم السلام : « اعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله شأناً ، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ حقاً » (٢) .

تتميم

(الذلــة)

لما عرفت ان كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان ، فأحد طرفي التواضع (الكبر) ـ كما عرفت ـ وهو من طرف الافراط ، وآخرهما (الذلة) والتخاسس وهو من طرف التفريط . فكما ان الكبر مذموم ، فكذلك المذلة والتخاسس ايضاً مذموم ، اذ كلا طرفي الامور ذميم ، والمحمود : هو التواضع من دون الخروج الى شيء من الطرفين ، اذ أحب الامور الى الله اوسطها ، وهو ان يعطي كل ذي حق حقه ، وهو العدل ، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن ان يذل نفسه ، فالعالم اذا دخل عليه اسكاف فتخلى له مجلسه واجلسه فيه ، وترك تعليمه وافادته ، واذا قام عدا الى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو غير محمود ، بل هو رذيلة في طرف التفريط . فاللازم اذا وقع فيه ان يرفع نفسه الى ان يعود الى الوسط الذى هو الصراط المستقيم فان العدل ان يتواضع بمثل ماذكر لامثاله ولمن يقرب درجته . فاما تواضعه للسوقي ، فبالبشر في الكلام ، والرفق في السؤال ، واجابة دعوته ، والسعي

(١) روى هذا الحديث في البحار ايضاً في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة .

(٢) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام

في حاجته ، وامثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيراً منه ، نظراً الى خطر الخاتمة.

ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين ، اذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذله المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر ، وتقريره على تكبره ، واذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر ، اذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس ، ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، فان ذلك لهم مذلة وصغار » .

ومنها :

الافتخار

اي المباهاة باللسان بما توهمه كمالاً ، والغالب كون المباهاة بالامور الخارجة عن ذاته ، وهو بعض اصناف التكبر ـ كما اشير اليه ـ فكل ماورد في ذمه يدل على ذمه ، والاسباب الباعثة عليه هي اسباب التكبر . وقد تقدم ان شيئاً منها لا يصلح لان يكون منشأ للافتخار ، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة . قال سيد الساجدين (ع) : « عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالامس نطفة ثم (هو) (١) غداً جيفة » . وقال الباقر (ع) : « عجباً للمختال الفخور ، وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة ، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به » . وقال (ع) : « صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ المنبر يوم فتح مكة ، فقال : ايها الناس! ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا إنكم من آدم وآدم من طين ، ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه » . وقال له(ع) عقبة بن بشير الاسدي : انا في الحسب الضخم عزيز

(١) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو) .

في قومي ، فقال له : « تمن علينا بحسبك ! إن الله تعالى رفع بالايمان من كان الناس يسمونه وضيعاً اذا كان مؤمناً ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً اذا كان كافراً . فليس لأحد فضل على احد إلا بتقوى الله ». وقال الصادق (ع) : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : آفة الحسب الافتخار والعجب ». وقال (ع) ، « اتى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ رجل ، فقال : يارسول الله ! انا فلان بن فلان . . . حتى عد تسعة ، فقال رسول الله : اما انك عاشرهم في النار ! » . ونقل : ان قريشاً تفاخروا عند سلمان ، فقال : « لكني خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم الى الميزان ، فان ثقل فانا كريم وان خف فأنا لئيم ». ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول .

ومنها :

البغي

ويسمى البذخ ايضاً ، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب ان ينقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد (له) ، او في ضمن احد أفعال الكبر ، او في ضمن الظلم والتعدي على الغير . وعلى اى تقدير هو افحش انواع الكبر اذ عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد (له)ـ كالانبياء وأوصيائهم ـ يؤدي الى الكفر الموجب للهلاك الابدي . ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار ، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم . وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ما ورد ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ان أعجل الشر عقوبة البغي » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « حق على الله عز وجل الا يبغي شيء على شيء

إلا أذله الله ، ولو ان جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغي منهما ».وقال امير المؤمنين (ع) : « ايها الناس! ان البغي يقود اصحابه الى النار . وان اول من بغى على الله عناق بنت آدم ، واول قتيل قتله الله عناق ، وكان مجلسها جريبا في جريب ، وكان لها عشرون اصبعاً في كل اصبع ظفران مثل المنجلين ، فسلط الله عليها اسداً كالفيل ، وذئباً كالبعير ، ونسراً كالبغل ، فقتلنها . وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل احوالهم وآمن ماكانوا ». وقال الصادق (ع): « يقول ابليس لجنوده : القوا بينهم الحسد والبغي فانهما يعدلان عند الله الشرك » . وكتب (ع) الى بعض اصحابه : « انظر ألا تكلمن بكلمة بغي ابداً، وان اعجبتك نفسك وعشيرتك » .

وعلاجه : ان يتذكر ـ اولا ـ هذه الاخبار الواردة في ذمه ، و ـ ثانياً ـ ما ورد في مدح ضده ـ اعني التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته ـ كقولهم ـ عليهم السلام ـ: « شيعتنا المسلمون ». والآيات والاخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واولي الامر ، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الائمة في زمن الغيبة . وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع ، ويتخضع له قولاً وفعلا ، حتى يصير ذلك له ملكة .

ومنها :

تزكية النفس

اى نفي النقائص عنها ، واثبات الكمالات لها . وهو من نتائج العجب . وقبحه اظهر من ان يخفى . اذ من عرف حقيقة الامكان ، ثم اطلع على خلق الانسان ، يعلم انه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان .

على انه يتضمن بخصوصه قبحاً يشهد به الذوق والوجدان ، ولذا قال أمير المؤمنين (ع) : « تزكية المرء لنفسه قبيحة » . وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته .

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها واثبات النقائص لها ، فاذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية ، يصير معتاداً له ، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه .

ومنها :

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه او ماله اليه نسبة : من الدين ، والاقارب ، والعشائر ، واهل البلد ، قولا او فعلا : فان كان مايحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته ، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في مالا يجوز شرعاً ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب ـ كما مر ـ . وان كان مما يلزم حمايته ، او كانت حمايته بالباطل ، بأن يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً ، فهو التعصب المذموم ، وهو من رداءة قوة الغضب . والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين (ع) حيث سئل عن العصبية ، فقال : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها : ان يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية ان يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية ان يعين قومه على الظلم » .

والغالب اطلاق العصبية في الاخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من تعصب او تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع اعراب الجاهلية » . وقال السجاد (ع) : « لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك حين أسلم غضباً للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في حديث السلى الذي ألقى على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ » . وقال الصادق (ع): «ان الملائكة كانوا يحسبون ان ابليس منهم ، وكان في علم انه ليس منهم ، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب ، فقال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »(١).

ومنها :

كتمان الحق

والانحراف عنه . وباعثه إما العصبية او الجبن ، فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلى (الاول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط ، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط ، وربما كان الباعث في بعض افراده الطمع المالي ، إلا ان الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب ، كما في نفس الغضب وغيره ، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل في الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب المحق ، وغير ذلك .

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً ، وعلى كل واحد من الاصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق : ان يتذكر ـ أولاً ـ ايجابهما لسخط الله ومقته ، وربما تأديا

---

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ . ص ، الآية : ٧٦ .

الى الكفر ، و ـ ثانياً ـ فوائد ضدهما ، أعني الانصاف والاستقامة على الحق . وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة ، الى ان يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق .

وصل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الانصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر الى بعض ماورد في مدحهما تحريكا للطالبين الى الاخذ بهما ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لايستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه ، وبذل السلام » . وكان ـ صلى الله عليه وآله ـ يقول في آخر خطبته : « طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيته ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وانفق الفضل من ماله ، وامسك الفضل من قوله ، وانصف الناس من نفسه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سيد الاعمال انصاف الناس من نفسك . . . » الى آخره. وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من واسى الفقير من ماله وانصف الناس من نفسه ، فذلك المؤمن حقاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « ثلاث خصال من كن فيه او واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل أعطى الناس عن نفسه ماهو سائلهم . . . » الحديث . وقال امير المؤمنين (ع) في كلام له : « ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله الا عزاً » . وقال الصادق (ع) : « من يضمن لي أربعة باربعة ابيات في الجنة : انفق ولا تخف فقراً ، وافش السلام في العالم ، واترك المراء وان

كنت حقاً ، وانصف الناس من نفسك » . وقال (ع) : « ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه ؟» ، فذكر ثلاثة اشياء أولها : (انصاف الناس من نفسك) . وقال (ع): « من انصف الناس من نفسه رضى به حكماً لغيره». وقال (ع) : « ما تدارى اثنان في امر قط فاعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه » . وقال (ع) : « ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على ان يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع احدهما على الآخر بشعيرة ، ورجل قال بالحق فيما له وعليه » . وقال ـ عليه السلام ـ : « ان لله جنة لا يدخلها إلا ثلاثة ، احدهم من حكم في نفسه بالحق » (١) .

ومنها :

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع . ولا ريب في كونه ناشئا من غلبة السبعية ، واكثر ذمائم الصفات : من الظلم والايذاء ، وعدم اغاثة المظلومين ، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرقة ، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه ، ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب في الاخبار الكثيرة ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم ، فاني جعلت فيهم رحمتي . ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فاني جعلت فيهم سخطي» . وكقول الصادق (ع) : « اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين

(١) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر عليه السلام

متراحمين . . . الخ » . وقوله (ع) : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما امركم الله » . وقوله (ع) : « يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل : رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ » . وقد ورد : أن من ترحم على العباد يرحمه الله . والاخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة ، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته ; من اعانة المحتاج ، واغاثة المظلوم ، ومواساة الفقير ، والاغتمام بمصائب المؤمنين ، وأمثال ذلك ، اكثر من ان تحصى .

ثم ان ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الاشكال ، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج ان يترك لوازمها وآثارها من الافعال الظاهرة ، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الاولى ويحصل مبدأ الثانية .

(انتهى الجزء الأول)

فهرس

الجزء الاول من جامع السعادات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

